

جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

حديث الـــروح

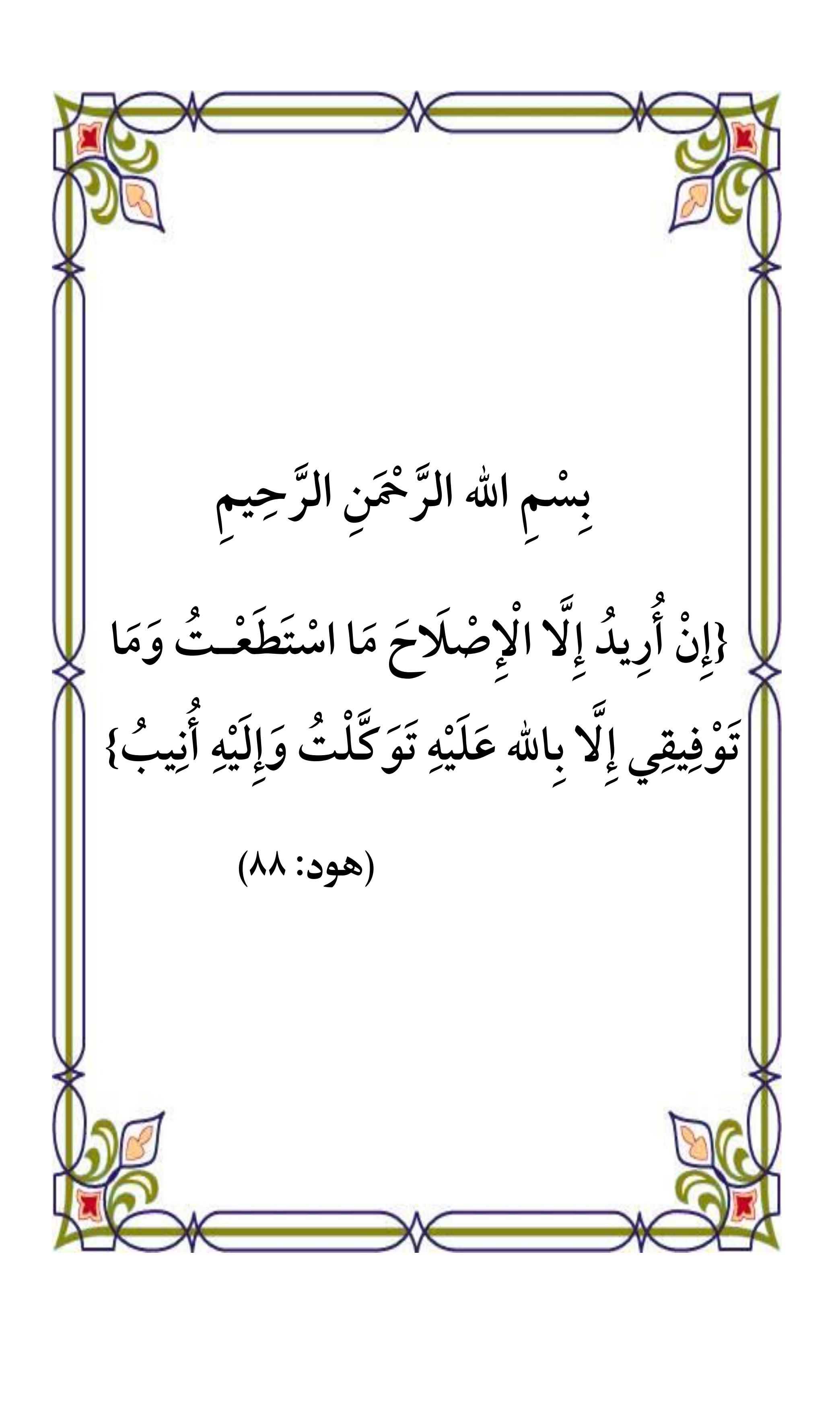
أ.د/ محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

وعضو مجمع البحوث الإسلامية

١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْـتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}

(هود: ٨٨)



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعد:

فقد فكرت كثيرًا في أن أخرج كتابًا حول بعض القيم والأخلاق والإنسانيات يكون زادًا للأئمة والخطباء والوعاظ في خطبهم ودروسهم وللواعظات في دروسهن ، كما يكون زادًا لعامة المسلمين الحريصين على التزود بصحيح الدين ، ولا سيما في باب مكارم الأخلاق .

وبعد أن سجلت أكثر من مائتي حلقة للبرنامج الديني التليفزيوني التاريخي" حديث الروح " ، ذلكم البرنامج الذي يعد أحد أهم البرامج الدينية في الذاكرة المصرية وربما العربية والإسلامية ، لما يحظى به من عناية فائقة عبر تاريخ طويل من الزمن ، ولاستضافته كبار شيوخ الأزهر الشريف ووزراء الأوقاف والمفتين والعلماء والمفكرين وكبار أساتذة الجامعات مما جعله أحد أهم البرامج الدينية التي أثرت الحياة الفكرية الدينية والثقافية .. رأيت أن أحول بعض هذه الأحاديث التي أديتها متلفزة

إلى مادة علميــة مكتوبة ، وضممت إليهــا بعض المقــالات التي نشـرتهــا في مختلف وسائل الإعلام المقروءة فيما يتصل بهذا الباب ، مؤملاً أن أسهم في تقديم مادة دعوية وتثقيفية ميسرة حول قضايا القيم والأخلاق ، تعتمد أكثر ما تعتمد على الكتاب والسنة ، مع إضاءات لأهم المعاني المتصلة بالموضوع بما يسهم في ترسيخ هذه القيم في النفوس ، وتقوية الحس الإيماني ، وتزكية الروح ، في إطار المنهج الإسلامي السمح القائم على التوازن بين متطلبات الروح وحاجات الجسد ، بما يحقق السعادة للفرد والمجتمع في الدنيا بعمارة الكون وصنع الحضارة وصالح الإنسانية جمعاء ، وفي الآخرة بالفوز بفضل الله تعالى ورحمته ورضوانه .

كما عملت من خلال عرض بعض الموضوعات على تصحيح كثير من المفاهيم الخاطئة ، ففي حديثي عن العلم النافع أكدت أن المراد به كل ما يحمل نفعًا للناس في شئون دينهم، وشئون دنياهم ، في العلوم الشرعية ، أو العربية ، أو علم الطب ، أو الصيدلة ، أو الفيزياء ، أو الكيمياء ، أو الفلك ، أو الهندسة ، أو الميكانيكا ، أو الطاقة ، وسائر العلوم والمعارف .

مع بيان أن ثواب تعلم الطب لا يقل عن ثواب تعلم الفقه ، والعبرة بأمرين: الأول إخلاص النية لله (عز وجل) ، والآخر: مدى حاجة المجتمع

إلى علم من العلوم ، أو صناعة من الصناعات سواء أكان الأمر واجبًا كفائيًّا أم ارتقى إلى درجة الواجب العيني .

كما يثبت أن قوله تعالى:" قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ "(الزمر: ٩)، وقوله تعالى:" فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ "(النحل: ٤٣)، أعم من أن نحصر أيًّا منهما أو نقصُـره على علم الشريعة وحده ، فالأمر متسع لكل علم نافع .

وفي حديثي عن الزهد بينت أن الزهد يرتبط في أذهان بعض الناس بجوانب شكلية لا علاقة لها بحقيقته ، وقد يتوهم بعض الناس خطأ أن الزهد رديف الفقر أو حتى الفقر المدقع، فالزاهد في تصور البعض شخص بالضرورة قليل المال ، وربما قليل الحيلة ، وربما رث الثياب أو مخرقها ، صوته لا يكاد يبين ، ويده لا تكاد تلامس مصافحها ، ثم تطور الأمر إلى سلبية أشد بهجر العمل ، وربما ترك الدراسة العلمية أو عدم الاكتراث بها ، والخروج من الدنيا بالكلية إلى عالم أقرب ما يكون إلى الخيالات الخاطئة منه إلى دنيا الواقع ، في تعطيل مقيت وغريب وعجيب وشاذ للأسباب ، مع أن ذلك كله شيء والزهد شيء آخر .

ولا شك أن النظرة الخاطئة للزهد جرَّت إلى السلبية والاتكالية والبطالة والكسل والتواكل والتخلف عن ركب الأمم ، مع أن ديننا هو دين العمل

والإنتاج والإتقان والأخذ بالأسباب ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانا "(سنن الترمذي) ، فهي تغدو وتروح ضربًا في الأرض وأخذًا بالأسباب.

وإني لأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت ، والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

□

أركـــان الإســـلام وحقيقته

لقد حدد حديث جبريل (عليه السلام) أركان الإسلام والإيمان ومفهوم الإحسان ، فعن سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال : "بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعرِ ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ؟، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): الْإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، قَالَ: صَدَقْتَ ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَن الْإِيمَانِ ؟، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، قَالَ: صَدَقْتَ ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ؟، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ ؟ قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا ؟ قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ ، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ

لِي : يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ" (صحيح مسلم).

فأول أركان الإسلام: الشهادتان ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وثانيها: إقامة الصلاة ، وهو أداؤها في أوقاتها تامة كاملة غير منقوصة ، وثالثها: إيتاء الزكاة ، لمن امتلك نصابًا ، وهو تأكيد أن من لا يؤدي الزكاة مع امتلاكه النصاب كان في الحكم والإثم كمن ضيع الصلاة سواء بسواء .

والركن الرابع: صوم رمضان ، أما الحج وهو الركن الخامس فمن رحمة الله تعالى بنا أن جعله على المستطيع ماليًّا وبدنيًّا ، وجعل حج الفريضة مرة واحدة تخفيفًا وتيسيرًا على أمة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فمن أدّى ذلك فقد أدّى ما افترضه الله عليه .

وقد سأل أحد الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم) نبينا (صلى الله عليه وسلم) عَنِ الإِسْلاَمِ ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : "خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ "، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا ؟ قَالَ: " لاَ ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ "، قَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم): " وَصِيَامُ رَمَضَانَ"، قَالَ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ ؟ قَالَ: " لاَ ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ " قَالَ: وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) الزَّكَاةَ ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا ؟ قَالَ: " لاَ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ " ، قَالَ: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ وَالله لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلاَ أَنْقُصُ ، قَالَ رَسُولُ

الله (صلى الله عليه وسلم): " أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ" (متفق عليه) ، وفي رواية: "إِنْ صَدَقَ دَخَلَ الْجَنَّةَ " (سنن أبي داود).

هذا من حيث الأداء ، أما من حيث ثمرة العبادات فإنها لا تكاد تتحقق إلا إذا هذّبت سلوك صاحبها ، فنهته الصلاة عن الفحشاء والمنكر ، ونهاه الصيام عن السباب والفسوق ، وطهّرت الزكاة نفسه من الشح والبخل ، ونهاه حجه عن الفسوق والعصيان ، فصار سلمًا للناس أجمعين ، فالمسلم الحقيقي هو من سَلِمَ الناس كل الناس من لسانه ويده ، فالإسلام دين الرحمة والسلام ، دين لا يعرف الأذى ، فالمسلم الحقيقي هو من سلم الناس من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم وأنفسهم ، ولما سئل نبينا (صلى الله عليه وسلم) عن امرأة صوامة قوامة غير أنها تؤذي جيرانها ، قال (صلى الله عليه وسلم): "هي في النار" (مسند أحمد) ، وهو القائل (صلى الله عليه وسلم): "والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن " قالوا: من يا رسول الله ؟ ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "من لا يأمن جاره بوائقه"(صحيح مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جَارَهُ " (صحيح مسلم).

دين يحفظ للإنسان كرامته ، فينهى عن الغيبة ، والنميمة ، والتحاسد ، والتباغض ، والاحتقار ، وسوء الظن ، لهو دين عظيم ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله تَوَّابٌ رَحِيمٌ" (الحجرات:١١، ١٢)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " لَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ" (متفق عليه) .

دين يمنع الظلم والغش ، ولو مع أعدائه ، ويحرم سائر الممارسات الاحتكارية ، ويعمل على تحقيق الرحمة للإنسان والحيوان والجماد ، لهو دين عظيم .

دين ينهى عن كل ألوان الفساد والإفساد والتدمير والتخريب ، ويعصم الأموال والأعراض والأنفس ، لهو دين عظيم ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه: "وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا " (الأعراف: ٥٦)،

ويقول عز وجل: " وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ " (البقرة: ٦٠) ، وحيث يقول سبحانه: " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ الله عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَالله لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ الله أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ " (البقرة:٢٠٤، ٢٠٦) ، وحيث نهى نبينا (صلى الله عليه وسلم) سيدنا معاذ بن جبل عن أي ظلم أو إجحاف بأموال المستضعفين أو أخذ كرائم أموالهم فقال له: "يا معاذ ، إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنِّي رَسُولُ الله ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ" (متفق عليه).

وأخيرًا نستطيع أن نقول: إن الإسلام قضية عادلة ودين عظيم ، وإنه وإن تعرض للهجوم من أعدائه ؛ فإن المخلصين من أبنائه قادرون بإذن الله (تعالى) على تجلية الغبار عنه ، وعرضه عرضًا صحيحًا من خلال البلاغ الواضح المبين ، الفاهم لفقه المقاصد ، وفقه الواقع ، وفقه المتاح ، وفقه الأولويات ، فهمًا يؤهل صاحبه للوفاء بواجب هذا الدين العظيم ، بما يحمله

لصالح الإنسانية جمعاء من سبل السعادة والرقي ، وما يحمله لمن يعمل به من خير الدارين: الدنيا والآخرة .

* * *

حقيقة الإيمان وعلاماته

الإيمان كما عرفه حبيبنا محمد (صلى الله عليه وسلم) في حديث جبريل (عليه السلام) ، عندما سأل النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الإيمان ، فأجابه (صلى الله عليه وسلم) بقوله:" أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ " (صحيح مسلم).

والإيمان بالله (عز وجل) يقتضي أن تؤمن بأنه واحد أحد " لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ" (سورة الإخلاص)، وأنه هو الخالق القابض الباسط المعز المذل ، "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" (يس: ٨٢).

وأن تدرك إدراكا لا يخالجه أي شك بأن الأمر كله لله ، و" أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ " (سنن الترمذي).

ومن أخص علامات الإيمان والثقة في الله: الصدق ، حتى قال بعضهم: الإيمان الحقيقي هو الذي يحملك على أن تقول الصدق مع ظنك أن الصدق قد يضرك ، وألا تقول الكذب مع ظنك أن الكذب قد ينفعك ، لعلمك أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك .

ومن أهم علامات الإيمـان: الرضا بمـا قسم الله ، وخشية الله في السـر والعلن ، والاطمئنان بذكر الله ، وحب الله ورسوله ، وحب الخير للناس وحبهم في الله ولله ، حيث يقول الحق سبحانه : "الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ " (الرعد: ٢٨) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ" (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ "، فقال سيدنا عمر (رضي الله عنه): يَا رَسُولَ الله لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ) ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ وَالله لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): (الآنَ يَا عُمَرُ) " (متفق عليه) .

على أن الحب بلا طاعة حب أجوف لا طائل ولا غناء منه ، فالحب الحقيقي هو الذي يؤدي إلى حسن الاتباع ، حيث يقول سبحانه على لسان نبينا (صلى الله عليه وسلم): " قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (آل عمران: ٣١).

ويقول الشاعر:

تَعْصِي الإِله وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّــه

هــذا محالٌ في القيـاس بديـــع

لَوْ كانَ حُبُّكَ صَادِقًا لأَطَعْتَــه

إنَّ المُحِبَّ لِمَـنْ يُحِـبُّ مُطِيـــع

في كلِّ يـومٍ يبتـديـكَ بنعمـة

منهُ وأنتَ لشـكرِ ذاكَ مضيـع

ثم إن للإيمان وللمؤمنين علامات، من أهمها:

ما ذكره الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز في قوله تعالى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آَيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ" (الأنفال:٢– ٤)، فالمؤمن تقي نقي، يألف ويؤلف، ليس بفظ ولا فاحش ولا غليظ، خاشع لله، مخبت إليه، حيث يقول الحق سبحانه: " أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ " (الحديد: ١٦)، ويقول (عزّ وجل): " فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ الله أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ" (الزمر: ٢٢)، مما يؤكد أن الظواهر التي تميل إلى القسوة والعنف والتطرف والإرهاب وسفك الدماء والتنكيل بالبشـر لا علاقة لها بالإيمان ولا بالأديان، بل إن القرآن الكريم قد نص على ذلك صـراحة في قوله تعالى: "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا " (الفرقان: ٦٣).

إن المؤمن مصدر أمنٍ وأمان ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم"(متفق عليه)، ويقول (صلى الله عليه وسلم):"وَالله لاَ يُؤْمِنُ ، وَالله لاَ يُؤْمِنُ، وَالله لاَ يُؤْمِنُ" قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ : "الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ ،قِيلَ: وَمَا بَوَائِقُهُ ؟ قَالَ: شَرُّهُ" (متفق عليه)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَان وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ" (المعجم الكبير للطبراني).

فالإيمان يربي صاحبه على الكف عن الأذى وعلى حب الخير للآخرين والإحساس بهم والعمل على إسعادهم ، فإذا كان الإيمان خيرًا كله ، فينبغي أن يكون المؤمن خيِّرًا يتحرك على الأرض لنفع الناس ، لا لإيذائهم أو الاستعلاء عليهم أو الإضرار بهم .

ومن أخص صفات المؤمنين الأمانة ، حيث يقول سبحانه وتعالى: "وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ" (المؤمنون: ٨) ، فقد ربط بين

الإيمان والأمانة ، فالإيمان ، والأمن ، والأمان ، والأمانة ألفاظ ترجع في أصل اشتقاقها إلى مادة لغوية واحدة: هي مادة: (أَمِنَ) ، فحيث كان الإيمان كانت الأمانة وكان الأمن ، ولا إيمان لمن لا أمانة له ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) في ربط واضح بين الأمانة والإيمان: " لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ "(مسند أحمد) .

فأداء الأمانة والوفاء بالعهد ، هما أحد أهم جوانب التطبيق العملي لمفهوم الإيمان ، ونلاحظ أن النص القرآني هنا لم يذكر مجرد أداء الأمانة أو الوفاء بالعهد ، إنما تحدث عن رعاية ذلك وتعهده والعناية به كما يتعهد الوالد ولده أو الزارع زرعه ، حيث يقول الحق سبحانه:" إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ" (النساء: ٥٨) ، ويقول تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ" (المائدة:١) ، ويقول (عز وجل): "وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا" (الإسراء: ٣٤) ، فالتزام القيم والأخلاق هو التطبيق العملي لمفهوم الإيمان والدليل على رسوخه وتمكنه من نفس صاحبه .

* * *

العلـــم النافـــع

يقول الحق سبحانه وتعالى: " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ " (الزمر: ٩) ويقول تعالى: " إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ " (فاطر:٢٨) ، ويقول (عز وجل): "يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ" (المجادلة:١١) ، ويقول سبحانه: " فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" (النحل: ٤٣) .

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ الله بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وإنما وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ" (سنن أبي داود) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَلَمْ

يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ ، وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلاَ يَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ الله مَالاً وَلاَ عِلْمًا ، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ " (سنن الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ الله بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ ، قَبِلَتْ الْمَاءَ ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ، وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ ، أَمْسَكَتْ الْمَاءَ ، فَنَفَعَ الله بِهَا النَّاسَ ، فَشَرِبُوا مِنْهَا ، وَسَقَوْا ، وَرَعَوْا ، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ ، لَا تُمْسِكُ مَاءً ، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ الله ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ الله بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى الله الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ" (متفق عليه) .

على أن قيمة العلم إنما تشمل التفوق في كل العلوم التي تنفع الناس في شئون دينهم أو شئون دنياهم ، ولذا نرى أن قول الله (عز وجل): " {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ" (فاطر: ٢٨)، جاء في معرض الحديث عن العلوم الكونية ، حيث يقول سبحانه: " أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ الله عَزِيزٌ غَفُورٌ " (فاطر:

٢٧ ، ٢٨) ، ويقول سبحانه: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ " (آل عمران: ١٩٠ ، ١٩١) .

وقد قالوا: التعلم قبل التعبد ، ليكون التعبد على هدى ، وقال الحسن البصري (رحمه الله): العامل على غير علم كالسّالك على غير طريق ، والعامل على غير علم يفسد أكثر ممّا يصلح ، فاطلبوا العلم طلبا لا تضرّوا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبا لا تضرّوا بالعلم ، فإنّ قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتّى خرجوا بأسيافهم على أمّة محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) ، ولو طلبوا العلم لم يدلّهم على ما فعلوا .(جامع بيان العلم وفضله)

فالعلم النافع هو الذي يكون سبيل هدى ورحمة ورشد لصاحبه في أمر دينه ودنياه ، ولذا رأينا سيدنا موسى (عليه السلام) يقول للعبد الصالح: "هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا " (الكهف: ٦٦) ، وقد قدم النص القرآني صفة الرحمة على صفة العلم حيث يقول الحق سبحانه: "فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا" (الكهف:٦٥)، فالعلم ما لم يكن رحمة لصاحبه وللناس أجمعين فلا خير فيه.

كما أن المراد بالعلم النافع كل ما يحمل نفعًا للناس في شئون دينهم، وشئون دنياهم ، في العلوم الشرعية ، أو العربية ، أو علم الطب ، أو الصيدلة ، أو الفيزياء ، أو الكيمياء ، أو الفلك ، أو الهندسة ، أو الميكانيكا ، أو الطاقة ، وسائر العلوم والمعارف ، وأرى أن قوله تعالى:" قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ "(الزمر: ٩)، وقوله تعالى" فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ " (النحل: ٤٣) ، أعم من أن نحصر أيًّا منهما أو نقصُـره على علم الشريعة وحده ، فالأمر متسع لكل علم نافع .

مع بيان أن ثواب تعلم الطب لا يقل عن ثواب تعلم الفقه ، والعبرة بأمرين: الأول إخلاص النية لله (عز وجل) ، والآخر: مدى حاجة المجتمع إلى علم من العلوم ، أو صناعة من الصناعات سواء أكان الأمر واجبا كفائيًّا أم ارتقى إلى درجة الواجب العيني .

ومما لا شك فيه أننا في حاجة إلى جميع العلوم التي نعمر بها دنيانا كحاجتنا إلى العلوم التي يستقيم بها أمر ديننا ، ونخلصه بها من أباطيل وضلالات الجماعات الضالة المارقة .

* * *

□

حقيقـــة الزهـــد

يرتبط الزهد في أذهان البعض بجوانب شكلية لا علاقة لها بحقيقته ، وقد يتوهم بعض الناس خطأً أن الزهد رديف الفقر أو حتى الفقر المدقع، فالزاهد في تصور البعض شخص بالضرورة قليل المال ، وربما قليل الحيلة ، وربما رث الثياب أو مخرقها ، صوته لا يكاد يبين ، ويده لا تكاد تلامس مصافحها ، ثم تطور الأمر إلى سلبية أشد بهجر العمل ، وربما ترك الدراسة العلمية أو عدم الاكتراث بها ، والخروج من الدنيا بالكلية إلى عالم أقرب ما يكون إلى الخيالات الخاطئة منه إلى دنيا الواقع ، في تعطيل مقيت وغريب وعجيب وشاذ للأسباب ، مع أن ذلك كله شيء والزهد شيء آخر .

وقد قال أهل العلم: ليس الزاهد من لا مال عنده ، إنما الزاهد من لم تشغل الدنيا قلبه ، ولو ملك مثل ما ملك قارون ، وعَنْ بِشْرِ بْنِ الْحَارِثِ، قَالَ: قِيلَ لِسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ: أَيَكُونُ الرَّجُلُ زَاهِدًا وَيَكُونُ لَهُ الْمَالُ؟ قَالَ: نَعَمْ إِنْ كَانَ إِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ وَإِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ.(حلية الأولياء لأبي نعيم)، ولذا كان من دعاء الصالحين: اللهم اجعل الدنيا في أيدينا لا في قلوبنا ، وعن أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) أن ناسًا من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي،

وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ، إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَبِكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةً " قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ يَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الْحَرَامِ، أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ وَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ، كَانَ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ " (مسند أحمد) ، فلما سابقهم الأغنياء في التسبيح والتهليل والتكبير ، وكلموا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ذلك قال لهم (صلى الله عليه وسلم): " ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم".

ما أجمل الدينَ وَالدُنيا إِذا اِجتَمَعا

وَأَقبَحَ الكُفرَ وَالإِفــلاسَ

بِالرَّجُــل

ولا شك أن النظرة الخاطئة للزهد جرَّت إلى السلبية والاتكالية والبطالة والكسل والتواكل والتخلف عن ركب الأمم ، مع أن ديننا هو دين العمل والإنتاج والإتقان والأخذ بالأسباب ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَانا " (سنن الترمذي)، فهي تغدو وتروح ضربًا في الأرض وأخذًا بالأسباب.

وقد جمع القرآن الكريم بين من يضربون في الأرض أخذًا بالأسباب ومن يجاهدون في سبيله سبحانه ، فقال (عز وجل): " عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآَخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ الله وَآَخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا الله قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ الله هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا الله إِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ" (المزمل:٢٠)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله ، أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ" (متفق عليه) ، ولما رأى أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) رجلاً قويًّا جلدًا ، ورأوا من جلده ونشاطه ما أعجبهم ، فقالوا: "يَا رَسُولَ الله ، لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ الله ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ):" إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَفِي سَبِيلِ الله ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيعِفَّهَا فَفِي سَبِيلِ الله ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَهْلِهِ فَفِي سَبِيلِ الله ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى تَفَاخُرًا وَتَكَاثُرًا فَفِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ" (المعجم الصغير للطبراني).

فالإسلام قائم على التوازن بين حاجة الروح وحاجة الجسد ، حيث يقول الحق سبحانه:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا

إِلَى ذِكْرِ الله وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله وَاذْكُرُوا الله كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (الجمعة: ٩-١٠) ، وَكَانَ سيدنا عِرَاكُ بْنُ مَالِكٍ (رضي الله عنه) إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ انْصَرَفَ فَوَقَفَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ: "اللهمَّ إِنِّي أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ ، وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ ، وَانْتَشَرْتُ كَمَا أَمَرْتِنِي ، فَارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ"(تفسير القرطبي).

فالزهد الصحيح ليس قرينًا للفقر ، بل قد يكون قرين الغنى ، ليملك الإنسان ثم يزهد ، فهو زهد الغني ، وليس زهد المعدم ، كما أن الزهد لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب ، فالأخذ بالأسباب شيء والزهد شيء آخر ، يتكاملان ولا يتناقضان ، وعندما قَالَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) : "لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ" ، قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً ، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ" (صحيح مسلم).

* * *

قيمـــة الإيثـــار

الإيثار خلق من الأخلاق الكريمة التي تدل على المروءة ، والشهامة ، والنبل ، والإنسانية ، والرقي ، فديننا الحنيف يحثنا على الإيثار وسخاء النفس ، وينهانا عن كل ألوان الأثرة والأنانية ، وقد أثنى القرآن الكريم على الأنصار ووصفهم بهذا الخلق النبيل ، فقال سبحانه: "وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (الحشر: ٩) ، وأَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَبَعَثَ إِلَى نِسَائه ، فَقُلْنَ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا المَاءُ ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "مَنْ يَضُمُّ هَذَا ، أَوْ يُضِيفُ هَذَا ؟ " فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا ، وَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَانِ ! فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ، وَأَصْبحِي سِرَاجَكِ ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً ، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا ، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا ، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا ، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ السِّرَاجَ ، فَأَطْفَأَتْهُ ، فَجَعَلا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلانِ ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ ، فَلَمَّا أَصْبَحَا غَدَا إِلَى رَسُولِ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَ: ضَحِكَ الله اللَّيْلَةَ ، أَوْ عَجِبَ مِنْ

فِعَــالِكُمَــا ، فَأَنْزَلَ الله تَعَــالَى:" وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ " (الحشر: ٩) .(صحيح البخاري).

وفي الصحيحين عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: " جَاءَتني مِسْكِينَةٌ تَحْمِل ابْنَتَيْن لَهَا ، فَأَطعمتهَا ثَلاثَ تَمَرَاتٍ ، فَأَعطتْ كُلَّ وَاحدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً وَرفعتْ إِلى فِيها تَمْرَةً لتَأْكُلها، فَاسْتَطعَمَتها ابْنَتَاهَا، فَشَقَّت التَّمْرَةَ الَّتي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تأْكُلهَا بيْنهُمَا، فأَعْجبني شَأْنَها، فَذَكرْتُ الَّذي صنعَتْ لرسولِ اللهَّ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم) فَقَالَ: " إنَّ اللهَّ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الجَنَّةَ ، أَو أَعْتقَها بِهَا مَن النَّارِ " (صحيح مسلم) .

وعن حذيفة العدوي أنه قال : " انْطَلَقْتُ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ أَطْلُبُ ابْنَ عَمِّي ، وَمَعِي شَنَّةٌ مِنْ مَاءٍ ، وَإِنَاءٌ ، فَقُلْتُ: إِنْ كَانَ بِهِ رَمَقٌ سَقَيْتُهُ مِنَ الْمَاءِ ، وَمَسَحْتُ بِهِ وَجْهَهُ ، فَإِذَا أَنَا بِهِ يَنْشَغُ - أي: يمص بفيه - ، فَقُلْتُ لَهُ: أَسْقِيكَ ؟ فَأَشَارَ أَنْ نَعَمْ ، فَإِذَا رَجُلٌ ، يَقُولُ: آهِ ، فَأَشَارَ ابْنُ عَمِّي أَنِ انْطَلِقْ بِهِ إِلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِ أَخُو عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، فَأَتَيْتُهُ ، فَقُلْتُ: أَسْقِيكَ ؟ فَسَمِعَ آخَرَ ، يَقُولُ: آهِ ، فَأَشَارَ هِشَامٌ أَنِ انْطَلِقْ بِهِ إِلَيْهِ ، فَجِئْتُهُ فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى هِشَامٍ ، فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ ، ثُمَّ أَتَيْتُ ابْنَ عَمِّي ، فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ " (شعب الإيمان للبيهقي) .

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) : "أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ قَدِمَ الْمَدِينَةَ ، فَآخَى رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: أَيْ أَخِي ، أَنَا أَكْثَرُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَالًا، فَانْظُرْ شَطْرَ مَالِي ، فَخُذْهُ ، وَتَحْتِي امْرَأَتَانِ ، فَانْظُرْ أَيُّهُمَا أَعْجَبُ إِلَيْكَ حَتَّى أُطَلِّقَهَا ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ الله لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ ، دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ ، فَدَلُّوهُ عَلَى السُّوقِ ، فَذَهَبَ فَاشْتَرَى وَبَاعَ وَرَبِحَ" (مسند أحمد) ، وبارك الله له حتى صار من أكثر الناس مالاً وبركة (صحيح البخاري ٢/ ١٠٣).

ولما حضرت الوفاة سيدنا عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ:" يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، اذْهَبْ إِلَى أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَقُلْ: يَقْرَأُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ عَلَيْكِ السَّلاَمَ، ثُمَّ سَلْهَا، أَنْ أُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيَّ، قَالَتْ: كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي فَلَأُوثِرَنَّهُ اليَوْمَ عَلَى نَفْسِي.."(صحيح البخاري).

وأعلى درجات الإيثار هو إيثار ما عند الله تعالى على الدنيا وما فيها ، استجابة لقوله تعالى: " مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ الله بَاقٍ " (النحل: ٩٦)، ومنه ما كان من أبي طلحة الأنصاري (رضي الله عنه) حيث كان الرجل أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخلٍ ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، فلما أنزلت هذه الآية:" لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا

تُحِبُّونَ" (آل عمران: ٩٢) قَامَ أَبُو طَلْحَةَ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ الله تبارك وتعالى يَقُولُ: " لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ " ، وَإِنَّ أَحَبَّ مَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لله أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ الله ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ الله حَيْثُ أَرَاكَ الله ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): " بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ الله: فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ، وبَنِي عَمِّهِ" (صحيح البخاري) .

فما أحوجنا إلى العودة إلى ديننا وقيمنا والتحلي بهذه الأخلاق الكريمة .

* * *

قيمـــة العـــدل

العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ، ونصبه للحق ، فـلا تخالفه في ميزانه ، ولا تنازعه في سلطانه ، وقد قالوا: إن الله (عز وجل) ينصـر الدولة العادلة ولو كانت كافرة ، ولا ينصـر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة ، وأن المُلْكَ قد يـدوم مع العـدل والكفـر ، ولا يـدوم مع الإسـلام والظلـم .

والعدل اسم من أسماء الله الحسنى ، فهو الحكم العدل ، وقد حرم ربنا (عز وجل) الظلم على نفسه فقال في الحديث القدسي: " يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا"(صحيح مسلم).

وأرسل سبحانه وتعالى رسله جميعًا بالحق والعدل ، حيث يقول سبحانه:" لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ " (الحديد:٢٥) ، ويقول سبحانه مخاطبًا نبينا (صلى الله عليه وسلم):" فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ الله مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ الله رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الله يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ "(الشورى: ١٥).

وجعل سبحانه وتعالى العدل من الأمور الراسخة التي أجمعت عليها الشرائع السماوية ، حيث يقول سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) في

الوصايا العشر التي وردت في أواخر سورة الأنعام: إنها من الأمور المحكمات التي أجمعت عليها جميع الشرائع السماوية ، فلم تنسخ في أي ملة من الملل أو شريعة من الشرائع ، وفيها قوله تعالى: " وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى " (الأنعام: ١٥٢) ، فقد أمرنا سبحانه وتعالى بالعدل في الأقوال ، وفي الأفعال ، بالقسط بين الناس جميعًا ، في الرضا والغضب ، في القريب والبعيد ، في الصديق والعدو ، حيث يقول الحق سبحانه: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِّ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُّ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" (النساء: ١٣٥) ، ويقول سبحانه: " وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ " (المائدة: ٨).

ولأهمية العدل كان الإمام العادل في مقدمة السبعة الذين يظلهم الله (عز وجل) في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ الله، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ، فَقَالَ:

إِنِّي أَخَافُ اللهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُه مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"(متفق عليه).

على أن العدل الذي ننشده هو العدل على كل المستويات ، على مستوى الفرد ، وعلى مستوى المجتمع بكل أركانه ومؤسساته ، فالإنسان مطالب بالعدل بين أبنائه وفي أسرته وسائر جوانب حياته ، كما أن على كل مسئول على أي مستوى كان أن يعدل فيما ولاه الله إياه ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ عَشَرَةٍ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ إِلَّا أَتَى اللهَ مَغْلُولًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ فَكَّهُ بِرُّهُ أَوْ أَوْبَقَهُ إِثْمُهُ "(مسند أحمد).

على أن تحقيق العدل الإداري بين المرءوسين وبين المتعاملين يعمق الولاء والانتماء الوطني ، أما ظلم الناس وتقديم الولاء على الكفاءة فيولد الاحتقان المجتمعي ويضعف الولاء الوطني ، ويؤدي إلى الشقاق المجتمعي.

وعاقبة الظلم هي الهلاك والدمار في الدنيا ، والسخط وسوء العاقبة يوم القيامة ، حيث يقول الحق سبحانه في شأن الظالمين:" فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا " (النمل: ٥٢)، ويقول سبحانه:" فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ " (القصص: ٥٨)، ويقول تعالى: "وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ " (يونس: ١٣).

أما في شأن الظالمين يوم القيامة ، فيقول سبحانه: " وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا " (الفرقان: ٢٧، ٢٨) ، ويقول سبحانه: " مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ " (غافر: ١٨) ، ويقول سبحانه: " يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ " (غافر: ٥٢) ، ويقول سبحانه:" إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا " (الكهف: ٢٩) ، وإذا كان الماء المغلي يشوه البطون ، فإن ماء جهنم من نظر إليه على بعد فإنه كما جاء في الآية الكريمة " يَشْوِي الْوُجُوهَ " ، جزاء وفاقا.

* * *

□

الحيـــاء خيـــر كلـــه

الحياء خلق ، الحياء سلوك ، الحياء خير كله ، الحياء شعبة من شعب الإيمان ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم):" الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ" (صحيح مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ" (متفق عليه) ، ويقول (صلّى اللهّ عليه وسلّم): "اسْتَحْيُوا مِنَ الله حَقَّ الْحَيَاءِ " قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله ، إِنَّا لَنَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لله، قَالَ: "لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ الله حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى ، وَتَحْفَظَ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى ، وَتَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ الله حَقَّ الْحَيَاءِ"(سنن الترمذي) ، وعن سعيد بن زيد الأنصاريّ (رضي اللهّ عنه) أَنَّ رَجُلًا قَالَ: " يَا رَسُولَ الله ، أَوْصِنِي ، قَالَ: " أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحْيِيَ مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ كَمَا تَسْتَحْيِي رَجُلًا مِنْ صَالِحِي قَوْمِكَ " (المعجم الكبير للطبراني)، وعن أشجّ عبد القيس أنّه قال: قَالَ لِي رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): " إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ " قُلْتُ: مَا هُمَا؟ قَالَ: "الْحِلْمُ، وَالْحَيَاءُ " قُلْتُ: أَقَدِيمًا كَانَ فِيَّ أَمْ حَدِيثًا؟

قَالَ: " بَلْ قَدِيمًا " قُلْتُ: الْحَمْدُ لله الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا .(مسند أحمد) ، وعن أنس (رضي اللهّ عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): " إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا ، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ " (سنن ابن ماجه) ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي اللهّ عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ" (مسند أحمد)، ويقول (صلّى اللهّ عليه وسلّم): " مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ ، وَلَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ " (مسند أحمد) .

وكان سيدنا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ (رِضْوَانُ الله عَلَيْهِ) يقول: " مَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ "، وكان ابن مسعود (رضي الله عنه) يقول: "مَنْ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ ، لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الله "، وعن إِيَاس بْن مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَذُكِرَ عِنْدَهُ الْحَيَاءُ ، فَقَالَ: الْحَيَاءُ مِنَ الدِّينِ ، وكان الْحَسَنَ البصري يَقُولُ:" الْحَيَاءُ وَالتَّكَرُّمُ خَصْلَتَانِ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ لَمْ يَكُونَا فِي عَبْدٍ إِلَّا رَفَعَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ بِهِمَا "، وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ : "منِ اسْتَحْيَا مِنَ الله مُطِيعًا اسْتَحْيَا الله مِنْهُ وَهُوَ مُذْنِبٌ" (الآداب الشرعية)، وذكر ابن عبد البرّ عن سيدنا سليمان (عليه السّلام) أنه كان يقول: الحياء نظام الإيمان، فإذا انحلّ النّظام ذهب ما فيه ، وعن معبد الجهنيّ أنه قال في قوله تعالى: "وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ "(الأعراف: ٢٦) ، قال:

لباس التّقوى الحياء، وقال الحسن: أربع من كنّ فيه كان كاملا ، ومن تعلّق بواحدة منهنّ كان من صالحي قومه: دين يرشده ، وعقل يسدّده ، وحسب يصونه ، وحياء يقوده ، وقال الأصمعيّ: سمعت أعرابيًّا يقول: من كساه الحياء ثوبه لم ير النّاس عيبه ، وعن عائشة (رضي اللهّ عنها) قالت:" إِنَّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ عَشَرَةٌ: صِدْقُ الْحَدِيثِ ، وَصِدْقُ الْبَأْسِ فِي طَاعَةِ الله ، وَإِعْطَاءُ السَّائِلِ، وَمُكَافَأَةُ الصَّنِيعِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ ، وَالتَّذَمُّمُ لِلْجَارِ ، وَالتَّذَمُّمُ لِلصَّاحِبِ، وَقِرَى الضَّيْفِ ، وَرَأْسُهُنَّ الْحَيَاءُ "(الجامع لابن وهب) .

وكان الشافعي (رحمه الله) يقول:

إذا لم تخـشَ عاقبَــةَ اللّيَالـــي

ولم تَســْتحِ فاصنَـع ما تشَـــاء

فلا واللهّ ما فِـي العَيْــشِ خيْـر

ولا الدّنيا إذا ذهَـــبَ الحيَــــاء

يَعِيشُ المرءُ ما استحْيَــا بِخَيْــر

ويَبقَى العُودُ مـا بَقِــيَ اللِّحَـاء

وعن ابن الأعرابيّ: أنّ بعض العرب كان يقول:

إنّي كأنّي أَرَى مَن لا حَيَــــاءَ لَه

ولا أَمَانَةَ وسْطَ القَومِ عُريَانـــا

ويقول الآخر:

إذا قلَّ ماءُ الوجهِ قـلَّ حيـــاؤه

فلا خيرَ في وجهٍ إذا قلَّ مـــاؤه

حياءَك فاحفظْـه عليــك فإنَّمـا

يدلُّ على فضلِ الكريمِ حيـــاؤه

فما أحوجنا إلى التخلق بهذا الخلق الذي لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه ، حياء من الله تعالى باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وحياء من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) باتباع سنته ، وحياء من الخلق بألا يظهر الإنسان أمامهم صغيرًا في أعينهم ، أو ينتزع ما في أيديهم بسيف الحياء ، وقد قالوا: ما أخذ بسيف الحياء فهو حرام ، وحياء من النفس بحملها على ما يزين ، وكفها عما يشين .

* * *

الصبر الجميل

تحدث القرآن الكريم عن الصبر الجميل ، والصفح الجميل ، والهجر الجميل ، والسراح الجميل، والصبر الجميل هو الذي لا ضجر معه ، يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا يعقوب (عليه السلام): " فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ " (يوسف: ١٨) ، والصفح الجميل هو الذي لا عتاب معه ، حيث يقول الحق سبحانه مخاطبًا نبينا (صلى الله عليه وسلم): "فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ " (الحجر: ٨٥) ، والهجر الجميل هو الذي لا أذى معه ، حيث يقول الحق سبحانه: " وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا " (المزمل: ١٠) ، والسراح الجميل هو الذي لا عضل ولا ظلم للمرأة معه ، حيث يقول الحق سبحانه : "وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا" (الأحزاب: ٤٩) .

وكما تحدث القرآن الكريم عن الصبر تحدث عن المصابرة ، فقال سبحانه: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (آل عمران: ٢٠٠) ، والمصابرة مفاعلة تقع بين طرفين وفيها مقاومة ، والمعنى: واجهوا صبر عدوكم بصبر يغلب صبره ، حيث يقول الحق سبحانه : " إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ الله مَا

لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا " (النساء: ١٠٤) ، ومن معاني المصابرة –أيضًا-: غالبوا صبر الشيطان على محاولات إغوائكم بصبر في طاعة الله يغلب صبره على إغوائكم .

على أن عاقبة الصبر عافية في الدنيا ورحمة ورضا من الله (عز وجل) في الآخرة ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:" إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ " ، ويقول سبحانه: " وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِّ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ " (البقرة: ١٥٥-١٥٧) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا ، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ " (صحيح البخاري) .

ويقول (صلى الله عليه وسلم): "عَجَبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمْرَه كُلَّهُ لهُ خَيرٌ وليسَ ذلكَ لأحَدٍ إلا للمُؤْمنِ إنْ أصَابتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكانتْ خَيرًا لهُ وإنْ أصَابتهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فكانتْ خَيرًا لهُ " (صحيح مسلم).

وعن أبي مالك الأشعري (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم):" الطّهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن- أو تملأ- ما بين السّموات والأرض ، والصّلاة نور ،

والصّدقة برهان ، والصّبر ضياء ، والقرآن حجّة لك أو عليك ، كلّ النّاس يغدو ، فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها " (صحيح مسلم) .

والصبر سبيل التمكين حيث يقول الحق سبحانه: " وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآَيَاتِنَا يُوقِنُونَ " (السجدة: ٢٤) ، وهو طريق المؤمنين الصادقين ، حيث يقول الحق سبحانه: "الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ" (العنكبوت: ٢-٣)، ويقول سبحانه: " أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ " (آل عمران: ١٤٢)، ويقول سبحانه: "أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ الله أَلَا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ " (البقرة: ٢١٤).

ومن أهم ألــوان الصــبر: الصــبر على البـــلاء ، فقد سُئِـلَ رَسُـــولُ الله

(صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً ؟ قَالَ: " الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ ، يُبْتَلَى النَّاسُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِمْ ، فَمَنْ ثَخُنَ دِينُهُ ، اشْتَدَّ بَلاؤُهُ ، وَمَنْ ضَعُفَ دِينُهُ ضَعُفَ بَلاؤُهُ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُصِيبَهُ الْبَلاءُ حَتَّى يَمْشِيَ فِي

النَّاسِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ " (صحيح ابن حبان) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً هُوَ خَيْرٌ مِنَ الصَّبْرِ " (صحيح مسلم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم):" إِذَا أَحَبَّ الله قَوْمًا ابْتَلاهُمْ ، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ " (مسند أحمد) ، وفي رواية: " فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ " (سنن الترمذي).

وعن أبي موسى الأشعريّ (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) قال: " إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ ، قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ لِمَلائِكَتِهِ: "قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي ؟ ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ ، فَيَقُولُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ " (سنن الترمذي) ، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) قال: " يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدّنيا ثمّ احتسبه إلّا الجنّة" (صحيح البخاري) ، وعن أمّ سلمة (رضي الله عنها) أنّها قالت: سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) يقول:" مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ الله " إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ " (البقرة: ١٥٦) ، اللهمَّ أَجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا ، لَّا أَخْلَفَ الله لَهُ خَيْرًا مِنْهَا " (صحيح مسلم) ، ويقول (صلى

الله عليه وسلم): " مَا يَزَالُ البَلاَءُ بالْمُؤمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نفسِهِ ووَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى الله تَعَالَى وَمَا عَلَيهِ خَطِيئَةٌ " (سنن الترمذي) .

على أن من علامة قوة الصبر وتأصله في نفس الإنسان: مدى قدرته على تحمل الصدمات وامتصاصها أول وقوعها ، فقد مَرَّ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) بِامْرَأَةٍ عِنْدَ قَبْرٍ وَهِيَ تَبْكِي فقَالَ لَهَا: (اتَّقِى الله وَاصْبِرِي). فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّى فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي- قَالَ- وَلَمْ تَعْرِفْهُ ، فَقِيلَ لَهَا رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) فَأَخَذَهَا مِثْلُ الْمَوْتِ فَأَتَتْ بَابَ رَسُولِ الله (صلى الله عليه وسلم) فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكَ ، فقَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ الصَّبْرَ عِنْدَ أَوَّلِ الصَّدْمَةِ " (صحيح البخاري).

❋ ❋ ❋

الحق والواجب

لا شك أن مبدأ الحق والواجب ، أو الحق مقابل الواجب ، أحد أهم المبادئ العادلة التي تسهم في إصلاح المجتمع ، فهناك الحقوق والواجبات المتبادلة بين الآباء والأبناء، وبين الأزواج ، وبين الجيران ، وبين الأصدقاء ، وبين الشركاء ، وبين المواطن والدولة ، وبين العمال وأرباب العمل ، وبين المعلم والمتعلم .

وقد أشارت بعض النصوص القرآنية والنبوية إلى هذه التبادلية ، وإلى ضرورة الوفاء بالحقوق والواجبات معا ، حيث يقول الحق سبحانه في العلاقة بين الزوجين:" وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ" (البقرة: ٢٢٨)، ويقول سبحانه في الحديث القدسي: " ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ " (صحيح البخاري) .

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه) قَالَ: " كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلاَّ مُؤَخِّرَة الرَّحْلِ فَقَالَ: يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ . ثُمَّ سَارَ سَاعَةَ ، ثُمَّ قَالَ: (يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ) ،

قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: هَلْ تَدْرِى مَا حَقُّ الله عَلَى الْعِبَادِ ؟ . قَالَ: قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا). ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ ، قَالَ: هَلْ تَدْرِى مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟. قَالَ: قُلْتُ الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: " أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ" (متفق عليه) .

وعن سيدنا علي (رضي الله عنه) أنه قال في خطبة له خطبها بصفين: "أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ جَعَلَ الله سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِوِلاَيَةِ أَمْرِكُمْ ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ اَلْحَقِّ مِثْلُ اَلَّذِي لِي عَلَيْكُمْ ، وَاَلْحَقُّ أَوْسَعُ اَلْأَشْيَاءِ فِي اَلتَّوَاصُفِ وَأَضْيَقُهَا فِي اَلتَّنَاصُفِ ، لاَ يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلاَّ جَرَى عَلَيْهِ ، وَلاَ يَجْرِي عَلَيْهِ إِلاَّ جَرَى لَهُ ، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلاَ يَجْرِيَ عَلَيْهِ لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً لله سُبْحَانَهُ ".

ورأي بعض الناس رجلا مسنًّا يزرع نخلة لا ينتظر أن يجني شيئًا من ثمارها في حياته ، فقيل له: وهل تنتظر أن تدرك جني شيء من ثمارها؟ فقال الرجل: زرع من قبلنا فحصدنا ، ونحن نزرع ليحصد من بعدنا ، " افعل ما شئت كما تدين تدان".

والقاعدة: أن من أخذ الأجر حاسبه الله على العمل ، وأن العقد شريعة المتعاقدين ، وقد أمرنا رب العزة بالوفاء بالعقود ، فقال سبحانه : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ" (المائدة:١)، وحذرنا سبحانه من خيانة

الأمانات في العمـل أو في غيره ، فقـال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ " (الأنفال: ٢٧) ، وحثنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) على إتقان العمل ، فقال:" إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ " (شعب الإيمان للبيهقي) .

ودیننا قائم على الإتقان ، والإحسان ، ومراقبة الله (عز وجل) في السـر والعلن قبل مراقبة الخلق ، لأن الخلق إن غفلوا عن المراقبة أو المتابعة ، فهناك من لا يغفل ولا تأخذه سنة ولا نوم ، حيث يقول سبحانه: " اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ " (البقرة: ٢٥٥) ، ويقول (عز وجل) " مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " (المجادلة: ٧) ، ويقول سبحانه: "وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ " (الأنعام: ٥٩) ، ويقول على لسان لقمان (عليه السلام) مخاطبًا ولده:" يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ " (لقمان: ١٦) .

فما أحوجنا إلى ترسيخ مبدأ الحق مقابل الواجب في كل مجالات حياتنا وعلاقاتنا ، وبخاصة في مجال العمل ، إذ لا يمكن للحياة ولا العلاقات أن تستقيم من جانب واحد ، فيكون أحد الشقين معتدلا والآخر مائلا ، إنما تستقيم الأمور باستواء الجانبين معا ، والوفاء بالحقوق والواجبات معا ، نؤدي الذي علينا حتى يبارك الله (عز وجل) في الذي لنا .

* * *

حـق الـوالديـن

عندما ننظر في كتاب الله (عز وجل) وفي سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نرى كيف تكون العلاقة المثلى بين الأبناء وآبائهم ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: " وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا " (الإسراء: ٢٣-٢٤) ، ويقول النبي (صلى الله عليه وسلم) عندما سأله أحد الناس: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: " الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا"، قال: ثم أي؟ قال (صلى الله عليه وسلم): "بِرُّ الْوَالِدَيْنِ"، قال: ثم أي ؟ قال (صلى الله عليه وسلم): "الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله" (متفق عليه).

انظر إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) كيف قدم برّ الوالدين على الجهاد في سبيل الله ، وعندما جاء أحد الشباب يستأذنه (صلى الله عليه وسلم) في الجهاد ، قال له سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟" قال: نعم ، قال:" فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ" (متفق عليه) ، وجاء أحد الناس إليه (صلى الله عليه وسلم) فقال: يا رسول الله ، إني أصبت ذنبًا عظيمًا ، فهل لي من توبة ؟ قال: "هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ ؟" قال: لا ، قال: "هَلْ

لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟" قال: نعم ، قال: " فبرها " (سنن الترمذي) ، فانظر إلى برّ الخالة ، فضلا عن برّ الأم كيف يكون وسيلة للتوبة والمغفرة وحسن المثوبة والعاقبة ؟.

أما العقوق فنعوذ بالله منه ، حيث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) في شأنه: " أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟" ثلاثًا ، قالوا: بلى يا رسول الله ، قال: "الإِشْرَاكُ بالله ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ" وجلس وكان متكئًا ، فقال:" أَلا وَقَوْلُ الزّورِ" قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت" (صحيح البخاري) .

ويقول الحق سبحانه: "وَاعْبُدُوا الله وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا " (النساء: ٣٦) ، ويقول (عز وجل): " وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا " (العنكبوت: ٨) ، ويقول سبحانه: " وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ" (لقمان: ١٤) ، وكان سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) يقول: ثلاث في القرآن نزلت مقترنة بثلاث ، لا تقبل واحدة منها دون الأخرى: فأما الأولى فقول الله تعالى: "وَأَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ" (المائدة:٩٢) ، فلا تقبل طاعة الله إلا بطاعة رسوله " مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله " (النساء:٨٠) ، وأما الثانية فقوله تعالى:" فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ "(الحج:٧٨) ؛ ولذا قاتل سيدنا أبو بكر (رضي الله عنه) مانعي

الزكاة ، وقال: "والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) لقاتلتهم عليه ، والله لا أفرق بين الصلاة والزكاة " (متفق عليه) ، وأما الثالثة فهي قوله تعالى: " أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ " (لقمان: ١٤)، فلم يشكر الله من لم يشكر لوالديه ، فمن عقّ والديه لم يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ ، وَلاَ مَنَّانٌ " (مسند أحمد) .

وقد يرى بعض الشباب أنه أكثر تدينًا من والده ، فيغلظ له القول أو يسيء معاملته، فنقول لأمثال هؤلاء: انظر يا بني إلى قول الحق (سبحانه وتعالى) في شأن الوالدين: "وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (لقمان: ١٥) ، فالوالدان حتى مع كفرهما أو حتى حال محاولتهما أن يحملاك على معصية الله أو حتى على الكفر ، فلا تطعهما في ذلك ، غير أن ذلك لا يخوّل لك سوء معاملة أيّ منهما ، إنما يجب أن تكون في جميع أحوالك كما أمرك الحق سبحانه "وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ".

على أن ندرك أن ذلك ليس تفضلا منك إنما هو حق وواجب عليك تأثم إن قصرت فيه أو لم تقم به ، وعليك أن تدرك أن عقوق

الوالدين مما يجعل له العقوبة في الدنيا مع ما فيه من غضب الله (عز وجل) في الآخرة .

ويروى أن أحد الناس صنع لوالده إناء خشبيًّا فسأله أصغر أبنائه يا أبي لم صنعت هذا الإناء الخشبي ؟ قال: يا بني لنضع فيه الطعام لجدك الذي كبر حتى لا ينكسر ، فقال الولد: حسنا يا أبتاه ، سنضع لك فيه الطعام عندما تكون مثل جدي ، فافعل ما شئت كما تدين تدان .

* * *

حـــق الجـــوار

الجار له حق حتى في اللغة ، فعلماء النحو والصرف يذكرون أن أنواع الجر أربعة ، هي: الجر بالحرف ، والجر بالإضافة ، والجر بالتبعية ، والجر على الجوار ، ويمثلون له بقولهم: هذا جحر ضب خرب ، بجر كلمة خرب على الجوار ، ذلك أن الخراب للجحر لا للضب ، وله أمثلة أخرى كثيرة حتى أفرد بعضهم بحثًا أو بحوثًا للجر على الجوار ، وعلى الجملة فأنواع الجر الأربعة فيها جوار ما .

والجوار متسع كبير للجار: في المنزل ، والجار في العمل ، والجار في الدول، والصاحب بالجنب وهو الجار في السفر ، يقول الحق سبحانه: "وَاعْبُدُوا الله وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ الله لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا" (النساء:٣٦).

وفي حق الجار وشأنه يقول سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ "(صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " وَالله لا يُؤْمِنُ، وَالله لا يُؤْمِنُ"، قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ:" الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ " (صحيح البخاري)، أي الذي لا يأمن جاره شره .

وعندما جاء بعض الناس إلى سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذكروا له أن فلانة صوّامة قوّامة ، تصوم النهار وتقوم الليل إلا أنها تؤذي جيرانها بلسانها ، قال (صلى الله عليه وسلم): " هِيَ فِي النَّارِ " (مسند أحمد)، وقال (صلى الله عليه وسلم): "خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ" (سنن الترمذي) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): "مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ"(متفق عليه).

ومن بيان حسن أدب الإسلام في التعامل مع الجار وبيان حقه على جاره قول النبي (صلى الله عليه وسلم): " ..وَإِذَا اشْتَرَيْتَ فَاكِهَةً فَأَهْدِ لَهُ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأَدْخِلْهَا سِرًّا وَلَا يَخْرُجْ بِهَا ولدك ليغيظ بها وَلَدَهُ وَلَا تُؤْذِهِ بِقُتَارِ قِدْرِكَ إِلَّا أَنْ تَغْرِفَ لَهُ مِنْهَا أَتَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَبْلُغُ حَقَّ الْجَارِ إِلَّا من رَحِمَه الله.." (شعب الإيمان للبيهقي).

ثم انظر إلى أدب الإسلام وقمة رقيِّه في العبارة التالية " وَلَا يَخْرُجْ بِهَا وَلَدُكَ لِيَغِيظَ بِهِا وَلَدَهُ " أي علّم ولدك الأدب فلا يخرج بها ليغيظ ولد جارك ، لأن الولد قد يخرج فيراه ابن جارك الذي لا يستطيع أن يشتري له والده مثل ما اشتريت لولدك ، فيتقطع قلب الولد وقلب الوالد مع ولده ، فتحدث الشحناء والبغضاء بين الجيران بسبب الغيرة والتحاسد ، وقوله:

".. وَلا تُؤْذِهِ بِقُتَارِ قِدْرِكَ إِلا أَنْ تَغْرِفَ لَهُ مِنْهَا.. " أي لا تؤذه برائحة الطبخ ، وخاصة إن كان شيئًا نفَّاذ الرائحة فأغلق النوافذ جيدًا حتى لا تؤذي الجيران ، إلا إذا كنت عازما على أن تطعمه وأهله منها ، وكان سيدنا أبو الدرداء (رضي الله عنه) يقول لزوجه: إذا طهيتِ طعامًا فأكثري المرق حتى نرسل لجيراننا منه ، وكان سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) إذا ذبح شاة قال: أرسلوا لجارنا اليهودي منها ، حيث إن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد أوصانا بحسن الجوار على إطلاقه ، ومعاملة جميع الجيران بما يستوجبه حق الجوار .

فمن حق الجار عليك أنه إذا مرض عدته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، وإن استعان بك أعنته ، وإذا استغاث بك أغثته ، وأن تكف عنه الشر لا أن تؤذيه أنت بأي لون من ألوان الشر قولا أو فعلاً ، مع ضرورة مراعاة أعلى درجات المروءة معه ، وقد جعل سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) شهادة الجار لجاره أو عليه من أعلى درجات التزكية أو الجرح ؛ لأن الإنسان وإن خدع بعض الناس بعض الوقت فإنه لا يمكن أن يخدع جيرانه كل الوقت .

وعندما جاء أحد الجيران لسيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: يا رسول الله دلَّني على عمل يدخلني الجنة ، قال له النبي (صلى الله

عليه وسلم):" كُنَّ مُحْسِنًا " قال: وكيف أعرف أني محسن ؟ فقال: " سَلْ جِيرَانَكَ، فَإِنْ قَالُوا: إِنَّكَ مُحْسِنٌ فَأَنْتَ مُحْسِنٌ ، وَإِنَّ قَالُوا: إِنَّكَ مُسِيءٌ فَأَنْتَ مُسِيءٌ " (المستدرك للحاكم) ، وكانت العرب قديمًا تعرف حق الجيران ، وفي أمثالهم "جار كجار أبي دؤاد"، كان هذا الرجل من خيرة الجيران لجيرانه ، كان إذا مات أحد جيرانه وداه أي دفع لأهله ما يعادل دية رجل ، وإذا فُقد لجاره شيء أخلفه عليه من ماله .

ويروى أن أحد الصالحين كان له جار أصابته فاقة فباع بيته ، فمر جاره فسمع صوت بكاء أبنائه لفراق بيتهم ، فلما علم جاره الصالح اشترى البيت وأعاده إلى جاره وترك له المال .

هذا هو الجوار في الإسلام ، وهذه هي عناية الإسلام بالجار ، لو أن الناس تعاملوا بهذا المبدأ وتعاملوا بهذه الأخلاق لما كان هناك خلاف ولا شحناء ولا مشاجرات ، أما أن يتعمد الإنسان إيذاء جاره ، أو حتى أن يؤذيه دون قصد ، قولاً أو فعلاً ، فليس هذا من خلق الإسلام في شيء ، مع تأكيدنا أن حق الجوار فيما بين الدول لا يقل شأنًا ، بل يزيد عن حق الجوار بين الأفراد ، لما يترتب على إساءة حق الجوار بين الدول من مفاسد خطيرة ، وعلى حسن الجوار من منافع عظيمة .

* * *

حـال أهـل الجنـة

لقد عرف الصحابة الكرام والتابعون من بعدهم وأهل العلم حقيقة الجنة فعملوا لها ، فعن أنس (رضي الله عنه): أَنَّ أُمَّ الرُّبيعِ بنتَ البَرَاءِ وهي أُمُّ حَارِثة بن سُرَاقَةَ ، أَتَتِ النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فَقَالَتْ: يَا رسولَ الله ، أَلاَ تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ - وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ - فَإِنْ كَانَ فِي الجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي البُكَاءِ ، فَقَالَ: " يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ ، وَإِنَّ ابْنَكِ أصابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى" (صحيح البخاري).

وعندما قال النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم بدر: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يُقَاتِلُهُمُ الْيَوْمَ رَجُلٌ فَيُقْتَلُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ إِلا أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ " قَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ أَخُو بَنِي سَلَمَةَ وَفِي يَدِهِ تُمَيْرَاتٌ يَأْكُلُهُنَّ: بَخٍ بَخٍ ، فَمَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَنْ أَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا أَنْ يَقْتُلَنِي هَؤُلاءِ ، ثُمَّ قَذَفَ التُّمَيْرَاتِ مِنْ يَدِهِ وَأَخَذَ سَيْفَهُ وَقَاتَلَ الْقَوْمَ حَتَّى قُتِلَ (رَضِيَ الله عَنْهُ) " (سيرة ابن هشام)، ذلك كما تمنى ، وتحقيقًا لإرادة الله سبحانه وتعالى .

والجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطـر على قلب بشـر ، فهي كما يقول الحق سبحانه : "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ "

(الرعد: ٣٥)، ويقول سبحانه: " مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آَسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ" (محمد: ١٥) ، ويقول سبحانه: " كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا " (البقرة: ٢٥) .

ومن إكرام الله تعالى لأهل الجنة أنهم يشربون عند الحوض من يد الحبيب (صلى الله عليه وسلم) شربة لا يظمأون بعدها أبدًا ، فعن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) أنه قال: قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنْ اللَّبَنِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنْ الْمِسْكِ وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبدا " (صحيح البخاري).

وأهل الجنة تأتيهم البشريات من ساعة الاحتضار إلى الاستقرار في جنان الخلد ، ففي لحظة الاحتضار تكون لهم البشرى ، حيث يقول الحق سبحانه: "إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ" (فصلت: ٣٠-٣٢) ، وكما ورد في الأثر يقال للعبد المؤمن: لا تخف يا عبد الله ولا تحزن وأبشر بالجنة التي كنت توعد ، هذا مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا في الجنة .

وعند السؤال يكون لهم التثبيت ، حيث يقول الحق سبحانه: " يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ " (إبراهيم: ٢٧) .

فإذا كان يوم المحشر والمنشر كان تلقي الملائكة لهم بالبشرى والطمأنينة ، حيث يقول الحق سبحانه : "إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ" (الأنبياء: ١٠١-١٠٣) .

وحال أهل الجنة أمان وسلام وإكرام ، حيث يقول الحق سبحانه: "وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ " (الرعد: ٢٣ ، ٢٤) ، ويقول الحق سبحانه : " سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ " (الزمر: ٧٣) ، "ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ" (الزخرف:٧٠) ، لا غل فيها ولا حسد ، حيث يقول الحق سبحانه: "وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ" (الحجر: ٤٧) ، ويقول سبحانه: "وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ" (الكهف: ٣١) ، ذلك أن رب العزة يطلع على أهل الجنة فيقول: "يَا أَهْلَ الجَنَّةِ ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ:

أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ، قَالُوا: يَا رَبِّ ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي ، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا " (صحيح البخاري) .

وهي دار المتقين وميراثهم ، يقول سبحانه: "تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا " (مريم: ٦٣) ، وقال سبحانه: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا* خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا " (الكهف: ١٠٧ ، ١٠٨) ، وقال سبحانه : "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (المؤمنون: ١-١١) ، ويقول تعالى:" إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ *كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ " (الطور: ١٧-٢٠).

* * *

محمد (صلى الله عليه وسلم) نبي الرحمة

أرسل الله (عز وجل) نبينا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) رحمة للعالمين ، فقال سبحانه:" وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ "(الأنبياء: ١٠٧)، وعرف نبينا (صلى الله عليه وسلم) نفسه ، فقال:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ" (المستدرك للحاكم)، وأكد القرآن الكريم ذلك ، فقال سبحانه: " لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ " (التوبة: ١٢٨).

فكتابه (صلى الله عليه وسلم) كتاب رحمة ، حيث يقول الحق سبحانه: "وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ" (الإسراء: ٨٢) ، ودينه دين الرحمة والأمن والأمان والسلام للبشرية جمعاء ، دين يرسخُ أسس التعايش السلمي بين البشر جميعًا ، يحقنُ الدماءَ كل الدماء ، ويحفظُ الأموال كل الأموال ، على أسس إنسانيةٍ خالصةٍ دون تفرقة بين الناس على أساس الدين أو اللون أو الجنس أو العرق ، فكل الأنفس حرام ، وكل الأعراض مصانة ، وكل الأموال محفوظة ، وكل الأمانات مؤداةٌ لأهلها ، وبلا أي استثناءات ، وهذا نبينا (صلى الله عليه وسلم) عند هجرته إلى المدينة يترك عليَّ بن أبي طالب بمكة ليردَّ الأماناتِ إلى من آذوه وأخرجوه وجردوا كثيـرًا من أصحابه من أموالهم وممتلكاتهم .

ويومَ الطائفِ عندما سلطوا عليه عبيدهم وصبيانهم يرمونه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه الشريفتين ، وجاءه مَلكُ الجبال يقول: " يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَأَنَا مَلكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي اللهُ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فَإِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ"(وهما جبلان بمكة) فَقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): " بَلْ أقول: اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون ، إني لأَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا " (متفق عليه) ، ولمّا قِيلَ له: ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، قَالَ : "إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً "(صحيح مسلم) .

فالإسلامُ دين رحمة وسلام للعالم كله ، ولا يوجد في الإسلام قتلٌ على المعتقد قط ، فعندما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) امرأة كافرة مقتولة في ساحة القتال ، قال (صلى الله عليه وسلم): " مَنْ قتلها ؟ مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ " (سنن أبي داود) ، بما يؤكد أن القتل ليس مقابلًا للكفر ، إنما يكون القتال لدفع العدوان ، فلا إكراه في الدين ، ولا فظاظة في القول ، يقول الحق سبحانه لنبينا:" وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" (آل عمران: ١٥٩)، وعندما خاطب القرآن الكريم الكفار على لسان نبينا (صلى الله عليه وسلم) ولسان أصحابه قال: " وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ

لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ " (سبأ: ٢٤)، ولم يقل: نحن على هدى وأنتم في ضلال مبين مع تحقق ضلالهم ، بما يعرف لدى علماء البلاغة بأسلوب الإنصاف ، فهذه ثقافتنا التي تنصف الآخر حتى في القول.

لقد أمر الإسلام بالقول الحسن ، فقال سبحانه: "وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا "(البقرة: ٨٣)، للناس كل الناس ، بل قولوا: التي هي أحسن ، " وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " (الإسراء: ٥٣) ، وافعلوا التي أحسن ، "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ "(فصلت:٣٤ ، ٣٥)، هذا هو نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، وهذه هي أخلاق من قال: " إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ " (مسند البزار).

وإذا كان ديننا هو دين الرحمة ، وكتابنا كتاب الرحمة ، ونبينا (صلى الله عليه وسلم) هو نبي الرحمة ، فما بالنا ؟ وما الذي أصابنا ؟ وما الذي وصل ببعض المحسوبين على ديننا إلى هذه القسوة ؟ وما المخرج؟.

لا شك أن عوامل كثيرة كانت وراء ذلك ، منها سيطرة غير المتخصصين على الخطاب الدعوي واختطافهم له لفترات زمنية طويلة ، واعتقاد بعضهم اعتقادًا خاطئًا أن زيادة التشدد زيادة في التدين ، فكل هذه المفاهيم الخاطئة قد صارت في حاجة ملحة إلى تصويبها ، مع التأكيد على أن الإسلام هو دين

الرحمة والسماحة واليسر ، فأهل العلم على أن الفقه هو التيسير بدليل ، ولم يقل أحد ممن يعتد بعلمه في القديم ولا في الحديث إن الفقه هو التشدد ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : "يُرِيدُ الله بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ" (البقرة: ١٨٥)، ويقول (عز وجل): " وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ" (الحج: ٧٨) ، ويقول سبحانه: " وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ الله وَنِعْمَةً واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (الحجرات: ٧ – ٨) ، وعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ الله عَنْهَا) قَالَتْ: "مَا خُيِّرَ النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَأْثَمْ، فَإِذَا كَانَ الإِثْمُ كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ "(متفق عليه).

* * *

□

المسابقة في الخيرات

يقول الحق سبحانه : "سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِالله وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ" (الحديد: ٢١)، ويقول سبحانه : "وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ" (آل عمران: ١٣٣) ، ويقول سبحانه: "وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ الله جَمِيعًا إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"(البقرة: ١٤٨)، ويقول سبحانه: "ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ" (فاطر:٣٢) ، ويقول سبحانه: "إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ" (الأنبياء:٩٠)، ويقول تعالى : " وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ" (المطففين: ٢٦) .

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ، أَوْ الدَّجَّالَ ؛ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوْ السَّاعَةَ ؛ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى

وَأَمَرٌّ؟"(سنن الترمذي) ، وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ : " اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغُلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ"(المستدرك للحاكم) ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، فَقَالَ:" وَمَا ذَاكَ؟ " قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ ، فَقَالَ رَسُولَ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): " أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ» قَالُوا: بَلَى ، يَا رَسُولُ الله ، قَالَ: " تُسَبِّحُونَ ، وَتُكَبِّرُونَ ، وَتَحْمَدُونَ ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً" (صحيح مسلم) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ الله (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلاَّ أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاَسْتَهَمُوا ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لاَسْتَبَقُوا إِلَيْهِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا" (متفق عليه) ، وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ (رضي الله عنه) عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ (رضي الله عنه)

يَقُولُ: أَمَرَنَا رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا ، فَقُلْتُ: اليَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ):" مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟" قُلْتُ: مِثْلَهُ ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ: " يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟" قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ الله وَرَسُولَهُ ، قُلْتُ: لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا. (سنن الترمذي) .

وعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: مَرَّ النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَأَنَا مَعَهُ وَأَبُو بَكْرٍ بِعَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ وَهُوَ يَقْرَأُ ، فَاسْتَمَعَ لِقِرَاءَتِهِ ، وَسَجَدَ عَبْدُ الله وَالنَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) خَلْفَهُ ، فَقَالَ: " سَلْ تُعْطَهُ " ثُمَّ مَضَى النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَ:"مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ مِنَ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ» ، قَالَ: فَأَدْلَجْتُ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ لِأُبَشِّرَهُ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَلَمَّا ضَرَبْتُ الْبَابَ – أَوْ قَالَ لَمَّا سَمِعَ صَوْتِي – قَالَ: مَا جَاءَ بِكَ هَذِهِ السَّاعَةَ؟ قُلْتُ: جِئْتُ لِأُبَشِّرَكَ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: قَدْ سَبَقَكَ أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: إِنْ يَفْعَلْ فَإِنَّهُ سَبَّاقٌ بِالْخَيْرَاتِ، مَا اسْتَبَقْنَا خَيْرًا قَطُّ إِلَّا سَبَقَنَا إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ " (مسند أحمد).

وقد سئل أحدهم عن حال أحد الصالحين السابقين في الخيرات ، فقال: لو قيل له إن القيامة غدًا ما وجد مزيد عمل يعمله.

❊ ❊ ❊

معاملة العامل والأجير

أمرنا ديننا الحنيف بحسن معاملة الناس جميعًا ، وزاد من الوصية بالضعفاء ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "وَهَلْ تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ إلا بِضُعَفَائِكُمْ" (صحيح البخاري) ، فالضعيف قوي بالله ، بنصرته ومعيته ، حيث يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي: " ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ" (صحيح البخاري).

وقد أوصانا نبينا (صلى الله عليه وسلم) بالعمال والأجراء ومن يقومون بأعمال الخدمة أو الخدم ، فقال (صلى الله عليه وسلم):" إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ ، جَعَلَهُمُ اللهّ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مما يأكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِما يَلْبَسُ ، ولا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ فإنْ تكلَّفوهُمْ فأَعِينُوهُمْ" (متفق عليه) .

وعليك أن تتذكر أن الأيام دول ، وأن غني اليوم قد يكون فقير الغد وفقير اليوم قد يكون غني الغد ، حيث يقول الحق سبحانه : "وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ" (آل عمران:١٤٠) ، وأن من نعمة الله تعالى على بعض الناس أن جعلهم مخدومين فإن شكروا النعمة وحافظوا عليها بحسن معاملة من يخدمونهم والإحسان إليهم أدام الله عليهم نعمه وحفظها ، حيث

يقول الحق سبحانه:" وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ " (إبراهيم: ٧) ، فإن جحد الإنسان النعمة وتطاول واستعلى وتجبر على خلق الله فإنه سبحانه قادر أن يبدل الأحوال فيجعل الخادم مخدومًا والمخدوم خادمًا ، وكان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول للسيدة عائشة: " يَا عَائِشَةُ ، أَحْسِنِي جِوَارَ نِعَمِ الله، فَإِنَّهَا قَلَّ مَا تَزُولُ عَنْ أَهْلِ بَيْتٍ فَكَادَتْ أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِمْ" (المعجم الأوسط للطبراني)، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول: "إِنَّ للهِ عِنْدَ أَقْوَامٍ نِعَمًا يُقِرُّهَا عِنْدَهُمْ مَا كَانُوا فِي حَوَائِجِ النَّاسِ ، مَا لَمْ يَمَلُّوهُمْ فَإِذَا مَلُّوهُمْ نَقَلَهَا مِنْ عِنْدِهِمْ إِلَى غَيْرِهِمْ" (المعجم الأوسط للطبراني) .

وما أسرع تبديل الأحوال وتغير الزمن ، حتى إن بعض العلماء والحكماء قد عدوا ذلك من علامات الساعة سرعة مر الزمان وكره وتبدل أحواله وجولاته ، وقد ضرب لنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) أنموذجًا إنسانيًّا رائعًا في معاملة من يخدمه ، فيقول سيدنا أنس بن مالك (رضي الله عنه): خَدَمْتُ رَسُولَ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَشْرَ سِنِينَ ، وَالله مَا قَالَ لِي: أُفًّا قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا؟ " (صحيح مسلم) ، وذكر لنا (صلى الله عليه وسلم) قصة تحتاج إلى وقفة تأمل وتدبر في معانيها وهي قصة أصحاب الغار ، فعن عبدِ الله بنِ عمرَ بن الخطابِ (رضيَ اللهُ عنهما)

قَالَ: سمعتُ رسولَ الله (صلى الله عليه وسلم) ، يقول: "انطلَقَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمُ المَبيتُ إِلى غَارٍ فَدَخلُوهُ، فانْحَدرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ ، فَقالُوا: إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أنْ تَدْعُوا اللهَ بصَالِحِ أعْمَالِكُمْ . قَالَ رجلٌ مِنْهُمْ: اللهمَّ كَانَ لِي أَبَوانِ شَيْخَانِ كبيرانِ ، وكُنْتُ لا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أهْلاً ولاَ مالاً ، فَنَأَى بِي طَلَب الشَّجَرِ يَوْماً فلم أَرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا ، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَينِ ، فَكَرِهْتُ أنْ أُوقِظَهُمَا وَأَنْ أغْبِقَ قَبْلَهُمَا أهْلاً أو مالاً ، فَلَبَثْتُ - والْقَدَحُ عَلَى يَدِي - أنتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُما حَتَّى بَرِقَ الفَجْرُ والصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَميَّ ، فاسْتَيْقَظَا فَشَرِبا غَبُوقَهُما ، اللهمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلِكَ ابتِغَاء وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هذِهِ الصَّخْرَةِ ، فانْفَرَجَتْ شَيْئاً لا يَسْتَطيعُونَ الخُروجَ مِنْهُ . قَالَ الآخر: اللهمَّ إنَّهُ كانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمّ ، كَانَتْ أَحَبَّ النّاسِ إليَّ - وفي رواية: كُنْتُ أُحِبُّها كأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النساءَ - فأَرَدْتُهَا عَلَى نَفْسِهَا فامْتَنَعَتْ منِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بها سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ فَجَاءتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمئةَ دينَارٍ عَلَى أنْ تُخَلِّيَ بَيْني وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفعَلَتْ ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا - وفي رواية: فَلَمَّا قَعَدْتُ بَينَ رِجْلَيْهَا ، قالتْ: اتَّقِ اللهَ وَلاَ تَفُضَّ الخَاتَمَ إلاّ بِحَقِّهِ ، فَانصَرَفْتُ عَنْهَا وَهيَ أَحَبُّ النَّاسِ إليَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أعْطَيتُها . اللهمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلِكَ ابْتِغاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فيهِ ، فانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهَا ، وَقَالَ الثَّالِثُ: اللهمَّ اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ

وأَعْطَيْتُهُمْ أجْرَهُمْ غيرَ رَجُل واحدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهبَ ، فَثمَّرْتُ أجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنهُ الأمْوَالُ ، فَجَاءنِي بَعدَ حِينٍ ، فَقالَ: يَا عبدَ الله ، أَدِّ إلَيَّ أجْرِي، فَقُلْتُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أجْرِكَ: مِنَ الإبلِ وَالبَقَرِ والْغَنَمِ والرَّقيقِ ، فقالَ: يَا عبدَ الله ، لاَ تستهزئ بي ! فَقُلْتُ: لاَ أسْتَهْزِئ بِكَ ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فاسْتَاقَهُ فَلَمْ يتْرُكْ مِنهُ شَيئاً . اللَّهُمَّ إنْ كُنتُ فَعَلْتُ ذلِكَ ابتِغَاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحنُ فِيهِ ، فانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ " (مُتَّفَقٌ عليه).

ولنا في قصة سيدنا موسى (عليه السلام) مع فتاه (يوشع بن نون) معتبرٌ حين خرجا طلبًا للقاء العبد الصالح ، وأمر سيدنا موسى (عليه السلام) فتاه بأن يراقب حركة الحوت ، غير أن الحوت قد انطلق من مكتله ونسي (يوشع بن نون) أن يخبر سيدنا موسى (عليه السلام) بقوله: " قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا " (الكهف: ٦٣) ، ولننظر هنا إلى رد فعل نبي الله موسى (عليه السلام) حين قال الله تعالى على لسانه: " قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا " (الكهف: ٦٤) ، ولم يعنفه ولم يزجره، وإنما خاطبه مخاطبة الأخ والصديق الحميم في لطف ولين.

* * *

الرحمة بالحيوان والجماد

ديننا دين الرحمة في أسمى معانيها ، ونبينا (صلى الله عليه وسلم)نبي الرحمة ، وقد أرسله ربه (عز وجل) رحمة للعالمين فقال سبحانه: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ" (الأنبياء: ١٠٧)، وقد قال (صلى الله عليه وسلم): "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ" (سنن الترمذي)، وقال (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ" (صحيح مسلم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): "لا تنزع الرَّحْمَة إِلَّا من شقيٍّ" (سنن الترمذي) .

وهذه الرحمة تشمل الإنسان والحيوان والجماد ، ومن باب الرحمة بالحيوان: ما ذكره نبينا (صلى الله عليه وسلم): " بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ الله لَهُ فَغَفَرَ لَهُ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ " (صحيح البخاري).

ومنها: قصة الجمل الذي رأى النبي (صلَّى الله عليه وسلم) فحَنَّ وذَرَفَت عيناه ، فأتاه النبيُّ (صلَّى الله عليه وسلم) فمسح ذِفْراه فسكتَ ،

فقال (صلَّى الله عليه وسلم): "من ربُّ هذا الجملِ؟ لمن هذا الجملُ؟ "، فجاء فتى من الأنصارِ، فقال: لي يا رسول الله، قال: " أفلا تتقي اللهَ في هذه البهيمةِ التي مَلَّكَكَ اللهُ إياها، فإنه شكا إليَّ أنك تُجِيعُه وتُدْئبه" (سنن أبي داود) .

ومنها: تحذيره (صلى الله عليه وسلم) الشديد لنا من أذى الحيوان ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): "عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا ، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ" (متفق عليه) ، مع ملاحظة أن سبب دخول النار ليس قتلها ولا تعذيبها ، إنما هو مجرد حبسها وإهمال أمرها.

ولما رأى (صلى الله عليه وسلم) حُمَّرَةً (بضم الحاء المهملة وتشديد الميم المفتوحة وقد يخفف طائر صغير كالعصفور) قد نزعوا عنها فراخها ، قال (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ فَجَعَ هذهِ بولدِها ؟ رُدُّوا ولدَها إليها" (سنن أبي داود) ، ورأى قَرْيَةَ نملٍ قد حرقها بعض الناس ، فقال (صلى الله عليه وسلم):"من حَرَّقَ هذه؟ " قلنا: نحن، قال: " إنهُ لا ينبغِي أن يُعذِّبَ بالنار إلا رَبُّ النارِ" (سنن أبي داود) ، وعن سهل بن الحنظلية (رضي الله عنه) قال: مرَّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ببعير قد لحق ظهره ببطنه فقال: " اتَّقُوا الله فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ، ارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا

صَالِحَـةً" (سنن أبي داود) ، والمعجمـة أي التي لا تنطــق ولا تستـطيـع أن تطالب بحقوقها، على حد قول عنترة العبسي في وصف فرسه:

لو كان يدري ما المحـاورة اشتـــكى

وَلَـكانَ لو عَلِم الكَـــلامَ مُكَلِّــمِـي

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْـهُ طَيـْرٌ أَوْ إِنْسَـانٌ أَوْ بَهِيمَـةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَـةٌ" (متفق عليه).

ولم تقف رحمة النبي (صلى الله عليه وسلم) عند حدود الإنسان أو الحيوان ، بل تعدت ذلك إلى الجماد ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) يقول: " إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ" (صحيح مسلم) ، ولما ارتجف أُحُد يومًا قال (صلى الله عليه وسلم): "اسْكُنْ أُحُدُ فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ"(صحيح البخاري)، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول: " أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ " (متفق عليه) ، ولما بنى (صلى الله عليه وسلم) مسجده بالمدينة المنورة كان يتخذ من أحد جذوع النخل منبرًا ، فلما صنعوا له منبرًا وصعد النبي (صلى الله عليه وسلم) عليه حنَّ الجِذْعُ إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فَأَتَاهُ فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهِ ، وفي رواية : "فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ" (صحيح البخاري) .

وقـد نهى نبينـــا (صلى الله عليه وسلم) أصحـــابه ، ونهى كذلك الخلفـــاء الراشدون قادة جيوشهم أن يخربوا عامرًا ، أو يهدموا بنيانًا إلا إذا تمترس به العدو ، وألا يحرقوا زرعًا أو يقطعوا نخلا ، فكل الكون مسبح لله (عز وجل) ، يقول سبحانه وتعالى:" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ واللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ" (النور: ٤١)، ويقول سبحانه : "تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا " (الإسراء: ٤٤) .

* * *

□جزاء المتقين

يقول الحق سبحانه: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ " (آل عمران: ١٠٢) ، ويقول سبحانه:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا الله وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا " (الأحزاب:٧٠ - ٧١)، ويقول سبحانه: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِالله الْغَرُورُ * إِنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ " (لقمان: ٣٣ – ٣٤) .

والتقوى عرفها الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) بأنها: الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل، والتقوى من "الوقاية"، وسُمِّيَ المتقون بالمتقين لأنهم اتقوا ما لا يتقيه غيرهم ، وعن عطية بن عروة السعدي (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " لاَ يَبْلُغُ الْعَبدُ أنْ يَكُونَ منَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأسَ بِهِ ، حَذَرًا مِمَّا بِهِ بَأسٌ " (سنن الترمذي) .

وقد كان الزهاد يتركون بعض الحلال مخافة أن تكون فيه شبهة حرام اتقاءً للشبهات ، فكما قال النبي (صلى الله عليه وسلم): " إنَّ الحَلاَلَ بَيِّنٌ ،

وَإِنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبَهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ ، اسْتَبْرَأَ لِدِينهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ ، ألاَ وَإنَّ لكُلّ مَلِكٍ حِمَىً ، ألاَ وَإنَّ حِمَى الله مَحَارِمُهُ ، ألاَ وَإنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، ألاَ وَهِيَ القَلْبُ " (متفق عليه)، والتقوى والوقاية ترجعان لأصل لغوي واحد ، هو "وقى"، فالتقوى وقاية من المعاصي من الدنيا ، ووقاية من عذاب الله يوم القيامة ، حيث يقول الحق سبحانه: "وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ" (الدخان: ٥٦) ، ويقول (عز وجل): "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ" (التحريم: ٦) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ" (متفق عليه) ، أي اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ولو بشق تمرة .

وقد حفل القرآن الكريم بالعديد من بشارات المتقين في الدنيا والآخرة، يقول الحق سبحانه: " وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا *وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ الله بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا " (الطلاق:٢ - ٣) ، ويقول سبحانه: "وَمَنْ يَتَّقِ الله يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا "(الطلاق: ٥) ، ويقول سبحانه: " أَلَا إِنَّ

أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ " (يونس: ٦٢ – ٦٤) ، ويقول سبحانه: " إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ " (فصلت: ٣٠ – ٣٢).

ويقول سبحانه: " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ " (الذاريات: ١٥– ١٦) ، ويقول تعالى: " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ " (الطور: ١٧) ، ويقول سبحانه: "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ " (القمر: ٥٤ – ٥٥) ، ويقول عز وجل:" وَمَنْ يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ الله وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ " (النور: ٥٢) ، ويقول تعالى: " فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى *وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى" (الليل: ٥ – ٧) .

والتقوى مع الأخذ بالأسباب أهم دعائم النصر الآمن ، حيث يقول سبحانه: " وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ الله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ " (آل عمران: ١٢٠) ، ويقول تعالى:" وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ

رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ" (آل عمران: ١٢٣ – ١٢٥) .

وهى سبيل تحقيق وتحقق العلم الرباني ، حيث يقول سبحانه: "وَاتَّقُوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (البقرة: ٢٨٢) ، ويقول تعالى: "فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا" (الكهف: ٦٥)، وعَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: كَانَ يُقَالُ: مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ فَتَحَ اللهُ لَهُ مَا لَا يَعْلَمُ "(حلية الأولياء).

وهي سبيل إكرام الله للأبناء والأحفاد والذرية ، حيث يقول عز وجل: " وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا الله وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا " (النساء: ٩) .

والمتقون محاطون بمعية الله تعالى وحفظه ، قال سبحانه: "وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (البقرة: ٦٢)، ويقول جل وعلا: "إِنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ " (النحل: ١٢٨) ، وهم أهل محبته حيث يقول الحق سبحانه:" إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ " (التوبة: ٤) ، ويقول (عز وجل) : "فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (الأعراف: ٣٥) .

والجنة مآلهم وميراثهم ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:" تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا " (مريم: ٦٣) ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ، فَقَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ" (سنن الترمذي) .

* * *

معا لمجتمع نظيف متحضر

النظافة سلوك متحضر ، بل هي عنوان الحضارة ، ولا يمكن لشعب يمتلك حضارتين عظيمتين من أعظم الحضارات التي عرفها التاريخ الإنساني أن يهمل هذا السلوك الحضاري ، فنحن أبناء حضارة تضرب في جذور التاريخ وأعماقه لأكثر من سبعة آلاف عام ، وحضارة أخرى هي حضارتنا الإسلامية الراقية ، وقد امتزجتا معًا لتصنعا نسقًا فريدًا مميزًا للشخصية المصرية .

وهذه الحضارة الراقية تدعو إلى الأناقة والجمال ، والبعد عن كل ما يؤذي وينفر ولا يقره الذوق ولا الطبع السليم ، فقد امتدح الحق سبحانه وتعالى أهل مسجد قباء لحرصهم على الطهارة والنظافة ، فقال سبحانه: "فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا واللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ " (التوبة: ١٠٨) ، وأمرنا سبحانه أن نأخذ زينتنا عند كل مسجد ، فقال: " يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ "(الأعراف:٣١)، وأمرنا أن نطهر وننظف أجسادنا وثيابنا ، فقال سبحانه: " أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا" (المائدة:٦)، وقال (سبحانه وتعالى) مخاطبًا نبيه (صلى الله

عليه وسلم): " يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ " (المدثر: ١ ـ ٤) ، وقد بيّن رسولنا محمد (صلى الله عليه وسلم) أن الطهور نصف الإيمان ، أي نصف الدين ، فقال (عليه الصلاة والسلام): "الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ " (صحيح مسلم) ، بل إن الإسلام قد جعل الطهارة والنظافة الكاملة للجسد والثوب والمكان شرطًا لقبول أهم عبادة في حياة المسلم والركن العملي الأول في الإسلام بعد الشهادتين ، وهو الصلاة ، فقال (صلى الله عليه وسلم):"إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْبَلُ صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ، وَلَا صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ" (مسند أحمد) ، بل أبعد من ذلك فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد أكد في حديثه الصحيح أن عدم الطهارة من البول وحسن الاستبراء منه كان سببًا لعذاب رجل في قبره ، وذلك حينما مر (صلى الله عليه وسلم) بِقَبْرَيْنِ ، فَقَالَ : "إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ" (متفق عليه) ، وفي رواية " إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا هَذَا فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنَ الْبَوْلِ ، وَأَمَّا هَذَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ" (سنن أبي داود).

ونهى ديننا الحنيف عن كل ما يلوث الماء ، أو المكان ، أو يعكر على الناس صفو حياتهم ، أو يسبب لهم الأذى والاشمئزاز ، فنهى عن التبول في الماء ، أو في الظل ، أو في طريق الناس ، أو في الأماكن العامة ، فقال (صلى الله عليه

وسلم):" اتَّقُوا اللاعِنَيْنِ ، قَالُوا: وَمَا اللاعِنَانِ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ الناس وَفِي ظِلِّهِمْ " (مسند أحمد).

كما نهى الإسلام أن يبول الإنسان في مستحمه أي المكان الذي يقوم بالاستحمام فيه ، سواء أكان نهرًا أم بحرًا أم حمام سباحة ، أو أن يتبول في اتجاه الريح ، ووضع لذلك آدابًا عظيمة فصلتها كتب الفقه في أبواب الطهارة .

ومن يعدد الاغتسالات الواجبة كالغسل عند البراءة من الحيض ، أو الاستحاضة ، أو النفاس ، أو بعد الجماع ، أو عند نزول المني ، أو الاغتسالات المسنونة كغسل الجمعة عند من قال بأنه سنة – وهو قول الجمهور ، وإن كان بعض الفقهاء قد ذهب إلى القول بوجوبه – وغسل العيدين ، وغسل من غسل الميت ، والغسل لدخول مكة ، وغير ذلك من الاغتسالات المسنونة المتعددة يدرك مدى عناية الإسلام بالنظافة ، بل أبعد من هذا فقد حث الإسلام على الجمال والتحلي به ، فعندما قال نبينا (صلى الله عليه وسلم): " لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ" ، فقال رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم):"إِنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ" (صحيح مسلم) ، وسن الإسلام السواك لطهارة الفم ، ودعا إلى غسل

باطن أصابع اليدين والقدمين عند كل وضوء فيما يعرف بتخليل أصابع اليدين والرجلين ، وجعل إسباغ الوضوء أي إكماله وإتمامه على المكاره وفي شدة البرد ماحيًا للسيئات مضاعفًا للحسنات، فقال (صلى الله عليه وسلم): " أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو الله بِهِ الْخَطَايَا ، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله ، قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ" (صحيح مسلم) ، وقد جعل الإسلام العمل على نظافة الطرقات ورفع الأذى عنها وعدم طرحه فيها شعبة من شعب الإيمان ، فقال (صلى الله عليه وسلم):" الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ " (صحيح مسلم) ، وهذا الحديث يعطي إماطة الأذى عن الطريق مكانة عظيمة بإدخال ذلك في شعب الإيمان والنص عليه صراحة ، ويؤكد ذلك أن رجلا سأل النبي (صلى الله عليه وسلم) عن عمل يدخله الجنة ، فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم): " أَمِطْ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ" (مسند أحمد) ، وفي حديث آخر: "وَتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ " (متفق عليه).

وفي كل ذلك ما يؤكد أن حضارتنا تدعو إلى كل مظاهر النظافة والطهارة والجمال ، وتنهى عن كل ألوان النجاسة والقبح والأذى ، مما

يتطلب منا أن نلتفت وبقوة إلى أهمية النظافة في حياتنا حتى لا نؤذي أنفسنا أو نؤذي غيرنا ، فإن لم نقم بالإسهام في نظافة نيلنا وبيئتنا ومجتمعنا ومحيطنا، فعلى أقل تقدير لا نكون سببًا في أذى الناس وأذى أنفسنا ، سواء بإلقاء القمامة أو المخلفات في الطرق أو الأماكن العامة ، أم بصرف مخلفاتنا من الصرف الصحي أو الصناعي على نيلنا العذب ، أو أن نلوثه بإلقاء القمامة أو المخلفات فيه ، أو أن نشوه جماله بإلقاء المخلفات على ضفافه وشواطئه .

فعلى كل واحد منا أن يعمل على نظافة جسده ، وثوبه ، ومكانه ومدرسته، ومكان عمله ، وأن يسهم في نظافة مجتمعه ، بأن يميط الأذى عن الطريق ، ويسهم قدر استطاعته وأقصى طاقته في أن نكون مجتمعا راقيا نظيفا متحضرًا .

على أن الأمم المتحضرة يمكن أن تحول القمامة ثروة بتنظيم جمعها وإعادة تدويرها ، فهل نحن جادون في ذلك ؟ وهل نحن قادرون عليه ؟ بكل تأكيد نعم ، على أن نتحول من التنظير إلى التطبيق ، وعلى أن يبدأ كل واحد منا بنفسه ، وليكن شعارنا: " معا لمجتمع نظيف متحضر".

* * *

تعظيم ثواب الصدقة

لا شك أن المتصدق إنما يرجو عظيم الثواب الذي أعده الله للمتصدقين والمتصدقات ، حيث يقول سبحانه: " إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ الله لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا " (الأحزاب: ٣٥) ، ويقول سبحانه: " مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ واللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (البقرة:٢٦١، ٢٦٢)، ويقول سبحانه: " خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " (التوبة: ١٠٣) ، وحيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ، وَلاَ يَصْعَدُ إِلَى الله إِلَّا الطَّيِّبُ ، فَإِنَّ الله يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ" (متفق

عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "حَصِّنُـوا أَمْـوَالَكُـمْ بِالزَّكَاةِ، وَدَاوُوا مَرْضَـاكُـمْ بِالصَّدَقَةِ ، وَأَعِدُّوا لِلْبَلَاءِ الدُّعَاءَ " (المعجم الكبير للطبراني).

وعلى المتصدق أن يتحرى وقوع الصدقة موقعها الذي يجب أن تكون فيه، حيث يقول الحق سبحانه : " إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ الله وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ الله واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (التوبة: ٦٠) ، وعليه إن أراد أفضل الثواب وأعلاه أن يجتهد في ترتيب الأولويات ، وأن يدرك أن الأعم نفعًا والأوسع أثرًا مقدم على غيره من الأقل نفعًا أو أثرًا ، وأن ما يحفظ النفس مقدم على ما يدخل في إطار التحسينيات أو الكماليات ، فإطعام الجائع ، وكساء العاري ، ومداواة المريض ، وإيواء المشرد ، مقدم على ما لا يعد أساسا في إقامة حياة الإنسان وحفظها وحفظ كرامته في العيش والحياة .

وإذا أردت عظيم الصدقة فضعها حيث تكون حاجة المجتمع ، فإن رأيت الحاجة أمس إلى المتطلبات الصحية ؛ فضعها في علاج المرضى وبناء المستشفيات وتجهيزها ، وإن رأيت الأولوية للتعليم فضعها في بناء المدارس وتأثيثها وصيانتها والإنفاق على طلاب العلم الفقراء ورعايتهم ، وعلى الباحثين وبعثاتهم ، وعلى المراكز والمؤسسات العلمية وتطويرها ، وإن

رأيت الأولوية لتحسين البنى التحتية من إقامة محطات مياه الشرب ، أو مشاريع الصرف الصحي ، أو تعبيد الطرق وتمهيدها ؛ فاجعل صدقتك في هذا الاتجاه ، وإن رأيت الأولوية للعمل والإنتاج فادعم المشروعات الصغيرة وتوفير فرص العمل للشباب ، وإن رأيت الأولوية لعمارة المساجد وصيانتها فاعمد إلى المناطق الأكثر احتياجًا إليها ، حيث يكون الناس في حاجة ملحة إلى مسجد ، سواء في منطقة جديدة كقرى الشباب والظهير الصحراوي والمناطق الجديدة ، أو اعمد إلى مسجد من المساجد القائمة التي تحتاج إلى إحلال وتجديد كلي أو جزئي أو صيانة فقم بإحلاله وتجديده أو صيانته أو فرشه ، على أن ترجع في كل شأن تعمل فيه إلى الجهة المختصة التي تستطيع أن تحدد لك الأولويات وأن تدلك على الأعم نفعًا ، لأن الثواب العظيم مرتبط بالقبول وعظيم النفع ، فكلما سدت الصدقة حاجة من حوائج أصحاب الحاجات كانت أكثر نفعا وأعظم ثوابًا ، وكلما كانت الحاجة أشد كان الثواب أعظم ، ومن ثمة على الإنسان أن يتحرى أين يضع صدقته ، حتى يحظى بأعظم الثواب وأعلاه ، كما أن عليه أن يتحرى ألا يقع فريسة للمحتالين والنصابين ممن يحترفون التسول ، لأن إعطاء من لا يستحق من الصدقات يضيعها على من يستحق من جهة ، ويشجع على مزيد من احتراف التسول والبطالة والكسل من جهة أخرى ، ونبينا (صلى

الله عليه وسلم) يقول:" إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ ،أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ" (مسند أحمد) ، مع حرصك الشديد على التبرع للجهات والمصادر الموثوقة ، وأن يكون تبرعك مقابل إيصال رسمي معتمد من جهة رسمية أو في حساب رسمي مفتوح في أحد البنوك .

وأخيرًا تأكد أن ما تنفقه اليوم ستجده غدًا ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: " وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ " (البقرة: ٢٧٢) ، ويقول سبحانه:" وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ " (سبأ: ٣٩)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم):" مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ" (سنن الترمذي)، ويقول (صلى الله عليه وسلم):" ما مِن يومٍ يُصْبحُ العِبادُ فيهِ إلا مَلَكانِ يَنزلانِ ، فيقولُ أحَدُهُما: اللهمَّ أعط مُنفِقًا خَلَفًا ، ويقولُ الآخَرُ: اللهمَّ أعطِ مُمْسِكًا تَلَفًا " (متفق عليه).

* * *

□

إياكم وهجر القرآن

القرآن الكريم كلام الله ، المنزل على عبده محمد (صلى الله عليه وسلم) المتعبد بتلاوته ، المتحدي بأقصر سورة منه ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، لا يشبع منه العلماء ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد، لم تلبث الجن إذ سمعته أن قالوا:" قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا "(الجن:٢،١) ، وقالوا:" قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ الله وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ" (الأحقاف:٣١،٣٠).

وما أن سمع أحد الأعراب قوله تعالى: " وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " (هود:٤٤) ، حتى انطلق قائلاً: هذا كلام رب العالمين لا يشبه كلام المخلوقين ، وإلا فمن ذا الذي يأمر الأرض أن تبلع ماءها فتبلع؟! ، ويأمر السماء أن تمسك ماءها فتقلع؟! ، ويأمر الماء أن يغيض فيطيع ويسمع ؟!، إنّه رب العالمين ولا أحد سواه .

وهـو أحسن الكلام وأجمـله ، وأصـدق الحـديث وأبلغـه ، وأحسن القصـص وأعـذبه ، يقول الحق سبحانه: " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآَنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ " (يوسف:٣) ، ويقول سبحانه: " الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ الله ذَلِكَ هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ " (الزمر:٢٣).

وهو عِزُّ هذه الأمة وشرفها ، يقول الحق سبحانه:" لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ " (الأنبياء:١٠) ، ويقول سبحانه وتعالى: "وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ "(الزخرف:٤٤)، وهذه الأمانة وتلك المسئولية تحتم علينا خدمة كتاب الله (عزّ وجلّ) ، والعناية به وبأهله ، حفظًا ، وتجويدًا ، وتلاوة ، وترتيلًا ، وفهمًا ، وتطبيقًا ، سواء في جانب المداومة على التلاوة والتحذير من هجره أو نسيانه ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: "وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآَنَ مَهْجُورًا" (الفرقان:٣٠) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا" (متفق عليه)، أم في جانب المداومة على الحفظ والتذكر والحث عليه ، يقول نبينا

محمد (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ " (سنن الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا " (سنن أبي داود) .

على أن الهجر لا يقف عند حدود هجر التلاوة أو نسيان الحفظ ، إنما الهجر الأكبر هو أن نحفظ القرآن ولا نعمل به ، أو أن يكون حفظنا في جانب وسلوكنا في جانب آخر.

ولنا في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أسوة حسنة ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) قرآنًا يمشي على الأرض ، كما وصفته السيدة عائشة (رضي الله عنها) ، أي: أن سلوكه كان ترجمة عملية وتطبيقية لآي القرآن الكريم وأحكامه ، وتصف (رضي الله عنها) خلقه، فتقول: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ" (مسند أحمد) ، وهذا سيدنا سالم مولى أبي حذيفة (رضي الله عنه) أحد القراء الأربعة الذين قال النبي (صلى الله عليه وسلم) في حقهم: " خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ" (متفق عليه) ، كان (رضي الله عنه) يقول : "يا أهل القرآن زينوا القرآن بأعمالكم"(البداية والنهاية).

وقد بين نبينا (صلى الله عليه وسلم) أن القرآن الكريم قد يكون حجة لنا أو علينا ، فقال (صلى الله عليه وسلم): " الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ لله

تَمْلأُ الْمِيزَانَ. وَسُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله تَمْلآنِ ـ أَوْ تَمْلأُ ـ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَالصَّلاَةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا" (صحيح مسلم) ، وفي الأثر: "رُبَّ تال للقرآن والقرآن يلعنه "(تفسير النيسابوري)، ذلك فيمن يحفظ القرآن ولا يعمل به ، بل يعمل بخلاف أحكامه وتعاليمه ، وقد ضرب لنا القرآن الكريم مثلاً واضحًا فيمن يحملون كلام الله ثم لا يعملون به ، فقال سبحانه:" مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا "(الجمعة:٥) ، فلنحذر من الهجر سواء أكان هجر قراءة وتلاوة ، أم هجر تدبر وتأمل ، أم هجر عمل وامتثال .

على أن الأهم هو الفهم الصحيح لكتاب الله عز وجل ، وإخلاص النية فيه لله عز وجل ، لا المتاجرة به ، ولا العمل على تحريف كلمه ، واتخاذه مطية للحصول على مكاسب دنيوية ، كهؤلاء المجرمين الذين يقتلون ويدمرون ، ويفسدون ويخرّبون ، من منطلق تأويل خاطئ أو تحريف واضح لبعض نصوص القرآن ، والقرآن والإسلام والإنسانية منهم براء .

* * *

□

نعمة الأمن والاستقرار

يُعد الأمن نعمة من أهم النعم التي امتن الله تعالى بها على عباده ، بل ويأتي في مقدمتها ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً فِي سربِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا" (سنن الترمذي) .

فالأمن من أجلِّ النعم التي امتن الله (عز وجل) بها على عباده ، حيث يقول سبحانه وتعالى ممتنا على قريش: " لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ* إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ " (قريش:١-٤) ، ويقول سبحانه وتعالى ممتنا على مكة وأهلها: " أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آَمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " (القصص:٥٧) ، ويقول (عز وجل): "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آَمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ الله يَكْفُرُونَ " (العنكبوت:٦٧) ، ويقول تعالى:" وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآَوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " (الأنفال: ٢٦) .

على أن القرآن الكريم يربط بين الأمن والإيمان ، والحفاظ على هذه النعمة وعدم جحودها أو إنكارها أو نكرانها ، أو الخروج على

مقتضيات الحفاظ عليها ، فيقول الحق سبحانه :"الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ" (الأنعام:٨٢) ، ويقول سبحانه: " لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ *ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ " (سبأ:١٥-١٨) ، ويقول سبحانه:" وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ " (النحل:١١٢) .

ولنا في الحاضر من حولنا عبرة ومتعظ بحال تلك الدول التي سقطت في براثن الفوضى ، والتفكك ، والتشرذم ، والتمزق ، ما بين لاجئ متعرض لمخاطر لا تعد ولا تحصى ، وبين مشرد ، ومعتقل ، ومحاصر ، أو شهيد ، أو قتيل ، أو مصاب ، أو مقعد ، أو مشوَّه ، أو عاجز ، حيث رأينا الإرهابيين المجرمين يستغلون حالة الفوضى والتفكك هذه ، ويتجاوزون كل حدود الإنسانية في الفتك والتنكيل بالبشر من الحرق والسحل ، والسبي ، والاغتصاب ، والاستعباد ، وحمل الناس على حفر قبورهم بأيديهم ، مما

يدعونا وبقوة إلى الحفاظ على ما أنعم الله (عز وجل) به علينا من أمن وأمان واستقرار .

على أن الحفاظ على هذه النعمة يحتاج منا إلى أمرين: أحدهما: شكر الله (عز وجل) عليها ، حيث يقول سبحانه : "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ" (إبراهيم:٧)، والشكر ليس في المال فحسب ، وإنما في سائر النعم .

الأمر الآخر: هو وحدة الصف ، وإدراك حجم التحديات التي تواجهنا ، والأخذ بقوة على أيدي دعاة القتل ، والاغتيال ، وسفك الدماء ، والفوضى ، والتخريب ، مع تأكيدنا أن كل من يسلك هذه المسالك الخبيثة ينبغي أن يحاكم بتهمة الخيانة العظمى للوطن ، لأن هؤلاء الخونة والعملاء هم الأخطر على أمن الوطن واستقراره ، وهم لسان حال أعدائه ، ويدهم الطولى في الإفساد والتخريب ، فهم يأكلون طعامنا ، ويلبسون ثيابنا ، ويطعنوننا في ظهورنا ، وهم عيون أعدائنا ، إذ لا يمكن للإرهاب أن يخترق أيّ دولة أو مجتمع إلا في ظل حواضن تستقبله وتأويه ، وتوفر له المناخ الملائم لإثارة الفوضى .

كما يجب مراقبة التمويل الأجنبي ، وعلامات الثراء الفاحش التي تظهر فجأة على بعض المأجورين الذين يبيعون دينهم ووطنهم وأهليهم وآدميتهم

وإنسانيتهم بثمن بخس ، ظانين أنهم يمكن أن يخدعوا المجتمع ويفلتوا بجرائمهم ، يقول تعالى:" يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ "(النساء:١٤٢).

وإذا استطاع أحد أن يخدع بعض الناس بعض الوقت ، فمن المستحيل أن يخدع كل الناس كل الوقت ، ولا ينسى أحد أنه سيقف يوما بين يدي من لا يغفل ولا ينام ، حيث يقول الحق سبحانه:" وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ" (الصافات:٢٤) ، ويقول سبحانه: " وَلَا تَحْسَبَنَّ الله غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ" (إبراهيم:٤٢-٤٣)، ويقول سبحانه:" الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ الله سَرِيعُ الْحِسَابِ " (غافر:١٧).

وقد ربط القرآن الكريم بين الرزق والأمن في مواضع متعـددة ، منها: قوله تعالى في سورة النحل: "وَضَرَبَ الله مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ" (النحل: ١١٢) ، فلما كانت القرية آمنة مطمئنة يتعاضد أبناؤها في الحفاظ على أمنها كان يأتيها رزقها رغدًا وفيرًا هانئًا من كل مكان ، فلما كفرت بأنعم الله (عز وجل) عليها وجحدتها أذاقها الله (عز وجل) لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

فالعلاقة بين الأمن والرزق وتوفير المناخ الملائم للاستثمار علاقة طردية ، فمتى تحقق الأمن والأمان والاستقرار تبعه النمو والاستثمار والعمل والإنتاج واتساع أسباب الرزق ، ومتى كانت الحروب ، أو التطرف والإرهاب ، والتخريب والتدمير ، والفساد والإفساد ، كان الشتات والفقر ومشقة العيش وصعوبة الحياة .

لهذا كله حرم الإسلام كل ما يهدد أمن الناس وحياتهم ، لدرجة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نفى الإيمان – سواء أكان نفيًا لأصل الإيمان ، أم نفيًا لكماله ، على اختلاف المجتهدين في المقصود من معمول النفي– عن كل من يهدد أمنهم وسلامهم ، فقال (صلى الله عليه وسلم): " الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ " (سنن الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ" (مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "وَالله لَا يُؤْمِنُ ، وَالله لَا يُؤْمِنُ ، وَالله لَا يُؤْمِنُ ، قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: جَارٌ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ ، قَالُوا: وَمَا بَوَائِقُهُ؟ قَالَ: شَرُّهُ" (المستدرك على الصحيحين) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "تَكُفُّ أَذَاكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهُ صَدَقَةٌ تَصَدَّقْ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ" (مسند أحمد).

وقد نهى الإسلام عن كل ألوان الفساد والإفساد ، فقال سبحانه وتعالى: " وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا " (الأعراف: ٥٦) ، وقال تعالى :

"وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ" (هود: ٨٥) ، ويقول سبحانه: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ الله عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ واللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ الله أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ" (البقرة: ٢٠٤-٢٠٦) ، ويقول (عز وجل): " فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ الله فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ* أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" (محمد: ٢٢-٢٤).

* * *

□

التفـــاؤل والأمل

ما أجمل الأمل ، وما أصعب اليأس ، وما أشقه ، وما أخطره ، اليأس مدمر للنفوس ، محبط للآمال ، مولد للكآبة ، مثبط للهمم ؛ لذا نهى الإسلام عن اليأس والتأييس ، والإحباط والتحبيط ، وعدّه بعض أهل العلم من الكبائر .

يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا يعقوب (عليه السلام): " يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ الله إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ الله إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ " (يوسف: ٨٧) ، ويقول سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم (عليه السلام): " أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ "(الحجر: ٥٤-٥٦) ، وعن ابن عبّاس (رضي اللهّ عنهما) أنّه قال: إنّ رجلا قال: يا رسول اللهّ ، ما الكبائر ؟ قال: "الشِّرْكُ بِالله ، وَالْإِيَاسُ مِنْ رَوْحِ الله ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ الله" (تفسير ابن أبي حاتم).

ونقول لمن كان مريضًا حتى لو كان مرضه عضالًا أو مزمنًا: لا تيأس من الشفاء ، وَتَذكَّر ما مَنَّ الله به على سيدنا أيوب (عليه السلام) ، وتمسك بما

دعا به ربه ، واجعله في ذلك لك قدوة ، حيث يقول الحق سبحانه: "وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ " (الأنبياء:٨٣،٨٤).

وإن كنت عقيمًا لا تنسى ما منَّ الله (عز وجل) به على سيدنا زكريًا (عليه السلام) مع ما كان عليه من تقدم في السن وعقم بالزوج لا يرجى معه ولد ، وذلك حين نادى زكريا (عليه السلام) ربه: " قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا" (مريم:٤-٦) ، وحيث يقول الحق سبحانه:" وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ "(الأنبياء: ٨٩،٩٠).

والطبيعي أن المرأة العقيم التي لا تنجب تعالج أولاً من العقم ثم يكون الإنجاب ، لكن النص القرآني لم يَسر على هذه الوتيرة أو هذا النسق ، وإنما قال سبحانه:" وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ " (الأنبياء: ٩٠)، فقدم البشرى بالولد على إصلاح الزوج ، وكأنه سبحانه يعلمنا أنه قادر على أن

يعطي الولد بأسباب وبلا أسباب ، أصلح الزوج أو لم يصلحها ، " إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " (يس:٨٢) ، وهو ما حكاه القرآن الكريم في قصة إبراهيم (عليه السلام) حين بشرته الملائكة بالولد مع تقدم سنه ، حيث يقول الحق سبحانه:" وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله رَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ "(هود: ٧١-٧٣) .

وإن كان الإنسان في ضيق أو فاقة ، فليعلم أن خزائن الله ملأى لا تنفد أبدا ، وأن الأيام دول بين عسر ويسر ، فغني اليوم قد يكون فقير الغد ، وفقير اليوم قد يكون غني الغد ، قال الشاعر:

ألمْ ترَ أنَّ الفقـرَ يُرجى له الغِنَـى

وأنَّ الغنى يُخشى عَليهِ مِنَ الفقـر

ويقول الحق سبحانه: " وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ " (الطلاق: ٢،٣) ، ويقول سبحانه: " وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا " (الطلاق: ٤) ، ويقول سبحانه:" مَا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ "(فاطر:٢) .

وإن قيل لكم: إن الناس قد جمعوا لكم وتألبوا عليكم فاخشوهم ، فلكم في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه أسوة حسنة ، حيث يقول الحق سبحانه: "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ الله وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ الله واللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ " (آل عمران: ١٧٣-١٧٤) .

وسئل أحد الصالحين: أي آية في القرآن الكريم أرجى؟، فقال: قوله سبحانه وتعالى:" قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " (الزمر: ٥٣).

فيجب أن نتحلى بالأمل في غد أفضل ، ومستقبل مشرق ، وفتح من الله قريب ، لا نيأس ولا نجزع ، ولا نتشاءم ، لأن عدونا يريد أن يصل بنا إلى اليأس والإحباط ، وأنه لا جدوى ولا أمل لنخضع ونستسلم ، غير أن ديننا وثقافتنا لا يعرفان لليأس طريقًا ، فنحن ذوو أمل كبير ، يقول الشاعر:

قال: السَّماءُ كئيبةٌ ! وتجهَّما
قلت: ابتَسِمْ يكْفِي التَّجهُّمُ في السَّما
قال: الليَالي جرَّعتني عَلقَما
قلت: ابتَسِمْ ولئن جُرِّعْتَ العَلْقَما

فلَعـــــلَّ غَيـــــْرَكَ إن رآك مُـــــرنّما
طَـــرَحَ الكآبَــــةَ جانبـًــــا وتَـــرنَّمَا

غير أن الأمل يحتاج إلى عمل ، لأن الأمل بلا عمل كجسد بلا ساق ، لا يقوم له قوام ، مما يجعلنا ندعو وبشدة إلى الأمل المبني على العمل والأخذ بالأسباب ، وإلا كان أملاً أجوفًا لا طائل منه ، فقد كان سيدنا عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّهُ يقول: " لَا يَقْعُدْ أَحَدُكُمْ عَنْ طَلَبِ الرِّزْقِ وَيَقُولُ: اللهُمَّ ارْزُقْنِي فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ السَّمَاءَ لَا تُمْطِرُ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً "(تاريخ الإسلام للذهبي)

ويقول الحق سبحانه وتعالى : "هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ" (الملك: ١٥) ، وقد جمع الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بين الباحثين عن الرزق الحلال والمجاهدين في سبيل الله ، فقال سبحانه: " عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآَخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآَخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (المزمل: ٢٠) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ

الطَّيْرَ، تَغْدُوا خِمَاصا وَتَرُوْحُ بِطَانا " (سنن الترمذي) ، قال أهل العلم: إن الطير هنا تأخذ بالأسباب فهي تغدو وتروح، ولا تمكث كسالى في أعشاشها وأوكارها وتقول: اللهم ارزقني ، فما أحوجنا إلى الأمل والعمل معًا ، الأمل الذي يستجلب الهمة والنشاط ، والعمل الذي نعمر به الكون ، ونبني به الحضارة، ونصلح أمر ديننا ودنيانا.

* * *

حق الطريق والمرافق العامة

يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم):"الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ"(صحيح مسلم) ، ولما سأله أحد الناس: يا رسول الله ، دلَّني على عمل يدخل الجنة ، فقال له (صلى الله عليه وسلم): " أَمِطِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ" (مسند أحمد) ، وقال (صلى الله عليه وسلم):"أَمِطِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ " (مسند أحمد) ، ونهى (صلى الله عليه وسلم) عن التبول أو التغوط في الطريق لما في ذلك من أذى الناس ، وقال (صلى الله عليه وسلم) يومًا لأصحابه (رضوان الله عليهم):" إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا ، قَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم): " فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ ، قَالُوا وَمَا حَقُّهُ ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الأَذَى وَرَدُّ السَّلاَمِ وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ" (متفق عليه).

فثمة آداب عامة يجب أن نتحلى بها في الطرقات والحدائق والأماكن العامة ، منها: الحفاظ على المكان ، وتركه أنظف مما كان ، والتعامل معه تعامل الإنسان مع ماله الخاص ، وعدم الإسراف في أي خدمة تقدم في إطار المرفق العام من مياه أو كهرباء أو خلافه .

ومن الآداب العامـة : غض البصـــر ، وكف الأذى ، سـواء أكان كفًّـا للأذى عن طريق نفسه ، أم كفًّا لأذى الإنسان نفسه عن الناس ، فالمسلم الحقيقي من سلم الناس من لسانه ويده ، ومنهـا رد السلام ، حيث يقول الحق سبحانه:" وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا " (النساء:٨٦) ، لا أن يكون حالنا كحال من يتعامل ـ حتى مع السلام ـ بنفعية وقياس لمنازل الناس ، على حد قول الشاعر:

يُحَيَّـا بالسَّلامِ غَنيّ قَـومٍ ويُبخَلُ بالسَّلامِ عَلى الفَقِير
أَليْسَ الموتُ بَينهُما سَواءٌ إذا مَاتُوا وصَارُوا في القُبور

وقد قالوا: أبخل الناس من يبخل بالسلام ، لأنه يبخل باليسير الذي لا يكلفه شيئًا .

ومن أهم آداب الطريق : الالتزام بقواعد وتعليمات السير فيه ، وعدم الاعتداء عليه ، أو تضييقه ، أو التعدي عليه بالبناء ، أو أي لون من ألوان الاستغلال غير القانوني ، أو إعاقة السير فيه ، كعمل بعض المطبات غير المطابقة للمواصفات ، بعيدًا عن الجهات المسئولة عن الطريق .

وإذا كان النبي (صلى الله عليه وسلم) قد جعل إماطة الأذى عن الطريق صدقة ، وجعله شعبة من شعب الإيمان ، وسبيلاً لدخول الجنة ، فإن الاعتداء على حق الطريق أو المرافق العامة وفق مفهوم المخالفة عند

الأصوليين يوقع صاحبه في الإثم ويعرضه لسخط الله (عزّ وجلّ) ، كونه معتديًّا على الحق العام أو النفع العام ، ويتخذ لنفسه منه خصماء عند الله (عز وجل) في الدنيا والآخرة ، حيث يعرض نفسه لسخط الله وسخط الناس.

وكل ما هو حق للطريق هو حق للأماكن والحدائق والمتنزهات والمصايف والمنتديات العامة ، وكل ما يجمع الناس ، إذ ينبغي على كل إنسان أن يحرص على نظافة وسلامة المكان الذي يكون فيه ، وأن يحرص على عدم أذى الناس ، بل يحرص كل الحرص على مساعدتهم ، وإكرامهم ، وأن يكون صورة إيجابية مشرفة لدينه ووطنه ، فالإسلام ليس كلامًا ، إنما هو فعل وسلوك يعبر عن مدى تمسك صاحبه بالمبادئ والقيم السامية والأخلاقية الكريمة ، من عفة اليد واللسان والبصر ، وطيب الحديث وسخاء النفس ، يضاف إلى ذلك الحرص على سلامة المرافق العامة باعتبارها مالا عامًا يجب الحفاظ عليه .

ويلحق بالمرافق العامة ، المرافق الخاصة المشتركة ، كمن يشتركون في مسقى أرض ، أو طريق زراعي ، أو مداخل العمارات والأبنية ، أو الحدائق المحيطة بها ، أو سلم العمارة أو سطحها أو مصاعدها ، فكل ذلك يقتضي التعاون في صيانتها وحسن استخدامها والحفاظ عليها ، وألا يحاول أحد أن يكون عالة على الآخرين فيها ، أو أن يجور على حقهم في استخدامها ، فخير

الناس خيرهم لأهله ، وخيرهم لجيرانه ، ويكفى أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) قد قال: " وَالله لاَ يُؤْمِنُ ، وَالله لاَ يُؤْمِنُ ، وَالله لاَ يُؤْمِنُ " قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ: " الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ "، قِيلَ: وَمَا بَوَائِقُهُ؟ قَالَ: شَرُّهُ " (متفق عليه) ، وسأل أحد الناس النبي (صلى الله عليه وسلم) قائلاً:" يَا رَسُولَ الله مَتَى أَكُونُ مُحْسِنًا ؟، قَالَ:" إِذَا قَالَ جِيرَانُكَ: أَنْتَ مُحْسِنٌ ، فَأَنْتَ مُحْسِنٌ ، وَإِذَا قَالُوا: إِنَّكَ مُسِيء ، فَأَنْتَ مُسِيء" (صحيح ابن حبّان) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): " مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثهُ " (متفق عليه) .

* * *

سلامة الصدر

سلامة الصدر أحد أهم أسباب رضا الإنسان عن نفسه ورضا الله (عز وجل) عنه ، ذلك أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) قال لأصحابه يومًا: "يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ " ، فدخل رجل فتبعه سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) ليقف على ما أوصله إلى هذه المكانة الرفيعة ، فنزل عليه ضيفًا ليرقب أعماله ومدى اجتهاده في عبادته ، فما وجد مزيد صلاة أو صيام أو صدقة ، فحدث ابن عمر (رضي الله عنهما) مضيفه عن سر نزوله عنده وأخبره بما كان في شأنه من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسر نزوله عليه ، فقال يا ابن عمر: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا ، وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ " (مسند أحمد) .

وقد تتعقد الأمور بين بعض الأشخاص أو بعض القبائل بما يكون بينها أو بينهم من ثأر وخصومات ، حتى يظن أكثر المتفائلين أنه الطريق الذي لا رجوع عنه ، وينسون أو يتناسون أن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إذا أراد أن يقلِّب أو يحوِّل قلبَ عبدٍ حوَّله ، وهو ما كان منه سبحانه حين ألّف بين قلوب الأوس والخزرج على ما كان بينهم من ثـارات

متعددة ، وتـاريخ طويل من الإحن والعـداوة والبغضـاء ، فقـال سبحـانـه مخاطبًا نبينا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) وممتنًا عليه بتأليف القلوب على يديه: " وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (الأنفال:٦٣) ، ويقول سبحانه حاثًا على الوحدة ممتنا على عباده بتحقيقها لهم : " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ " (آل عمران:١٠٣) .

وسلامة الصدر لا يمكن أن تبنى على التوجس والتربص والتحسس وسوء الظن ، حيث يقول الحق سبحانه: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ "(الحجرات:١٢) ، كما لا يمكن أن تُبنَى على عدم التسامح ، إنما تبنى على الصفح الجميل ، وحتى الهجر الجميل ، ولين الجانب ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، فالصفح الجميل: هو الذي لا مَنَّ معه ، حيث يقول الحق سبحانه: "فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ" (الحجر:٨٥)، والهجـر الجميـل هو الذي لا أذى معـه ، حيث يقول سبحانه وتعـالى: "وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا " (المزمل:١٠) .

وكذلك تبنى سلامة الصدر على لين الجانب ، حيث يقول الحق سبحانه مخاطبًا حبيبنا (صلى الله عليه وسلم): " فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ

فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ " (آل عمران:١٥٩).

كما تقوم سلامة الصدر على العفو والصفح ومقابلة السيئة بالحسنة ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: " وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" (فصلت: ٣٤،٣٥) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم):" اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ" (سنن الترمذي).

كما أن على الإنسان أن يدرك أن ثمة فرقًا واسعًا بين قلب يحمل العداوة والبغضاء ، وقلب يحمل الحب والتسامح مع الناس جميعًا ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم):"لاَ يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ: فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ" (صحيح البخاري) .

مع التأكيد على أن سلامة الصدر ترتبط غاية الارتباط بالرضا بما قسم الله ، وإدراك الإنسان أن الأمر كله بيد الله (عز وجل) وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

"إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " (يس:٨٢)، وحيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بشيء لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيء قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بشيء لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بشيء قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ" (سنن الترمذي) .

على أن هناك أمورًا قد تعين على تحقيق سلامة الصدر ، فعدل الأب بين أبنائه يورثهم سلامة الصدر بعضهم تجاه بعض ، وعدل المعلم تجاه طلابه يورثهم سلامة الصدر بعضهم تجاه بعض ، وعدل المسئول بين مرءوسيه وصاحب العمل تجاه عماله يورثهم سلامة الصدر ، والإحسان يورث سلامة الصدر ، وقد قالوا: أحسن إلى من شئت تكن أميره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره.

ومن الأمور التي تعين على سلامة الصدر : الكلمة الحلوة الرقيقة والقول الحسن "وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا" (البقرة:٨٣)، وإفشاء السلام "أفشوا السلام بينكم تحابوا" (الجامع لابن وهب) ، وإطعام الطعام ، وإكرام الصغير ، وقد قالوا: أكرم صغير القوم يكرمك كبيرهم وينشأ على محبتك صغيرهم ، ومما يورث سلامة الصدر: التواضع والبعد عن الكبر والاستعلاء على الناس ، ومن أهم ما يورث سلامة الصدر ويؤلف بين

القلوب احترام إنسانية الإنسان وآدميته ، وعدم إحراجه أو تنقيصه ، بل العمل على رفع الحرج وإزالته عنه ، والتماس الأعذار له ، وقد قالوا: التمس لأخيك عذرًا إلى سبعين عذرٍ ، فإن لم تجد له عذرًا فقل: لعله كذا ، لعله كذا ، فخير الناس أعذرهم للناس ، وأسلمهم صدرًا وأرضاهم نفسًا.

❊ ❊ ❊

البر والوفاء

البر والوفاء من صفات الرسل والأنبياء ، وقد امتدح الله (عز وجل) أبا الأنبياء سيدنا إبراهيم (عليه السلام) فقال سبحانه:" وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى " (النجم: ٣٧) ، وامتدح سيدنا إسماعيل عليه السلام فقال سبحانه: " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا " (مريم: ٥٤)، وقال في شأن سيدنا يحيى (عليه السلام): " يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا " (مريم: ١٢-١٥) ، وقال سبحانه على لسان سيدنا عيسى عليه السلام: " قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا " (مريم: ٣٠-٣٣) ، وكان سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أوفى الناس بالناس ، وأبر الناس بالناس ، أوفى الناس وأبرهم لأهله ، ولأصحابه ، ولأمته ، وللناس أجمعين .

وقد أمرنا سبحانه بالوفاء بالعهود والعقود والأمانات ، فقال سبحانه: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ" (المائدة: ١)، وقال سبحانه: "وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ " (البقرة: ٤٠) ، وقال سبحانه: "إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ الله نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ الله كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا" (النساء: ٥٨) ، ونهانا سبحانه عن خلف الوعود ، ونكث العهود ، وخيانة الأمانات ، فقال سبحانه: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَخُونُوا الله وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ " (الأنفال: ٢٧) ، وقال سبحانه: "وَأَوْفُوا بِعَهْدِ الله إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ الله عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ الله بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ " (النحل: ٩١، ٩٢).

ويبين لنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) أن خلف الوعد ونكث العهد وخيانة الأمانة من أخص صفات المنافقين ، فقال:" آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ" (متفق عليه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا ، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ،

وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ" (متفق عليه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ" (مسند أحمد) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): " الْخَازِنُ الأَمِينُ الَّذِي يُؤَدِّي مَا أُمِرَ بِهِ طَيِّبَةً نَفْسُهُ أَحَدُ الْمُتَصَدِّقَيْنِ" (صحيح البخاري) .

ولما أُذن له (صلى الله عليه وسلم) بالهجرة من مكة إلى المدينة ترك ابن عمه الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ليرد الأمانات إلى أصحابها ، وكان (صلى الله عليه وسلم) أوفى الناس وأكرمهم لأصحابه وأزواجه والناس أجمعين ، فقد كانت عجوز تأتيه (صلى الله عليه وسلم) في بيت عائشة (رضي الله عنها) فكان (صلى الله عليه وسلم) يهش لها ويكرمها ويقول: "إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ" (المستدرك للحاكم) .

وقد ضرب لنا القرآن مثلا فيه متعظ كبير ، حيث يقص علينا الحق سبحانه قصة من عاهد الله لئن أتاه من فضله ليصدقن وليكونن من الصالحين ، فلما أنعم الله عليه ومَنّ عليه بالفضل والعطاء الوفير انقلب على وجهه ، فخسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ، يقول الحق سبحانه مصورًا ذلك في سورة التوبة التي فضحت وكشفت النفاق والمنافقين : " وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ الله لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ *

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا الله مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ"(التوبة: ٧٥،٧٧).

وقد علمنا ديننا الحنيف أن نكون أوفياء لكل من يسدي لنا جميلاً أو معروفًا ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ" (سنن أبي داود) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "لا يَشْكُرُ الله مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ" (سنن أبي داود).

وقد ضرب لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) أعظم المثل في ذلك في وفائه لزوجه خديجة (رضي الله عنها) ، حيث كان يقول عنها: " آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ ، وَرَزَقَنِي الله عَزَّ وَجَلَّ منها الولد" (مسند أحمد) ، وعن عائشة (رضي الله عنها) أن امرأة جاءت إلى بيت النبي (صلى الله عليه وسلم) فسألها عليه الصلاة والسلام: "من أنت؟" قالت: جَثَّامَةُ الْمُزَنِيَّةُ ، قَالَ: " بَلْ أَنْتِ حَسَّانَةُ الْمُزَنِيَّةُ ، كَيْفَ أَنْتُمْ ؟ كَيْفَ حَالكُمْ ؟ كَيْفَ كُنْتُمْ بَعْدَنَا؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله ، قَالَتْ: فَلَمَّا خَرَجَتْ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ، تُقْبِلُ عَلَى هَذِهِ الْعَجُوزِ هَذَا الإِقْبَالَ ؟ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ ، إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَانَ خَدِيجَةَ ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ " (المستدرك للحاكم) ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول: " إِنَّ الله بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ ؛ وَقَالَ أَبُو

بَكْرٍ: صَدَقْتَ ؛ وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ" فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي" مَرَّتَيْنِ. فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا " (صحيح البخاري) .

وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) وفيًّا لكل من أحسن إليه ، ومن ذلك: وفاؤه لرجل مشرك أحسن إليه وهو المطعم بن عدي الذي أجاره وأدخله جواره عند عودته من الطائف إلى مكة ، فلما كلمه بعض الناس في أسرى بدر قال (صلى الله عليه وسلم): " لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِيهِم ، لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ " (صحيح البخاري) .

وأيضًا وفاؤه حتى لمن أساءوا إليه من بني وطنه من أهل مكة ، فعندما دخلها فاتحًا منتصرًا قال يا أهل مكة:" مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ؟" قَالُوا: خَيْرًا ، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ ، قَالَ:" اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ " (السنن الكبرى للبيهقي).

وقد سار أصحابه على هذا الوفاء ، ومن ذلك ما كان من سيدنا عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) الذي خرج في سفر ومعه مالك بن دينار ، فلقيه أعرابي ، فهش له ابن عمر وأكرمه وأحسن لقاءه ، وخلع عمامته وأهداه إياها ، ثم أعطاه دابته التي كان يركبها ، فقال له ابن دينار لقد أحسنت وزدت ، وإن هؤلاء الأعراب يرضون باليسير ، فقال ابن عمر (رضي الله عنهما): إن أبا هذا كان ودًا لعمر ، وإني سمعت رسول الله (صلى

الله عليه وسلم) يقول:" إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ ، أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبيه" (صحيح مسلم) .

ومن أهم ألوان البر والوفاء : البر بالوطن والوفاء له ، على أن الوفاء للوطن يقتضي الإسهام الجاد في كل ما يدعم أمنه واستقراره وتقدمه وازدهاره .

* * *

إفشاء السلام منهج حياة

إفشاء السلام ليس مجرد شعار إنما هو قيمة إنسانية راقية ، حرص ديننا الحنيف على ترسيخها ، فعن سيدنا عبد الله بن سلام (رضي الله عنه) قال: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ (سنن ابن ماجه).

ألا ترى هنا إلى حديث من وصفه ربه (عز وجل) بأنه لا ينطق عن الهوى، وهو يجعل سبيل الدخول إلى جنته في أربعة أمور ، ثلاثة منها تتصل بالرقي في المعاملة مع الخلق ، وهي: إطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، وصلة الأرحام ، وواحدة فيما بين العبد وربه وهي الصلاة بالليل والناس نيام ، مع تقديم الثلاثة على هذه الواحدة ، وما ذاك إلا لحرص الإسلام على العلاقات الإنسانية السوية ، بل أبعد من هذا يحثنا ديننا على إلقاء السلام على من عرفنا ومن لم نعرف ، ويجعل شعار السلام وإلقاءه على الناس علامة الإيمان البارزة الساطعة ، قال تعالى: " وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ

مُؤْمِنًا " (النساء: ٩٤) ، وحث على مبادلة التحية بأحسن منها أو ردها على أقل تقدير حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: " وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ الله كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا " (النساء: ٨٦).

وقد جعل الإسلام للسلام أسسا تندرج جميعها تحت مظلة الرقي الإنساني، بأن يسلّم الصغير على الكبير، والراكب على الماشي (المترجل)، والماشي على الجالس، والواحد على الجماعة، وقالوا: من حق الأخ على أخيه أنه إذا لقيه أن يسلم عليه، وأن يفسح له في المجالس، بل حذر الإسلام تحذيرًا كبيرًا من الإعراض والتجاهل عن إلقاء السلام أو رده، فقال نبينا (صلى الله عليه وسلم): "لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ" (صحيح البخاري) .

وقد سمى رب العزة نفسه في أسمائه الحسنى السلام ، فقال : " هُوَ الله الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ الله عَمَّا يُشْرِكُونَ " (الحشر:٢٣)، والجنة هي دار السلام ، قال تعالى: " لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (الأنعام: ١٢٧) ، وتحية المؤمنين فيها السلام ، يقول سبحانه: "وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (يونس: ١٠) ، وتحية

المؤمنين عند لقاء ربهم السلام ، يقول سبحانه:" تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا"(الأحزاب: ٤٤) ، ويقول تعالى: "وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ " (الرعد: ٢٣، ٢٤).

إذن فإفشاء السلام قيمة ، ومنهج حياة ، وسبيل نجاة ، على أن يكون سلامًا حقيقيًا لا شكليًّا ، وأن يستحضر من يلقي السلام قيم السلام ، وأن يكون الإنسان سلامًا حتى مع الحيوان والجماد ومع الكون كله ، فلا يقطع شجرًا ، ولا يحرق زرعًا ، ولا يخرب عامرًا ، ولا يهدم بنيانًا ، ولا يؤذي طائرًا أو بهيمة أو إنسانًا ، بل يكون سلمًا وسلامًا مع نفسه ومع الكون كله ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ " (البقرة: ٢٠٨) .

* * *

□

الجمال والبهجة والذوق السليم

الإسلام دين الحضارة والرقي ، دين الكمال والجمال ، دين البهجة والسعادة ، وكل نصوصه وتوجيهاته وطرقه ومسالكه تؤدي إلى ذلك ، بل إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد أكدا هذه المعاني ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: " وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ*وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ " (النحل:٥- ٦)، ويقول سبحانه وتعالى: " الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى "(طه:٥٣) ، " وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ "(ق:٧) ، ويقول سبحانه وتعالى: " وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ " (النمل:٦٠) ، ويقول سبحانه: " أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ" (الغاشية: ١٧-٢٠) ، ويقول سبحانه: " مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ " (الملك: ٣) ، ويقول تعالى في شأن السماوات العلا: "وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ " (الحجر: ١٦) ، ويقول أيضًا : "وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ" (فصلت:١٢).

بل لقد أمرنا القرآن الكريم بأن نتجمل أحسن التجمل ، وأن نأخذ زينتنا عند كل مسجد ، فقال سبحانه: " يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (الأعراف:٣١ ،٣٢)، وعندما قال نبينا (صلى الله عليه وسلم): " لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً ، قَالَ: إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ" (صحيح مسلم) ، ولما أخبره سيدنا الْمُغِيرَةُ بْن شُعْبَةَ (رضي الله عنه) أَنَّهُ خَطَبَ امْرَأَةً ، فَقَالَ له النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "انْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا " (سنن الترمذي) .

وكان (صلى الله عليه وسلم) يحب الطيب ، وقد دعا إلى طلاقة الوجه والمحيا ، فقال (صلى الله عليه وسلم): " لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ" (صحيح مسلم) ، وجعل إدخال السرور على الناس من أعظم القربات إلى الله (عز وجل) ، فَقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكَشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تطْرُدُ

عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ شَهْرًا -..."(المعجم الكبير للطبراني)، وقال (صلى الله عليه وسلم): " ، ودعا (صلى الله عليه وسلم) أصحابه إلى لبس أحسن الثياب عند حضور الجُمع والأعياد والمناسبات العامة .

على أن الجمال الحقيقي لا يقف عند حدود الشكل ، إنما يتجاوزه إلى جمال الجوهر ، وجمال المعدن ، وجمال الأخلاق ، وجمال الطباع ، يقول مصطفى صادق الرافعي (رحمه الله): إن خير النساء من كانت على جمال وجهها في أخلاق كجمال وجهها وكان عقلها جمالا ثالثا ، فهذه المرأة إن أصابت الرجل الكفء ، يسرت عليه ، ثم يسرت ، ثم يسرت ، ويقول الشاعر:

إِذا المَرءُ لَم يُدَنَّس مِنَ اللُؤمِ عِرضُه

فَكُلُّ رِداءٍ يَرتَديهِ جَميل

تُعَيِّرُنا أَنّا قَليلٌ عَديدُنا

فَقُلتُ لَها إِنَّ الكِرامَ قَليل

وَما ضَرَّنا أَنّا قَليلٌ وَجارُنا

عَزيزٌ وَجارُ الأَكثَرينَ ذَليل

فيجب علينا جميعًا أن نتجمل بجمال الإسلام في سمتنا ، وفي مظهرنا ، وفي بيئتنا ، وفي مدارسنا ، وفي معاهدنا ، وفي حدائقنا ، وفي

متنزهاتنا ، وفي أماكننا العامة ، وألا نشوه معالم الجمال والبهجة بما ينفر الطبع السليم والذوق الراقي .

على أن من أهم معالم الذوق والجمال والرقي تخير الكلمة الراقية الحلوة الصافية ، فقد مرَّ سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على قوم يوقدون نارًا ، فكَرِه أن يقول لهم: السلام عليكم يا أهل النار ، إنما قال: السلام عليكم يا أهل الضوء ، كما دعانا الإسلام إلى تخير الأسماء الحسنة ذات الدلالة الراقية ، وأن نبعد الأسماء المنفرة ، وعن كل ما ينْفُر منه الطبع والذوق والحس الإنساني السليم ، وقد أمرنا القرآن الكريم أن نفعل ما هو أجمل ، وأن نقول ما هو حسن بل ما هو أحسن ، فقال سبحانه: " وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا " (البقرة: ٨٣) ، وقال سبحانه: " وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " (الإسراء: ٥٣) ، فليكن شعارنا " الذوق والرقي والجمال " ، فالذوق السليم الراقي هو القادر على الإحساس بهذا الجمال ، وعلى إشاعته على من حوله وفي مجتمعه .

* * *

□

حديث القرآن عن نبينا (صلى الله عليه وسلم)

تحدث القرآن الكريم عن النبي (صلى الله عليه وسلم) حديثًا كاشفًا عن مكانته وأخلاقه وكثير من جوانب حياته ، فهو نبي الرحمة ، حيث يقول الحق سبحانه:" وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ "(الأنبياء: ١٠٧) ، ويقول سبحانه: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ"(آل عمران:١٥٩)، ويقول (عز وجل): "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ " (التوبة: ١٢٨) ، ويقول سبحانه: " وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ " (الحجرات: ٧).

وحين قرأ (صلى الله عليه وسلم) قول الله (عز وجل) في إبراهيم: "رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (إبراهيم: ٣٦) ، وقول الله (عز وجل) على لسان عيسى (عليه السلام): " إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ" (المائدة: ١١٨) رَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللهمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي ، وَبَكَى ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ ! اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ - فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِمَا قَالَ ، وَهُوَ أَعْلَمُ ، فَقَالَ الله: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ " (صحيح مسلم) .

وقد أكرمه ربه (عز وجل) حتى في مخاطبته وندائه ، فحيث نادى رب العزة (سبحانه وتعالى) سائر الأنبياء بأسمائهم : "يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ " (البقرة: ٣٥) ، "يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ" (هود: ٤٨) ، "يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا" (الصافات:١٠٤- ١٠٥) ، "يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى" (طه:١١- ١٢) ، " يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى " (مريم: ٧) ، "يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ" (مريم: ١٢) ، "إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ " (المائدة: ١١٠) ، خاطب نبينا (صلى الله عليه وسلم) خطابًا مقرونًا بشرف الرسالة أو النبوة ، أو صفة إكرام وتفضل وملاطفة ، فقال تعالى: " يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ" (المائدة: ٦٧) ، وقال : "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا "(الأحزاب: ٤٥) .

وعندما شرَّفَهُ الحق (سبحانه وتعالى) بذكر اسمه في القرآن الكريم ذكره مقرونًا بعز الرسالة ، فقال سبحانه وتعالى:" مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ " (الفتح: ٢٩) ، وقال سبحانه: " وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ " (آل عمران: ١٤٤) ، وأخذ العهد على الأنبياء والرسل ليؤمنن به ولينصرنه ، فقال سبحانه: " وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ " (آل عمران: ٨١) .

وقرن الحق سبحانه وتعالى طاعته (صلى الله عليه وسلم) بطاعته ، فقال سبحانه: " مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله"، وقال سبحانه: "وَمَنْ يُطِعِ الله وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا" (النساء: ٦٩) ، وجعل حبه (صلى الله عليه وسلم) وسيلة لحب الله (عز وجل) ، فقال سبحانه: "قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (آل عمران: ٣١) ، وجعل بيعته (صلى الله عليه وسلم) بيعة لله (عز وجل)، فقال سبحانه : "إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ" (الفتح:١٠)، وكان سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) يقول: ثَلَاثُ

آيَاتٍ نَزَلَتْ مَقْرُونَةً بِثَلَاثِ آيَاتٍ ، لَا تُقْبَل وَاحِدَةٌ مِنْهَا بِغَيْرِ قَرِينَتِهَا ، أَوَّلُهَا: "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ" (البقرة:٤٣) ، وَثانِيها: قَوْله تَعَالَى : "أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ " (لقمان:١٤) ، وَثالِثُها: قَوْله تَعَالَى: "أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ" (النساء: ٥٩) ، فَمَنْ أَطَاعَ الله وَلَمْ يُطِعْ الرَّسُولَ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ.

وقد حذر الحق سبحانه وتعالى من مخالفة أمره (صلى الله عليه وسلم) فقال (عز وجل):" فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " (النور: ٦٣) ، مؤكدًا أن الإيمان به (صلى الله عليه وسلم) لا يكتمل إلا بالنزول على حكمه عن رضى وطيب نفس ، حيث قال سبحانه: " فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا " (النساء: ٦٥) ، ونهى عن رفع الصوت عنده ، فقال سبحانه: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ الله أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ الله قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ" (الحجرات: ٢ ، ٣) ، وقد سمع الإمام مالك (رحمه الله) رجلا يرفع صوته في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: يا هذا إن الله (عز وجل)

قد ذم أقوامًا فقال: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ" (الحجرات: ٢)، وامتدح أقوامًا فقال: "إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ الله أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ الله قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ " (الحجرات: ٣) ، وإن حرمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ميتا كحرمته حيا ، فتأدب في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

ومن إكرام الله (عز وجل) له (صلى الله عليه وسلم) أن جعل رسالته للناس عامة ، حيث كان كل رسول يرسل إلى قومه خاصة ، أما نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد أرسله ربه (عز وجل) إلى الناس عامة ، فقال: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا " (سبأ: ٢٨) ، وختم برسالته الرسالات ، وختم به (صلى الله عليه وسلم) الأنبياء والرسل ، فقال سبحانه وتعالى: " مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ الله وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ" (الأحزاب:٤٠).

صلى عليه ربه (عز وجل) بذاته، وأمر ملائكته والمؤمنين بالصلاة عليه ، فقال: " إِنَّ الله وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا " (الأحزاب: ٥٦) ، وجعل صلاته على المؤمنين رحمة

وسكينة لهم ، فقال :" وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (التوبة: ١٠٣).

فعلينا بالإكثار من الصلاة والسلام على الحبيب (صلى الله عليه وسلم)؛ لأن من صلى على النبي (صلى الله عليه وسلم) صلاة صلى الله بها عليه عشرًا ، كما أن صلاتنا معروضة عليه (صلى الله عليه وسلم) ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول: " إِذا سمِعْتُمُ النِّداءَ فَقُولُوا مِثْلَ ما يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عليَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عليَّ صَلاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عشـرًا ، ثُمَّ سلُوا اللهَ لي الْوسِيلَةَ ، فَإِنَّهَا مَنزِلَةٌ في الجنَّةِ لا تَنْبَغِي إِلاَّ لعَبْدٍ منْ عِباد اللهَّ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُو ، فَمنْ سَأَل لِيَ الْوسِيلَة حَلَّتْ لَهُ الشَّفاعَةُ " (صحيح مسلم) .

* * *

□

الخـوف من الله

الخوف من الله (عزّ وجلّ) طريق السالكين والعارفين والواصلين ، وهؤلاء هم أولياؤه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، حيث يقول سبحانه:" أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ " (يونس:٦٢ ـ ٦٤).

فالأولياء أخص صفاتهم التقوى التي هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

والمؤمنون خاشعون ، وجلون ، أرقاء القلوب ، ليسوا غلاظًا ولا قساة ، حيث يقول الحق سبحانه:" إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آَيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ" (الأنفال:٢ ـ ٤).

ويقول سبحانه:" الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ الله ذَلِكَ هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ " (الزمر:٢٣) ، ويقول

سبحانه: " لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ الله وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" (الحشر:٢١)، ويقول سبحانه: " أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ" (الحديد:١٦) .

الخوف من الله طريق الصلاح والتقوى ، وهو الحصن الواقي من الزلل فمن خاف الله (عزّ وجلّ) لا يمكن أن يقدُمَ على سفك الدم ، أو قتل النفس التي حرم الله ، ولا يزني ، ولا يسرق ، ولا يغش ، ولا يكذب ، ولا يخون ، حيث يتحدث القرآن الكريم عن صفات عباد الرحمن فيذكر منها: "وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ الله إِلَهًا آَخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى الله مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا" (الفرقان:٦٨ ـ ٧٢).

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم):"اسْتَحْيُوا مِنَ الله (عَزَّ وَجَلَّ) حَقَّ الْحَيَاءِ "، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله ، إِنَّا نَسْتَحِي ، وَالْحَمْدُ لله ، قَالَ:

"لَيْسَ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ مَنِ اسْتَحْيَى مِنَ الله حَقَّ الْحَيَاءِ ، فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا حَوَى، وَلْيَحْفَظِ الْبَطْنَ وَمَا وَعَى ، وَلْيَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ الله (عَزَّ وَجَلَّ) حَقَّ الْحَيَاءِ " (مسند أحمد) .

ومن ثم فإنه يجب على الإنسان أن يراقب الله تعالى حق المراقبة في السـر والعلن ، في الرضا والغضب ، في الصحة والمرض ، في السعة والضيق ، فهو سبحانه وتعالى يعلم السـر وأخفى ، حيث يقول (عزّ وجلّ): " وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى " (طه: ٧) ، ويقول سبحانه: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ *إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ" (ق: ١٦ـ١٨) ، ويقول سبحانه: " مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " (المجادلة:٧)، ويقول سبحانه على لسان سيدنا لقمان في وصيته لابنه : " يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا الله إِنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ " (لقمان: ١٦).

وهـذا كتاب الله (عز وجل) يحذرنـا من الغفلة ، أو الميـل إلى أهلهـا ، فيقول سبحانه مخاطبًا نبينا (صلى الله عليه وسلم): "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا " (الكهف:٢٨) ويقول سبحانه: " وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى *قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى" (طه:١٢٤–١٢٧) ، فالسعيد من وعظ بغيره ، والشقي من وعظ بنفسه ، أي أنه لا يعتبر ولا يتعظ حتى يبغته الأجل ، فيندم حين لا ينفع الندم ، فيقول:" رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ الله نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ " (المنافقون: ١٠ ، ١١) ، وعندما نزل قول الله تعالى: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ " (آل عمران: ١٩٠، ١٩١) ، قال نبينا (صلى الله عليه وسلم): "وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا"

(صحيح ابن حبان) ، فالغفلة مذمومة على كل حال سواء في أمر ديننا أم في أمور دنيانا .

فيجب على كل واحد منا أن يقف مع نفسه للحظات ، ليسأل نفسه ماذا قدم للقاء ربه ؟ وما ذا قدم لوطنه؟ وما آخر الطريق الذي يريد الوصول إليه؟ وماذا عن راحة ضميره في كل ما قدم ويقدم؟ لقد سأل رجل النبي (صلى الله عليه وسلم) متى الساعة ؟ فقال له (صلى الله عليه وسلم): " مَا أَعْدَدْتَ لَهَا" فقال الرجل: حب الله ورسوله ، فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم):" أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ " (متفق عليه) ، وهل سيقول الإنسان ـ وعن قناعة تامة ـ لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لسلكت ـ وعن راحة ضمير ـ الطريق نفسه ، أو أنه يتمنى أن لو كان قد سلك طريقًا آخر ، وإذا كان العقلاء يؤكدون أن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل ، فيمكن لكل عاقل أن يثوب إلى طريق الرشاد بلا تردد أو توجس ما دام يوقن أنه سبيل الرشاد ، فاليوم سبيل العمل ، وغدًا يوم الحساب حيث يقال: "وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ" (الصافات: ٢٤) .

فالخلق جميعًا بين فريقين لا ثالث لهما " فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ" (الأعراف:٣٠) ، فريق في الجنة ، وآخر في السعير ، " فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي

الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ " (هود: ١٠٦ – ١٠٨) .

ويذكرنا القرآن الكريم بحال كلا الفريقين ، فيقول الحق سبحانه: "إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ " (فصلت:٣٠-٣٢) .

فالملائكة هنا لا تتنزل على الأنبياء والمرسلين فحسب ، إنما تتنزل على عباد الله الصالحين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، لكن متى تتنزل؟ وكيف تتنزل ؟

أما الكيفية فعلمها مفوض إلى رب السموات والأرض رب العرش العظيم ، وأما متى تتنزل ؟ فأكثر أهل العلم على أنها تتنزل على المؤمن ساعة الاحتضار لتطمئنه قائلة: لا تخف يا عبد الله ولا تحزن وأبشر بالجنة التي كنت توعد ،" نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ " (فصلت:٣١) .

أما يوم المحشر فكما تحدث القرآن الكريم في أواخر سورة الأنبياء حيث قال : "وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ"

(الأنبياء:١٠٣)، وأما في الجنة فالملائكة يدخلون عليهم من كل باب " سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ" (الرعد:٢٤) ، " كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ " (الحاقة:٢٤) ، " وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ " (فصلت:٣١) ، " كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (البقرة:٢٥) ، " وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا " (الإنسان: ١٩-٢٠) أعد الله (عزّ وجلّ) لهم فيها "مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"، ونزع الله (عزّ وجلّ) من بينهم الغل والحسد " وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ " (الحجر:٤٧) .

أما على الجانب الآخر والعياذ بالله فهناك من شُغل عن الله (عزّ وجلّ) بماله ، أو بجاهه ، أو بسلطانه ، أو بتجارته ، وهناك " يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ " (عبس: ٣٤-٣٧) ، "يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ" (الشعراء: ٨٨ - ٨٩) ، "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَلَا

تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ" (لقمان: ٣٣)، يومها يندم الخاسرون حيث لا ينفع الندم ، يقول كل من يأخذ كتابه بشماله: "يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ" (الحاقة: ٢٥-٣٣) ، وسيقال له عند انصراف آخر قَدَمٍ مُوَدِّعٍ: يا ابن آدم جاءوا ودفنوك ، وفي التراب وضعوك ، وعادوا وتركوك ، ولو ظلوا معك ما نفعوك ، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت .

فنحن بين سبيلين بيَّنهما الحق سبحانه وتعالى في مواضع عديدة من كتابه تعالى ، منها قوله تعالى: " مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا "(الإسراء ١٨-١٩)، فالآخرة تحتاج إلى سعي هو سعيها الموصل إلى مرضاة الله فيها ، سعي المؤمن بها المعدُّ لها ، وهذا هو السعي المشكور ، أما الفريق الآخر فحتفه جهنم يلقاها مذمومًا مدحورًا ، ويقول سبحانه: "فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى " (الليل: ٥-١٠)، فالعاقل من يعمل لدنياه كأنما يعيش أبدًا ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا ، من منطلق قوله تعالى :

"وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ" (القصص:٧٧).

* * *

نعمـــة المــــاء

الماء عصب الحياة وقوامها، يقول الحق سبحانه: " وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ " (الأنبياء:٣٠)، وهو نعمة ورزق ، حيث يقول سبحانه: " أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ " (الواقعة: ٦٨ - ٧٠) ، ويقول تعالى: " هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ " (غافر: ١٣) ، ويقول سبحانه:" قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ" (الملك:٣٠) ، ويقول (عز وجل) ممتنًا على السيدة مريم عليها السلام: "فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا "(مريم:٢٤-٢٦) ، ويقول سبحانه:" وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ " (الأعراف: ٩٦) ، ومن أهم بركات السماء: نزول الماء عذبًا ، وبقدر مقدور .

وقد جعل الحق سبحانه وتعالى إنزال المـاء بقدر مقدور وميزان دقيق؛ لأنه إن قَلَّ عن الحاجة أدى إلى الهلاك بالعطش ، وإن زاد عن الحاجة أدى إلى الهلاك بالغرق ، والحكمة تكمن في رحمة الله (عز وجل) في إنزاله بقدر ،

حيث يقول سبحانه: "وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ" (المؤمنون:١٨)، ويقول سبحانه: "وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ " (الحجر: ١٩-٢٢).

فالماء نعمة يجب الحفاظ عليها ورزق يستوجب الشكر ، وينبغي علينا أن ندرك أمرين: الأول : أن النعمة تدوم بالشكر ، وأن الشكر لا يكون بالكلام وحده إنما يكون بالعمل والأخذ بالأسباب ، فمن حيث كون الماء نعمة تستوجب الشكر ، يقول الحق سبحانه:" أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ" (الواقعة: ٦٣-٧٠) ، ويربط سبحانه وتعالى شكره بزيادة النعم ، فيقول (عز وجل): " وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ " (إبراهيم: ٧) ويقول سبحانه: "وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا" (الجن:١٦).

الأمر الآخر: أن نترجم الشكر إلى عمل بالحفاظ على كل قطرة ماء ، وتعظيم الإفادة منها ، وترشيد استخدامها ، وعدم تلويث مياه النهر أو البحر أو الآبار ، أو الجور على المجاري المائية أو تعطيل هذه المجاري ، أو الجور في استخدام المياه على حقوق الآخرين ، أو مخالفة التعليمات الصادرة عن الوزارات المعنية في هذا الشأن .

ولا شك أن قضية المياه أحد أهم التحديات المعاصرة ، وأن التحولات المناخية قد تزيد الأمور تعقيدًا في كثير من مناطق العالم ، مما يتطلب وعيًا دوليًّا بقضايا المياه ؛ لذا نجد بعض الدول رغم الوفرة المائية الشديدة بها تطبق الترشيد بقوة ، وفي أعلى درجاته ، حتى يصير الترشيد ثقافة مجتمع ، وثقافة شعب ، وثقافة أمة .

وهذا هو منهج ديننا الحنيف الذي نبذ الإسراف في كل شيء ونهى عنه، يقول تعالى: " وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " (الأعراف: ٣١) ، ويقول سبحانه: " وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا " (الإسراء:٢٦-٢٧)، ولا شك أن التبذير أعم من أن يكون في المال ، فإنه يشمل التبذير في جميع المجالات بما فيها الإسراف في استخدام الماء أو غيره ، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) أَنَّ رَسُولَ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ): " مَرَّ بِسَعْدٍ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَقَالَ: (مَا هَذَا

السَّرَفُ؟) فَقَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ ؟ قَالَ: (نَعَمْ ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَارٍ) "(مسند أحمد).

نعم الإسراف إسراف ، ولو كان في الوضوء ، ولو كنت على نهر جار ، فالإسراف لا علاقة له بالقلة أو الكثرة ، وإلا لطلبنا من الفقير أن يرشد وتركنا الغني يفعل ما يشاء ، غير أن الأمر بالترشيد والنهي عن الإسراف جاء عامًّا للفقير والغني على حد سواء ، في الندرة والوفرة بلا تفصيل ولا استثناء .

وكما نهانا النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الإسراف في الماء ولو كنا على نهر جار ، كذلك نهانا (صلى الله عليه وسلم) عن كل ما يلوث الماء أو يفسده ، حيث يقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ):" اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَةَ: الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ ، وَالظِّلِّ" (سنن أبي داود) ، مما يؤكد ضرورة الحفاظ على هذه النعمة ، وحسن استخدامها ، وترشيد هذا الاستخدام وتعظيمه على الوجه الأمثل.

وقد عُرِفَ الشعب المصري منذ نشأته بأن عقيدته تقوم على احترام نعمة مياه نهر النيل ، وتقوم ثقافة أبنائه منذ القدم على الحرص على نهر النيل وعدم تلويثه ، واعتبار تلويثه جريمة من الجرائم الكبرى ، وقد كان المصري القديم يكتب من ضمن وصاياه في نهاية حياته ، أنه لم يفعل كذا وكذا من

الجرائم ، وأنه لم يلوث ماء النهر ، وكأنه يتقرب إلى الله تعالى بهذه الفضيلة ، وابتعاده عن تلك الجريمة النكراء ، جريمة تلويث مياه النهر .

فهذه ثقافة المصريين منذ القدم ، وعقيدتهم منذ الأزل في احترام مياه النهر، والحفاظ عليها، وعدم تلويثها ، وهو ما أكدت عليه شريعتنا الغراء.

ونؤكد أن نقطة مياه تساوي حياة ، فكل نقطة ماء يمكن أن تكون سببًا في حياة إنسان أو حيوان أو طائر أو نبات ، وإهدار كل نقطة ماء قد يعني إهدار حياة ، كما أن كل نقطة ماء تساوي مالاً مقومًا ، وفقدها أو إهدارها يعني مالا مقومًا يذهب هدرًا ، كما أن الحفاظ عليها نقية بلا تلوث يعد حفاظًا على ثروة مالية ، وأن تلويثها يعني إهدارًا مائيًّا وماليًّا معًا ، لأن تنقيتها تترجم إلى مال ، وأثرها على الصحة لا يقوم بمال .

ولقد جعل (صلى الله عليه وسلم) حفر الآبار والحفاظ على مجاري الماء وتوسعتها وتيسير سبل استخدامها مما تعظم به الدرجات ، فقال (صلى الله عليه وسلم): " مَنْ حَفَرَ مَاءً لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ كَبِدٌ حَرَّى مِنْ جِنٍّ ولا إِنْسٍ ولا طَائِرٍ إِلَّا آجَرَهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ " (صحيح ابن خزيمة) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " سَبْعَةٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ كَرَى نَهَرًا، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ (شعب الإيمان)، والمراد بكري النهر توسعته ، يقال كرى النهر إذا حفر فيه حفرة لتوسعته ، فإذا كانت

توسعة النهر ، أو مجاري المياه مما يعظم به الأجر ، ويمتد به الثواب للإنسان بعد وفاته وهو في قبره ، فإن الاعتداء على مجاري الماء بصفة عامة ومجرى النهر أو فروعه بصفة خاصة جريمة شرعية ووطنية .

لذا يجب علينا جميعًا الاقتداء بسنة سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ترشيد استخدام الماء ، والعمل على الاستفادة بكل قطرة منه ، وعدم تلويثه ، أو الاعتداء على مصابِّهِ ومصادره ومجاريه التي يعد الاعتداء عليها اعتداء على حق المجتمع كله ، وتضييعًا لمصلحة معتبرة ، وأن المخالفة في ذلك هي مخالفة قانونية وشرعية في آن واحد ، لأن القصد من الشرع والقانون معًا في ذلك هو تحقيق مصالح البلاد والعباد .

وجدير بالذكر أن المياه الجوفية هي جزء من هذا الحق ، والتي ينبغي أن يخضع استخدامها والاستفادة منها لما ينظمه القانون ، فما ينطبق على ضوابط استخدام ماء النهر ينطبق على استخدامات المياه الجوفية والحفاظ عليها.

* * *

□

عناية الإسلام بالأيتام

اليتيم مشتق من اليتم ، وهو الفقد ، ولفظ اليتيم في ذاته يوحي بالضعف ويستوجب الشفقة والرحمة ، فإذا اجتمع على الإنسـان يتم ، وفقر ، أو حرمان، فتلك فاجعة كبرى ، أما إذا اجتمع عليه يتم وفقر وتجاهل مجتمع فتلك ثالثة الأثافي كما كانت العرب تقول في جاهليتها ، وكفالة اليتيم تأمين له وللمجتمع معا ، تأمين له من التشرد والانحراف ، وتأمين للمجتمع من عواقب هذا التشـرد ، كما أنه تأمين لكل شخص يخشى أن تباغته المنية وله ذرية ضعفاء يخشى عليهم الضياع أو الفقر أو الفاقة ، فكما تدين للمجتمع يدين لك ، يقول الحق سبحانه: " وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا الله وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا" (النساء:٩) ، ويوصي بإكرامهم والإحسان إليهم ، فيقول سبحانه: "وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا" (النساء: ٨) ، ويقول سبحانه : "وَاعْبُدُوا الله وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ الله لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا" (النساء: ٣٦) .

لقد عنى الإسلام بشأن اليتيم عناية خاصة قبل بلوغه الحلم وبعد بلوغه الحلم ، وأمر بإكرامه ورعايته ورعاية أمواله ، وحذر من إيذائه وقهره ، فقال الحق سبحانه: " فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ " (الضحى:٩)، وذم أهل الجاهلية على تقصيرهم في حق اليتيم ، فقال سبحانه وتعالى: " كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ " (الفجر:١٧) ، وجعل إكرام اليتيم وسيلة لمرضاة الله عز وجل في الدنيا والآخرة وسبيلا لرفقة النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا"، وأشار (صلى الله عليه وسلم) بأصبعيه السبابة والوسطى (صحيح البخاري) .

ومع كثرة وتنوع ما يمكن أن يقدم لليتيم من رعاية أو عناية أو حنو أو إطعام أو كسوة أو إيواء أو نحوه فإن القرآن الكريم قد آثر لفظ الإصلاح على أي لفظ آخر ، فقال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:" وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ واللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ" (البقرة:٢٢٠) ، فكلمة "إصلاح" أمر جامع لكل ما يحتاجه اليتيم وما من شأنه أن يصلح حاله ، ولو أنك فتشت في معاجم اللغة ومفرداتها ، واستخدمت جميـع نظريـات ما يُعرف في النقد الحديث بالبدائل اللغوية والحقول الدلالية ونظريات الاستبدال الرأسي والأفقي لتبحث عن

أي كلمة يمكن أن تقوم مقام كلمة "إصلاح" لما وجدت أي كلمة أخرى تدانيها أو تقاربها بلاغة أو فصاحة في موضعها هذا ، ذلك أن اليتيم قد يكون فقيرًا في حاجة إلى الإطعام أو الكسوة أو الإيواء ، فيكون الإصلاح بتوفير ذلك له ، وقد يكون اليتيم غنيًا يحتاج إلى من يقوم على شأنه والعناية بماله والحفاظ عليه والعمل على تنميته فيكون الإصلاح هو القيام بذلك على الوجه الأكمل ، وقد يكون اليتيم غنيًا وله من إخوته أو أعمامه أو أخواله من يقوم على شئونه الاقتصادية خير قيام ، غير أن هذا اليتيم قد يكون في حاجة إلى العطف والحنو الذي قد يعوضه شيئًا من حنان الأب أو الأم أو الأبوين معًا ، وهنا يكون إصلاحه في إكرامه والحنو عليه والرحمة به ، وفي هذا يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): " مَنْ أَحْسَنَ إِلَى يَتِيمَةٍ أَوْ يَتِيمٍ عِنْدَهُ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ، وَقَرَنَ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى" (مسند أحمد) ، وقد يكون اليتيم في حاجة إلى التعليم والتهذيب والتأديب والتوجيه والتربية الحسنة والتعهد بمكارم الأخلاق وصالحها ، مع ترسيخ الانتماء للوطن والوفاء له ومعرفة حقوقه على الفرد والمجتمع ، فيكون إصلاح اليتيم هو القيام بذلك .

ولم تقف عناية الإسلام باليتيم عند مرحلة الطفولة أو اليتم ، إنما شملته هذه العنـاية حتى عند استوائه رجلًا ، وحصوله على كل حقوقـه كاملة غير

منقوصة ، يقول الحق سبحانه وتعالى:" وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا " (النساء:٢)، ومعلوم أن دفع مال اليتيم إليه إنما يكون بعد بلوغ الحلم ، لكن القرآن الكريم عبر بلفظ "اليتامى" باعتبار الحال والصفة التي كانوا عليها ترقيقًا للقلوب وحثًا لها على الوفاء بحقهم ، وتأكيدًا على ضرورة مراعاة ما كانوا عليه ، وأن ذمة القائمين على أموالهم لا تبرأ من أكل مال اليتيم حتى يدفعوا إلى هؤلاء اليتامى كامل حقوقهم وأموالهم ، ولقد حذر الحق (سبحانه وتعالى) من أكل مال اليتيم ، وصور الحق من يرتكب هذه الجريمة بصورة من يأكل نارًا فتحرق أمعاءه ، فيقول الحق سبحانه: "إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا" (النساء:١٠) .

أما على الجانب الآخر ، جانب من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، ونوَّر الله قلبه بالإيمان وملأه بالرحمة والإحسان ، فصار مفتاحًا لكل خير ، اصطفاه الله مع من اصطفاهم واختارهم لقضاء حوائج الناس ، وإدخال السرور عليهم ، فدخل تحت قول الحبيب محمد (صلى الله عليه وسلم):" أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا " (صحيح البخاري) ، وأشار (صلى الله عليه وسلم) بأصبعيه السبابة والوسطى، كناية عن قرب كافل اليتيم من الحبيب (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة.

ويقول (صلى الله عليه وسلم): " أَنَا وَامْرَأَةٌ سَفْعَاءُ الخَدَّيْنِ كَهَاتَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَجَمَعَ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ آمَتْ مِنْ زَوْجِهَا ، حَبَسَتْ نَفْسَهَا عَلَى أَيْتَامِهَا حَتَّى بَانُوا أَوْ مَاتُوا"(سنن أبي داود)، ويقول (صلى الله عليه وسلم):" أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُفْتَحُ لَهُ بَابُ الْجَنَّةِ، إِلاَّ أَنَّهُ تَأْتِي امْرَأَةٌ تُبَادِرُنِي فَأَقُولُ لَهَا: مَا لَكِ ؟ وَمَا أَنْتِ ؟ فَتَقُولُ: أَنَا امْرَأَةٌ قَعَدْتُ عَلَى أَيْتَامٍ لِي" (مسند أبي يعلى).

بل لقد جعل الحق سبحانه إطعام اليتيم أحد أهم عوامل اجتياز الصراط بسهولة ويسر فقال سبحانه: " فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ " (البلد: ١١-١٦) .

فما أحوجنا إلى تنمية الحس الإنساني ، والتكافل الاجتماعي ، والرحمة بالفقراء والضعفاء والأيتام والمساكين ، وألا يخطر ببالنا أنهم عالة علينا ، إنما هم سر العون والرحمة والبركة ، يقول نبينا: (صلى الله عليه وسلم) "وَهَلْ تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ إِلا بِضُعَفَائِكُمْ " (مسند أحمد) .

* * *

حظ النفس من الدنيا

نؤمن أن الكمال لله وحده ، وأن العصمة فقط لأنبيائه ورسله ، ثم إن لكل نفس حظها ونصيبها من الدنيا قلَّ ذلك أو كثر ، غير أن حظ النفوس قد يكون غبطة ، وقد يكون حسدًا ، وقد يكون غلا وحقدًا وانتقامًا ، وقد يكون مجرد أمل ، وقد يكون أملًا يحمله العمل .

فالغبطة هي أن تتمنى دوام الخير للغير وأن يصيبك منه ما أصابه ، من غير أن تتمنى زوال النعمة عنه ، أما الحسد ففيه استكثار النعمة على الغير واعتباره غير أهل لها ، وتمني زوالها عنه ، أما الغل والحقد والانتقام فهو العمل على زوال النعمة عن الغير ، وإذا كانت الغبطة جزءًا من حظ النفس الذي يمكن أن يكون مقبولًا ، فإن الأمرين الأخيرين يتنافيان غاية التنافي مع الدين والقيم وطبائع النفس السوية .

والغبطة إما أن تكون أملا فارغًا ، وتطلعًا نفسيًا ، لا يخدمه عمل ولا مقومات ، وهو ما حذر منه النبي (صلى الله عليه وسلم): " انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ الله " (صحيح مسلم) ، وإما أن تكون الغبطة غبطة صحية تدفع إلى السعي والعمل والتنافس في الخيرات ، وهي غبطة مقبولة تتناسب وطبائع النفوس السوية .

وهناك عوامل تدفع إلى ضبط وعلاج حظ النفس من الدنيا ، وأخرى تدفع إلى التوتر والقلق وربما الهدم والهلاك .

والناس نوعان: الأول سبيله الوحيد هو البناء لا الهدم ، فهو معنيٌّ ببناء نفسه ، أو بناء دولته ، أو بناء ما يقع في نطاق مسئوليته ، لأنه يؤمن أن البناء هو السبيل إلى مرضاة الله ، من منطلق أن رسالة الإسلام بل صحيح الأديان رسالة بناء وعمارة للكون لا هدم فيها ولا تخريب ، فإن وجد فتنة وهدمًا ، قاوم وصمد احتسابًا لله وحده ، أو اعتزلها ونأى بنفسه عنها وأنكر بلسانه أو بقلبه ، وهذا أضعف الإيمان ، أما الصنف الآخر فيسلك منهج التشويه والهدم للآخرين ، وكما قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في وساطته: وأهل النقص رجلان: رجل أتاه التقصير من قبله ، وقعد به عن الكمال اختياره ، فهو يساهم الفضلاء بطبعه ، ويحنو على الفضل بقدر سهمه ، وآخر رأى النقص ممتزجًا بخلقته ، ومؤثّلا في تركيب فطرته، فاستشعر اليأس من زواله ، وقصرت به الهمة عن انتقاله ، فلجأ إلى حسد الأفاضل ، واستغاث بانتقاص الأماثل ، يرى أن أبلغ الأمور في جبر نقيصته ، وستر ما كشفه العجز عن عورته ، اجتذابُهم إلى مشاركته ، ووسمُهم بمثل سِمَتِه ، وقد قيل:

وإذا أرادَ اللهُ نشْـرَ فضيلةٍ   طُوِيَت أتاحَ لها لِسانَ حسود

أما العوامل التي تدفع إلى ضبط النفس وعلاج حظها من الدنيا ، فأولها الإيمان الصادق بالله وبقضائه وقدره ، وأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، مؤمنًا بأن الأمور بيد الله وحده ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "... وَاعْلَمْ أَنَّ الأمة لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ " (سنن الترمذي) .

ثم يتبع ذلك الرضا بما قسم الله ، والثقة فيه ، ثم ثقة الإنسان في نفسه ، وإحساسه بقدرته على الإنجاز ، وسعة أفقه في الحياة ، ودخوله من أبوابها المتسعة ، وأن يترك ما لا يستطيع إلى ما يستطيع لعله يجد فيها يستطيع ما يحقق أمله ، مع إيمان مطلق بقسمة الله في خلقه ، وأنها قسمة عدل تستحق الرضا ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ الله غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ الله فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا قُدِّرَ لَهُ " (سنن الترمذي) .

* * *

الظلم ظلمات

الظُّلم ، والظُّلْمة ، والظَّلَام ، والظَّلمة ، والظالمون ، كل هذه المفردات ترجع إلى أصل واحد هو مادة " ظَلَم" التي تعنى السواد ، والقتام ، وهما من المعاني المخيفة المفزعة ، إذ لا أمان لظالم ، لا في الدنيا ولا في الآخرة من غضب الله (عز وجل) ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: " وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ * وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ" (إبراهيم: ٤٢-٤٥) ، ويقول سبحانه: "فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ " (الحج: ٤٥) ، ويقول سبحانه: "وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ" (يونس: ١٣) ، ويقول سبحانه : "وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ" (القصص: ٥٨) ، ويقول سبحانه: "وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ " (هود: ١٠٢) .

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ" (صحيح مسلم) ، ولما بَعَثَ النبي (صلى الله عليه وسلم) سيدنا معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: " يا معاذ إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله عَزَّ وَجَلَّ حِجَابٌ"(صحيح البخاري)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا الله فَوْقَ الْغَمَامِ وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ" (سنن الترمذي).

ونؤكد أن أخذ أموال الناس أو أكلها ظلمًا يأتي في أشد درجات الظلم ، سواء أكان ذلك أكلا للحقوق ، أم منعًا لها ، أم اعتداءً على أملاك الآخرين الخاصة أو العامة ، فقد اختصم رجلان أحدهما من كندة والآخر من حضرموت إلى سيدنا رسول (صلى الله عليه وسلم) في شأن أَرْضٍ يتنازعان عليها، فقال الحضرمي: يا رسول الله ، إن هذا غلبني على أرض كانت لأبي،

فقال الكندي: هي أرضي في يدي أزرعها ليس له فيها حق ، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) للحضرمي: ألك بينة ؟ قال: لا ، قال: فلك يمينه ، فقال: يا رسول الله ، إنه فاجر ليس يبالي ما حلف ، ليس يتورع من شيء، فقال: ليس لك منه إلا ذلك ، فَلَمَّا قَامَ لِيَحْلِفَ، قَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : "مَنِ اقْتَطَعَ أَرْضًا ظَالِمًا ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ" (صحيح مسلم).

ويشمل الظلم كل ألوان الاعتداء والجور على الحقوق سواء أكانت حقوقًا مالية أم معنوية ، فمطل الغني ظلم ، وتطفيف الكيل والميزان ظلم ، وبخس الناس حقوقهم ظلم ، وشهادة الزور ظلم ، وإنكار الشهادة أو كتمها ظلم ، وعدم الوفاء بحق العمل ظلم ، وعدم توفية العامل حقة ظلم ، وعضل المرأة ظلم .

* * *

سلوك وسلوك

لا شكَّ أن سلوك الشخص يعكس مدى ثقافته ، ومدى أخلاقه ، ومدى تربيته ، ومدى حضارته ، وكذلك سلوك الأمم والشعوب يعكس مدى قيمها وتحضرها ، بل إن سلوك الشخص يعكس مدى إيمانه بوطنه ، وإيمانه بربه ، لأنه لو راقب الله (عز وجل) حق المراقبة لانضبط سلوكه وتصرفه ، وقد قال أحد المفكرين الحكماء: من الصعب بل ربما كان من المستبعد أو المستحيل أن نجعل لكل إنسان جنديًّا أو شرطيًّا أو حارسًا يحرسه ، وحتى لو جعلنا لكل شخص حارسًا أو جنديًّا أو شرطيًّا يحرسه فإن الحارس أيضًا قد يحتاج إلى من يحرسه ، والمُراقب قد يحتاج إلى من يُراقبه ، ولكن من السهل أن نُربي في كل إنسان ضميرًا حيًّا ينبض بالحق ويدفع إليه ، راقبناه أم لم نراقبه ، لأنه يُراقَب ممن لا تأخذه سنة ولا نوم ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:" اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ " (البقرة:٢٥٥) ، ويقول (عز وجل): "وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي

الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ" (الأنعام: ٥٩) ، ويقول سبحانه على لسان لقمان عليه السلام في وصيته لابنه: " يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ " (لقمان: ١٦) ، ويقول سبحانه: " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " (المجادلة: ٧) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "ثَلاثٌ كَفَّارَاتٌ وَثَلاثٌ دَرَجَاتٌ وَثَلاثٌ مُنْجِيَاتٌ وَثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ ، فَأَمَّا الْكَفَّارَاتُ: فَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي السَّبَرَاتِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ ، وَنَقْلُ الأَقْدَامِ إِلَى الْجُمُعَاتِ ، وَأَمَّا الدَّرَجَاتُ: فَإِطْعَامُ الطَّعَامِ ، وَإِفْشَاءُ السَّلامِ ، وَالصَّلاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، وَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ: فَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ ، وَخَشْيَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ ، وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ " (المعجم الأوسط للطبراني) .

ومن أهم السلوكيات التي ينبغي أن نُركز عليها هو التمييز بين السلوك الإيجابي والسلوك السلبي تجاه الحق العام ، والشأن العام ، والمال العام ، ففي

جانب السلوك الإيجابي الذي يؤكده الإسلام ويُرشدنا ويحثنا عليه خير الأنام سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) إماطة الأذى عن الطـريق ، يقـول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ" (متفق عليه) ، وعندما سأل رجل النبي (صلى الله عليه وسلم) عن عملٍ يُدخله الجنة ، قائلاً: يَا رَسُولَ الله دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ ؟ قَالَ (صلى الله عليه وسلم): "أَمِطِ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ؛ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ" (مسند أحمد) .

على أن إماطة الأذى عن الطريق لا تتوقف عند مجرد رفع حجر هنا أو هناك عنه ، وإن كان ذلك أمرًا مشروعًا ومطلوبًا وجيدًا ، ولا يُستهان أو يُستخف به ، إنما حق الطريق أبعد من ذلك ، وأول حقوقه عدم الاعتداء عليه ، أو الإجحاف به ، أو عدم الوفاء بحقه ، فقد قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه يومًا: "إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا قَالَ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا ، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الأَذَى وَرَدُّ السَّلاَمِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ" (صحيح البخاري) ، على عكس السلوك السلبي الذي قد يتمثل في الاعتداء على المساحة المخصصة للطريق

سواء بالبناء ، أم بالإشغال ، أم بالإزعاج ، أم بالخروج على الآداب العامة، ويلحق بالطريق في ضرورة إعطائه حقه والمحافظة عليه كل ما في حكمه من مسارات السكة الحديد ، ومترو الأنفاق ، وخطوط المياه ، والغاز، والكهرباء ، وسائر المرافق العامة .

وكذلك السلوك تجاه المال العام الذي هو مال الله ، ومال الأمة ، ومال الوطن ، ومال المواطنين ، حيث يقول الحق سبحانه: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ الله كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرًا " (النساء:٢٩،٣٠)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ الله بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " (صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ " (شعب الإيمان للبيهقي).

على أن حُرمة المال العام أشد من حرمة المال الخاص ، فإذا كان للمال الخاص صاحب يدافع عنه ويطالب به في الدنيا والآخرة ، فإن المال العام الذي هو حق للمجتمع كله قد يترتب على ضياعه جوع يتيم ، أو وفاة مريض ، أو فوت مصلحة عامة للوطن ، يؤثر ضياعها على أفراد

المجتمع كله ، مما يجعلهم جميعًا خصومًا لمن اعتدى عليه سواء في الدنيا أم "يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ" (الشعراء:٨٨،٨٩).

* * *

قيمة الوقت

الوقت قيمة هامة غالية ثمينة نفيسة لا يدرك قدرها كثير من الناس ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ " (صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "لَا تَزُولُ قَدمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ عُمُرُهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ عَلِمهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟ (المعجم الكبير للطبراني) ، فما من يوم إلا وينادى: يا ابن آدم أنا يوم جديد وعلى عملك شهيد فاغتنمني فإن غابت شمسي لن تدركني إلى يوم القيامة (تفسير النسفي).

ولأهمية الزمن أقسم به الحق سبحانه وتعالى في مواضع عديدة ، وأشار إليه في مواضع أخرى من كتابه العزيز ، حيث يقسم سبحانه وتعالى بالفجر الذي أفرد له الحق سبحانه وتعالى سورة سماها باسمه ، فقال:" وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ " (الفجر: ١-٣) ، ويقسم بالضحى ويفرد له أيضا سورة سماها باسمه فيقول:" وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى " (الضحى:١-٤) ، وأقسم سبحانه وتعالى بالعصر وأفرد له سورة باسمه في كتابه العزيز هي

سورة العصر ، فقال سبحانه: "وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ" (العصر:١-٣) ، ويقسم سبحانه وتعالى بالصبح فيقول: "وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ" (المدثر: ٣٤-٣٧)، ويقسم بالليل وبالنهار فيقول سبحانه: "وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى" (الليل: ١- ٧) فتسمية أربع سور بأسماء أوقات: الفجر ، والضحى ، والعصر ، والليل ، لهو أكبر دليل على أهمية الزمن .

إضافة إلى إشارات متعددة تربط بعض الأحداث أو الأعمال بالزمن كقوله تعالى: " أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآَنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآَنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا " (الإسراء: ٧٨) ، وقوله تعالى في شأن أصحاب الكهف:" وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا " (الكهف: ٢٥) ، وقوله تعالى: " شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ" (البقرة: ١٨٥) ، وقوله تعالى:" وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ " (البقرة: ٢٣٣) ، وقوله سبحانه: " وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ

مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا" (البقرة: ٢٣٤)، وقوله سبحانه: "وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ " (البقرة: ٢٤٠) ، وقوله سبحانه: " لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ " (البقرة: ٢٢٦) .

على أن الناس في تعاملهم مع الوقت فريقان : الأول : يسرقه الوقت فإن لم يسرقه الوقت حاول هو قتل الوقت لأنه في فراغ قاتل ممل ، لا هو في أمر دينه ولا في أمر دنياه ، حيث يقول ابن مسعود (رضي الله عنه): إني لأكره أن أرى الرجل فارغًا ، لا في عمل الدنيا ، ولا في عمل الآخرة.

أما الفريق الآخر : فليس لديه فاقد من الوقت ولا فائض ، لأنه منظم يحسن استغلال وقته والاستفادة بكل جزء فيه ، لا يدرك قيمة ثوانيه فحسب ، إنما يدرك قيمة ما يعرف بالفيمتو ثانية ، ويعمل على استغلال كل لحظة من الزمن ، مدركًا أن النشاط يُولِد النشاط ، والكسل يُولِد الكسل ، وأن القليل إلى القليل كثير ، وأن حياة الإنسان إنما هي عبارة عن مجموعة من الوحدات الزمنية التي تشكل في مجملها وتراكيبها حياته كلها ، وقد قال الشاعر:

دَقَّاتُ قلبِ المرءِ قائلـةٌ له
إنَّ الحيـاةَ دقائـقٌ وثـوان

وقد كان ذلك قبل أن يقف الناس على تجزئة الثواني إلى وحدات زمنية أخرى .

على أن عمر الإنسان هو ما ينتجه أو يخلفه من تراث معرفي ، أو فكري ، أو إنتاج علمي ، نظري أو تطبيقي ، وكل ما يقدمه لخدمة البشرية ، بغض النظر عن مدى الزمن الذي يعيشه ، وقد قال الشاعر:

عُمرُ الفتى ذكرُهُ لا طولُ مُدّتِهِ

فالبركة في العمر لا تكون بطول العمر فحسب ، إنما هي مقدار ما ينتجه أو يقدمه المرء في هذا العمر لخدمة دينه أو دنياه أو دنيا الناس ، فخير الناس من طال عمره وحسن عمله ، وشر الناس من طال عمره وساء عمله ، وخير الناس أنفعهم للناس .

* * *

الفقـه والفهـم

يقال: فقَه الرجل بفتح القاف إذا فهم ، وفقِه بكسر القاف إذا سبق غيره في الفهم ، وفقُه بالضم إذا صار الفقه له لازمة وملكة وسجية .

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي الله ، وَلَنْ يَزَالَ أَمْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ، أَوْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله" (صحيح البخاري) ، أي ويعطي الله (عز وجل) العلم والفقه والفهم ، وقد قالوا: من عمل بما علم ورثه الله (عز وجل) علم مالم يكن يعلم ، حيث يقول الحق سبحانه في شأن الخضر (عليه السلام):" وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا " (الكهف:٦٥) ، ويقول سبحانه: "وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ" (الأنبياء: ٧٩- ٨٠) فعبر الحق سبحانه وتعالى بلفظ "ففهمناها " ولم يقل علمناها ، لأن العلم شيء والفهم شيء آخر .

ويقول سبحانه وتعالى: " كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ"

(يوسف: ٧٦)، وقال تعالى على لسان يوسف (عليه السلام): " لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ" (يوسف:٣٧)، وقال رجل للقاضي شريح: علمني القضاء ، فقال له شريح: القضاء فقه ، القضاء لا يُعَّلم .

ولا يظن من حفظ بعض المسائل من بعض الكتب أنه قد صار حجة ، أو فقيهًا ، أو مرجعًا يرجع إليه وينزل على قوله أو رأيه ، فالأمر أبعد وأعمق، إذ لو كان الأمر واقفًا عند حدود معرفة بعض الأحكام الجزئية بمعزل عن أصولها وسياقها وزمانها ومكانها وقواعدها الكلية والأصولية لكان الخطب هينًا والأمر جد يسير ، غير أن الأمر أبعد من ذلك وأدق ، فعندما دخل الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) المسجد ووجد رجلاً يتصدر مجلس العلم سأله عن الناسخ والمنسوخ فلم يدر جوابًا ، فقال عليّ (رضي الله عنه): هذا ليس بعالم ، هذا رجل يقول: أنا فلان بن فلان فاعرفوني .

فإلى جانب معرفة القواعد الأصولية ، وقواعد الفقه الكلية ، وعلم الحديث رواية ودراية ، وعلوم القرآن وما يتفرع عنها ويدور حولها من دراسات قرآنية وأسرار بيانية وبلاغية ، هناك فقه الواقع ، وفقه الأولويات ، وفقه المقاصد ، وفقه النوازل ، وفقه المتاح ، وفقه الموازنات، مما

لا غنى عنه للمفتي فضلا عن المجتهد ، غير أننا ابتلينا في زماننا هذا برويبضات لا هم في العير ولا في النفير ، يريدون أن يتصدروا مجالس العلم عنوة ، وأن يعتلوا المنابر اقتتالاً ، وأن يكونوا في الصدارة زورًا وبهتانًا ، يبحث بعضهم عن كل شاذ أو غريب ، لا يعنيه أول ما يعنيه إلا أن يجاري السفهاء ، أو يجادل العلماء ، أو يماري الأمراء ، أو يصرف إليه قلوب العامة والدهماء ، أو يُسوِّق نفسه لدى الباحثين عن طالبي الشهرة وحب الظهور ، لإحداث لون من الإثارة أو الجدل ، لعله يحظى لديهم بمغنم أي مغنم ، ولو كان على حساب دينه ، أو وطنه ، أو كرامته ، أو مروءته لا يلوي على شيء ، على عكس ما نراه في أخلاقيات العلماء الفاهمين لدينهم المعتزين بعلمهم وفقههم ، على نحو ما يصوره العالم الأديب الأريب القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني حيث يقول:

إذا قِيلَ: هذا مَشْربٌ ، قُلْتُ: قَدْ أَرَى
ولَكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّما
ولَمْ أَقْضِ حَقَّ العِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّما
بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِيَ سُلَّما
أَأَشْقَى بِهِ غَرْسا وأَجْنِيهِ ذِلَّة
إِذَنْ فَاتِّبَاعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحزمَا

وَلَــوْ أنَّ أَهْــلَ العِلْــمِ صَــانُوهُ صَــانَهُم

وَلَـــوْ عَظَّمُـــوهُ فِي النُّفُـــوسِ لعُظِّـــمَا

مع التأكيد على أن ليس للإنسان إلا ما كُتِب له ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ ، فَرَّقَ الله عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ ، جَمَعَ الله لَهُ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ " (سنن ابن ماجه)، ويقول الحق سبحانه: " فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا " (الكهف: ١١٠) .

* * *

القيم الإنسانية

لاشك أن ديننا الحنيف مفعم بالقيم الإنسانية ، سواء في أخلاقه أم في تشريعاته ، فعندما كرم الإسلام الإنسان كرمه على أخلاقه الإنسانية بغض النظر عن لونه أو جنسه أو لغته أو عرقه ، فقال سبحانه: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ " (الإسراء: ٧٠) ولم يقل: كرمنا المسلمين وحدهم ، أو المؤمنين وحدهم ، أو الموحدين وحدهم ، وكان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ" (الجامع الصحيح للسنن) ، وكان يقول في شأن سلمان الفارسي: " سلمان منا آل البيت " (الحاكم في المستدرك) ، وكان عمر (رضي الله عنه) يقول: " أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا " (صحيح البخاري) ، يعني بذلك بلالًا الحبشي ، وقال رسولنا (صلى الله عليه وسلم): " لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى الله (عز وجل) مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ " (مسند أحمد).

وعندما حرم الإسلام قتل النفس حرم قتل كل نفس ، وأي نفس ، وعصم كل الدماء ، فقال الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: "أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ " (المائدة: ٣٢)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " لن يَزَالُ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِن دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا " (صحيح البخاري) وعندما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) امرأة كافرة عجوزًا مقتولة في ساحة القتال قال (صلى الله عليه وسلم): "من قتلها ؟، ما كانت هذه لتقاتل" (مسند أحمد) ، بما يعني أنه لا يوجد في الإسلام قتل على المعتقد إنما يكون القتال لردِّ العدوان ، ولما مرت عليه (صلى الله عليه وسلم) جنازة يهودي وقف (صلى الله عليه وسلم) حتى مرت ، فقيل له: إنها جنازة يهودي يا رسول الله ، فقال (صلى الله عليه وسلم): أليست نفسًا؟! (متفق عليه).

وعندما تحدث القرآن الكريم عن خيرية هذه الأمة ربط هذه الخيرية بإنسانية هذه الأمة وكونها خير الناس للناس ، فقال سبحانه: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ " (آل عمران: ١١٠) .

وقد عني التشريع الإسلامي بشأن الأيتام ، والضعفاء والفقراء والمحتاجين ، وذوي الاحتياجات الخاصة ، وجعل (صلى الله عليه وسلم) الساعي على الأرملة والمسكين كالصائم القائم ، وكالمجاهد في سبيل الله أجرًا وثوابًا وحسن عاقبة ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول: " هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلا بِضُعَفَائِكُمْ " (صحيح البخاري)، وعندما وصفته السيدة خديجة (رضي الله عنها) قالت: " فوالله لا يخزيك الله أبدا ؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ " (متفق عليه) .

وقد راعى الإسلام حق الضعيف والجار والمسكين والمحتاج ، فقال نبينا (صلى الله عليه وسلم): "وَالله لا يُؤْمِنُ ، وَالله لا يُؤْمِنُ ، وَالله لا يُؤْمِنُ" قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ: " الجَارُ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَه" (مسند أحمد) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): " مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ " (صحيح البخاري) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): " مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَان وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ " (المعجم الكبير للطبراني)، ولما قيل له: إن فلانة صوامة قوامة إلا أنها تؤذي جيرانها ، قال (صلى الله عليه وسلم): "هي في النار" (مسند أحمد) ، وعندما تحدث (صلى الله عليه وسلم) عن حقوق الجار سما

بها إلى أعلى درجات الرقي الإنساني حين قال: وَإِنِ اشْتَرَيْتَ فَاكِهَةً فَاهْدِ لَهُ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأَدْخِلْهَا سِرًّا، وَلَا يَخْرُجُ بِهَا وَلَدُكَ لِيَغِيظَ بِهَا وَلَدَهُ، أَتَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَبْلُغُ حَقُّ الْجَارِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ رَحِمَ اللهُ .." (شعب الإيمان).

وراعى الإسلام حق وشعور الغريب والبعيد ، فقال الحق سبحانه في شأن معاملة الوالدين: "وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا" (الإسراء:٢٣)، وجعل الإسلام اللقمة التي تضعها في فم امرأتك ، والنفقة التي تنفقها على ولدك صدقة ، ونهى حتى عن مجرد جرح المشاعر ، فقال نبينا (صلى الله عليه وسلم): "من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ، ولم يؤثر ولده عليها – يعني الذكور – أدخله الله الجنة "(سنن أبي داود) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): " إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً، فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الْآخَرِ ، حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ " (متفق عليه)، ودعا إلى كل ما يحقق الوفاق والوئام الإنساني ، فنهى عن التحاسد والتباغض والتنابز بالألقاب ، ودعا إلى التراحم والتزاور والتسامح ، وحسن الظن ومناداة الإنسان بأحب الأسماء إليه والبشاشة في وجهه ، فقال (صلى الله عليه وسلم): «لَا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ شَيْئًا مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ

فَلْيَلْقَ أَخَاهُ بِوَجْهٍ طَلْقٍ، وَإِنْ اشْتَرَيْتَ لَحْمًا أَوْ طَبَخْتَ قِدْرًا فَأَكْثِرْ مَرَقَتَهُ وَاغْرِفْ لِجَارِكَ مِنْهُ» (سنن الترمذي) .

فما أحوجنا إلى استعادة وترسيخ هذه القيم الإنسانية التي دعا إليها ديننا الحنيف ؛ لنحقق بصدق خيرية هذه الأمة كما أرادها الله (عز وجل) ، وتستحق بها رحمة الله أولًا ، وأن نكون شهداء على الأمم ثانيًا ، وأن نغير الصورة القاتمة التي رسمتها الجماعة الإرهابية المضللة لديننا الحنيف من جهة ثالثة .

* * *

حبس الحقـــوق

لاشك أن الإسلام أعطى كل إنسان حقه ، وكل وارث حقه ، وكل ذي حق حقه ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) في خطبته الجامعة في حجة الوداع: " إِنَّ الله عز وجل قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، أَلَا لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ" (سنن ابن ماجه) .

وقد أعطى العالم حقه ، والكبير حقه ، والصغير حقه ، والمرأة حقها، والأجير حقه ، واليتيم حقه ، فقال (صلى الله عليه وسلم): " لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا" (الأدب المفرد للبخاري) ، وفي رواية "لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا ، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا ، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ" (مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "قَالَ الله: ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ " (صحيح البخاري) ، وقد قالوا: أعط الأجير حقه قبل أن يجف عرقه .

وقد نهى الإسلام عن أكل أموال اليتامى ظلما فقال سبحانه: "وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا" (النساء:٢) ، ويقول الحق سبحانه: "إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ

أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا" (النساء:١٠) ، ويقول سبحانه: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ الله كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرًا" (النساء: ٢٩-٣٠).

وحدّ لذلك حدودًا وبخاصة في المواريث ، وجعل الاعتداء على حق الإنسان في الميراث اعتداء على حدود الله ، يقول الله (عز وجل) في ختام الحديث عن آيات المواريث في سورة النساء: "تِلْكَ حُدُودُ الله وَمَنْ يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ" (النساء: ١٣ ، ١٤) .

غير أننا ابتلينا ببعض من لا يتقون الله في حقوق الناس ، فيحبسونها عن أصحابها وبخاصة الضعفاء ، بحجة الحفاظ عليها أو تنميتها .

إن من يحبس حق المرأة في الميراث بحجة الحفاظ عليه ، أو يحبس حق اليتيم بحجة الحفاظ عليه أيضا ، فهم كما قال الشاعر:

كَالعِيسِ فِي الْبَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَا
وَالمَاءُ فَوقَ ظُهُورِهَا مَحْمُول

وفي ذلك نسمع ونقرأ قصصًا عجيبة وغريبة ، عن تعامل بعض أولياء اليتيم أو اليتيمة ، أو بعض الإخوة ، أو الأهل الذين يقبضون على كامل التركة بحجة عدم تفرقتها ، ولا يعطون بعض النساء حقوقهن مع حاجتهن الملحة إلى ما شرعه الله (عز وجل) لهن من نصيب جعله مفروضًا ، فقال سبحانه: " لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا " (النساء: ٧).

وأعجب من هذا حال بعض الجمعيات التي تقوم على رعاية الأيتام ، فتجمع المال لأجلهم ، وبدل أن تفي بحاجاتهم الآنية العاجلة من مطعم أو ملبس أو كسوة – ونحو ذلك مما لا غنى عنه لهم – أو الإنفاق على تعليمهم أو مداواتهم ونحو ذلك ، تذهب إلى استثمار هذه الأموال ، ثم تستثمر عائد الاستثمار ولا تصرف منه إلا فتاتًا ، فرحة بتعلية الأرصدة مؤكدة أنها لصالح اليتيم يوما ما ، على أن هذا اليتيم قد يصيبه ما يصيبه من الألم والحسرة والحرمان قبل أن يأتي هذا اليوم الذي ينعم فيه بالمال الذي جمع لأجله .

وإذا كان القرآن الكريم قد نعى على أهل الجاهلية عدم إكرام اليتيم ، وعدم حضِّهم على طعام المسكين ، فقال سبحانه: "أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ"

(الماعون: ١-٣)، وقال سبحانه : "كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا * كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ" (الفجر: ١٧-٢٦) فما ظنكم بمن يحبس حق المرأة أو حق اليتيم أو حق الأجير ، فيحبس الحقوق عن أصحابها المستحقين لها ، وهو ليس عليهم بوكيل ، إنما هو مؤتمن ، وعلى المؤتمن أن يسرع في أداء الأمانة التي ائتمنه الله (عز وجل) عليها ، يقول الحق سبحانه في شأن اليتامى : "وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا " (النساء: ٦).

* * *

□

الدنيـا والآخـرة

الدنيا فانية لا محالة ، غير أننا نعيش فيها ونحن مأمورون بإعمارها وإعمار الكون ، والسير في مناكب الأرض بحثًا عن الرزق ، وبناءً للحضارة ، وطلبًا للعظة والاعتبار بحال من مضى في القرون الأولى.

والآخرة باقية ، ونحن مأمورون بالسعي لها ، والإقبال عليها ، والعمل لأجلها ، عملا لا يخالطه دَخَنٌ ولا نفاق ، وذلك حيث يقول سبحانه: "وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا " (الإسراء: ١٩).

على أن سعي الدنيا المذموم هو ذلك السعي الذي يكون على حساب الآخرة ، وفيمن يضحي بآخرته لأجل دنياه ، ولا يعنيه سوى الدنيا ولو باع نفسه أو دينه أو وطنه في سبيلها ، وذلك النوع هو الذي ينطبق عليه قوله تعالى: " مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا " (الإسراء: ١٨) ، وقوله تعالى: "مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (هود: ١٥، ١٦) ، وقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ

كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ الله غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ الله فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا قُدِّرَ لَهُ"(سنن الترمذي).

أما سعي العمل والإنتاج وتحقيق الاستغناء عن ذل السؤال أو الحاجة إلى الناس ، فهو ذلكم السعي الذي يدعو إليه الإسلام ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه سلم): " مَنْ أَمْسَى كالًّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ أَمْسَى مَغْفُورًا لَهُ " (رواه الطبراني في الأوسط)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ الله دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ" (صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ " (مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ" (صحيح البخاري) .

إن الذي نفتقده ، والذي نسعى إليه هو ذلكم التوازن ، وتلكم الوسطية القائمة على الاعتدال كما في قوله تعالى: "وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ "(القصص:٧٧) ، وقوله تعالى: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا"

(الإسراء: ٢٩) ، وقوله تعالى: "وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا "(الفرقان: ٦٧) ، وقوله (صلى الله عليه وسلم): "نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ"(شعب الإيمان) ، وقوله (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلاَ يَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ الله مَالاً وَلاَ عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ " (سنن الترمذي).

فلا حرج في طلب الحسنى في الدنيا والآخرة ، بل هل مطلوب مشروع وممدوح ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: "وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا واللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ " (البقرة: ٢٠١ -٢٠٢).

* * *

□

حق المرأة في الميراث والحياة الكريمة

تعد قضية الميراث واحدة من أهم القضايا التي أكد عليها سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في خطبته الجامعة في حجة الوداع حيث قال: "إِنَّ الله عز وجل قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، أَلَا لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ" (سنن ابن ماجه) ، وقد حدد الحق سبحانه وتعالى بنفسه أنصبة الوارثين ولم يتركها لأحد من خلقه ، حيث يقول سبحانه وتعالى: " يُوصِيكُمُ الله فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ الله إِنَّ الله كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا" (النساء:١١) .

ولم يقف الأمر عند حد تحديد الأنصبة ، وإنما رتب القرآن الكريم الوعيد الشديد لكل من تسول له نفسه الاعتداء على هذه الحقوق ، فقال سبحانه في ختام الحديث عن تحديد الأنصبة: " تِلْكَ حُدُودُ الله وَمَنْ يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ

مُهِينٌ " (النساء: ١٣ـ١٤)، ونعى على أهل الجاهلية أكلهم حقوق بعض الورثة بغير حق ، فقال سبحانه: " كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا * كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ " (الفجر:١٧ـ٢٦)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مَنْ قَطَعَ مِيرَاثًا فَرَضَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ قَطَعَ اللهُ بِهِ مِيرَاثًا مِنَ الْجَنَّةِ" (شعب الإيمان).

ويحكى: أن رجلا حرم ابنته من الميراث فانتظرت حتى دنت ساعة وفاته ولقاء ربه ، فدخلت عليه لحظة غسله ، فنظرت إليه وقالت: اللهم إنك تعلم أنه قد حرمني بعض نعيم الدنيا وإني أسألك أن تحرمه من نعيم الآخرة.

ثم إن حرمان النساء من الميراث يكون لعلل واهية أو عادات وتقاليد بالية لا أصل لها في الشرع ، وكأني بالذي يحرم شخصًا ويؤثر آخر يظن نفسه أعلم بالمصالح وبمن يستحق ممن لا يستحق من رب العالمين وأحكم الحاكمين ، خالق الخلق ومالك الملك ، وكأن لسان حال هذا المفتئت على الله (عز وجل) في تشريعه يقول: تقسيم الله لا يعجبني ، أو كأنه يقول: أنا أقسّم تقسيما أحسن من تقسيم الله – والعياذ بالله – إذ لو كان مؤمنا بأن

تقسيم الله في كتابه العزيز هو الأفضل والأمثل ، لما تدخل بإيثار هذا وحرمان ذاك .

وفي شأن المرأة بصفة عامة أمًّا كانت أو أختًا أو زوجًة أو ابنًة أو غير ذلك، فقد نهى ديننا عن عضلهن وظلمهن وبخسهن حقوقهن ، بل جعل العدل معهن وعدم التفرقة بين البنت والابن سبيلاً واسعًا لمرضاة الله وطريقًا لرضوانه وجنته ، فقال نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مَنْ كَانَتْ لَهُ أُنْثَى فَلَمْ يَئِدْهَا وَلَمْ يُهِنْهَا وَلَمْ يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ " (سنن أبي داود) ، ففي هذا الحديث معان راقية وبلاغة عالية ، حيث عبر النبي (صلى الله عليه وسلم) في صدر الحديث بالاسم الموصول "مَنْ" الذى يفيد العموم والشمول ، وعبر بلفظ الأنثى دون البنت ، لأنه أعم ، فلفظ الأنثى يشمل كل أنثى سواء أكانت بنتًا ، أم أختًا ، أم بنت ابن ، أم بنت بنت ، أم غير ذلك .

وقد أوصى نبينا (صلى الله عليه وسلم) بالمرأة وإكرامها وحسن معاملتها في مواضع متعددة ، يقول (صلى الله عليه وسلم): " مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ، فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ وَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ ، كُنَّ لَهُ حِجَابًا يوم القيامة مِنْ النَّارِ " (مسند أحمد) ، وفى رواية: " من كانت له بنتان أو أختان " (مسند أحمد)، وفى رواية أخرى ما يؤكد أنها حتى لو بنتًا واحدة فعلمها وليها وأدّبها وأحسن إليها فإنها تكون سترًا له من النار يوم القيامة"

(شعب الإيمان) ، ولما كان أحد الناس جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَجَاءَ بُنَيٌّ لَهُ ، فَأَخَذَهُ فَقَبَّلَهُ وَأَجْلَسَهُ فِي حِجْرِهِ ، ثُمَّ جَاءَتْ بُنَيَّةٌ لَهُ ، فَأَخَذَهَا وَأَجْلَسَهَا إِلَى جَنْبِهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "فَمَا عَدَلْتَ بَيْنَهُمَا " (الأدب المفرد) ، أي أنه كما وضع الولد على فخذه كان ينبغي أن يفعل مع البنت فيجعلها على فخذه الآخر.

غير أننا نرى ونلمس في واقعنا المعاصر بعض ألوان التفرقة المقيتة ، ففي داخل السكن الأُسَري لدى بعض الناس يكون موقع الولد أفضل من موقع أخته ، وفى مجال التعليم تكون العناية بالولد أكثر من العناية بالبنت ، وعند الميراث الذي صدرنا به المقال إما أنها لا تُعطى أصلًا فيُهضم حقها بالكامل، وإما أن تُعطى فتاتًا على سبيل ما يسمى زورًا وبهتانًا بالترضية ، وهو أمر لا يمت للترضية الحقيقية بشيء ، إنما هو لون من ألوان الإسكات أو القهر أو الغبن ، سمّه ما شئت غير أن يكون ترضية أو إحقاقًا للحق ، أو تطبيقًا عادلًا لشرع الله (عز وجل) ، وتوزيعًا وفق ما يقتضي الشرع والحق والعدل والقانون .

* * *

□

حقيـقة الخشيـة

الخشية خوف يشوبه تعظيم ، وقيل: هي الخوف المقرون بإجلال ، وهي أخص من الخوف ، وهي من سمات الأنبياء والعلماء والصالحين ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " أَمَا وَالله إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ لَهُ " (صَحِيحُ البُخَارِي) ، ويقول: (صلى الله عليه وسلم): "فَوَالله إِنِّي لأَعْلَمُهُمْ بِالله وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً "(صَحِيحُ البُخَارِي) ، ويقول الحق سبحانه: " الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا الله وَكَفَى بِالله حَسِيبًا "(الأحزاب: ٣٩).

وهي خوف العلماء المقرون بمعرفة الله وإجلاله وإدراك عظيم شأنه سبحانه وتعالى ، حيث يقول الحق سبحانه:" إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ الله عَزِيزٌ غَفُورٌ " (فاطر: ٢٨).

وقال بعضهم: الخشية إنما تكون من عظم من يُخشى منه ، فهي رديف المهابة ، وهي من صفات أولي الألباب ، حيث يقول الحق سبحانه: "إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ الله وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ" (الرعد:١٩-٢١).

وهي أيضًا من صفات المتقين وسمات المؤمنين المخلصين ، حيث يقول

الحق سبحانه:" وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ" (الأنبياء: ٤٨ – ٤٩) ، ويقول سبحانه: " إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ آَمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا الله فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ "(التوبة: ١٨)، ويقول تعالى: " الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ الله ذَلِكَ هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ " (الزمر: ٢٣) .

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله " (سنن الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " لا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهَّ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ في الضَّرْعِ ، وَلا يَجْتَمعُ غُبَارٌ في سَبِيلِ اللهَّ ودُخانُ جَهَنَّمَ " (سنن الترمذي).

والخشية تعني حسن المراقبة لله (عز وجل) في السر والعلن ، على نحو ما كان من ابنة بائعة اللبن – فعن عبد الله بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن

جدِّه أسلم قال: بينما أنا مع عمرَ بن الخطاب (رضي الله عنه) وهو يتفقد الرعية بالمدينة إذ أَعيا ، فاتَّكأ على جانبِ جدارٍ في جوفِ الليلِ ، فإذا امرأةٌ تقولُ لابنتها: يا ابنتاه ، قُومي إلى ذلك اللَّبنِ فامْذُقيهِ بالماء. فقالت لها: يا أمَّتاه ، أو ما عَلمتِ بما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم؟! قالت: وما كانت من عزمته يا بُنيَّة؟ قالت: إنَّه أمر مناديه فنادى: ألا يُشَابَ اللَّبنُ بالماء. فقالت لها: يا بنتاه ، قومي إلى اللَّبن فامْذُقيهِ بالماء ، فإنك بموضعٍ لا يَراكِ عمرُ ، ولا مُنادِي عمرَ . فقالت الصبيَّةُ لأمِّها: يا أمَّتاه ، والله ما كنتُ لأُطيعَهُ في الملأ ، وأَعصِيَهُ في الخلا ، وعمرُ يَسْمع كلَّ ذلك ، فقال: يا أسلمُ، علِّمِ البابَ ، واعرفِ الموضعَ. ثم مضى ، فلمَّا أصبح ، أتاهم فزَوَّجها من ابنه عاصم ، فوَلَدت لعاصم بنتًا ، وَوَلَدت البنتُ عمرَ بن عبد العزيز رحمه الله تعالى (تاريخ عمر بن عبد العزيز للآجري).

وخرج ابن عمر (رضي الله عنهما) ذات يوم فِي بَعْضِ نَوَاحِي الْمَدِينَةِ وَمَعَهُ أَصْحَابُ لَهُ ، وَوَضَعُوا سَفْرَةً لَهُ ، فَمَرَّ بِهِمْ رَاعِي غَنَمٍ ، قَالَ: فَسَلَّمَ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: هَلُمَّ يَا رَاعِي ، هَلُمَّ ، فَأَصِبْ مِنْ هَذِهِ السُّفْرَةِ ، فَقَالَ لَهُ: إِنِّي صَائِمٌ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: أَتَصُومُ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْم شَدِيد الْحَرِّ وَأَنْتَ فِي هَذِهِ الْجِبَالِ تَرْعَى هَذَا الْغَنَمَ ؟ فَقَالَ لَهُ: أَيْ وَالله ، أُبَادِرُ أَيَّامِي الْخَالِيَةَ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ وَهُوَ يُرِيدُ يَخْتَبِرُ وَرَعَهُ: فَهَلْ لَكَ أَنْ تَبِيعَنَا شَاةً مِنْ غَنَمِكَ هَذِهِ

فَنُعْطِيكَ ثَمَنَهَا وَنُعْطِيكَ مِنْ لَحْمِهَا فَتُفْطِرَ عَلَيْهِ ؟ فَقَالَ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِي بِغَنَمٍ، إِنَّهَا غَنَمُ سَيِّدِي ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: فَمَا عَسَى سَيِّدُكَ فَاعِلا إِذَا فَقَدَهَا ، فَقُلْتَ: أَكَلَهَا الذِّئْبُ ، فَوَلَّى الرَّاعِي عَنْهُ وَهُوَ رَافِعٌ أُصْبُعَهُ إِلَى السَّمَاءِ ، وَهُوَ يَقُولُ: أَيْنَ الله ؟ قَالَ: فَجَعَلَ ابْنُ عُمَرَ يُرَدِّدُ قَوْلَ الرَّاعِي ، وَهُوَ يَقُولُ: فَأَيْنَ الله ؟ ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ بَعَثَ إِلَى مَوْلاهُ فَاشْتَرَى مِنْهُ الْغَنَمَ وَالرَّاعِي فَأَعْتَقَ الرَّاعِيَ ، وَوَهَبَ لهُ الْغَنَمَ .

* * *

البغي وسوء العاقبة

البغي وسوء العاقبة أمران متلازمان لا ينفكان ، يقول الحق سبحانه: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " (يونس:٢٣) ، ويقول سبحانه: " فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ" (فصلت:١٥- ١٦) ، ويقول سبحانه:" فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ" (الأعراف: ١٦٦) ، وقد قرر أهل العلم أن الله (عز وجل) ينصر الأمة العادلة ولو كانت كافرة ، ولا ينصر الأمة الظالمة الباغية ولو كانت مؤمنة.

والبغي قد يكون بغي أفراد ، وقد يكون بغي جماعات ، وهو من يطلق عليهم " البغاة " ، وقد يكون بغي دول ، وما من شخص أو طائفة أو جماعة بغت وطغت واستعلت وتجبرت إلا أخذها رب العزة (سبحانه وتعالى) أخذ عزيز مقتدر ، يقول الحق سبحانه: " وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ " (هود:١٠٢) ، ويقول (عز وجل) في شأن قارون: " إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ

مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ الله لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ الله الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ الله لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الله قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ الله وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ " (القصص: ٧٦ -٨١) .

وفي قصة صالح عليه السلام مع قومه ، يقول الحق سبحانه: " فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ " (الأعراف: ٧٧ - ٧٩) .

وفي قصة شعيب (عليه السلام) مع قومه يقول رب العزة (سبحانه) في شأنهم لما طغوا وتجبروا: " وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ *

كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ " (هود: ٩٤ ، ٩٥) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ "(متفق عليه) ، فالظلم ظلمات يوم القيامة ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله .

ومن هنا يتأكد أن عاقبة الدول الباغية إلى زوال ، ولله در شاعر النيل حافظ إبراهيم ، حيث يقول في قصيدته الرائعة "مصر تتحدث عن نفسها":

كَم بَغَت دَولَـةٌ عَلَيَّ وَجـارَت
ثُمَّ زالَت وَتِلكَ عُقبى التَعَـدّي
ما رَمـاني رامٍ وَراحَ سَليـمـا
مِن قَديمٍ عِنـايَةُ اللهُ جُنـدي

فالدول التي تقوم على البغي ، والحضارات التي ترسخ للظلم تحمل عوامل هدمها وسقوطها ، بل إن هذا البغي ليعجل بسقوط مدوي وسريع .

والجماعات التي تقوم على الاستعلاء والإقصاء والظلم والبغي وتجاوز الحد في الإجرام كتلك الجماعات التي تتبنى عمليات الانتحار والتفجير والتدمير، وتستحل ذبح الإنسان وحرقه والتمثيل به ، وإذلال البشر ، وبيع الحرائر سبايا ، وهدم الحضارات ، وتخريب العامر ، ونقض البنيان ، وإحراق الأخضر واليابس ، وإهلاك الحرث والنسل ، إنما تحمل عوامل

سقوطها وسر دمارها وهلاكها ، لأن الله (عز وجل) لا يحب الفساد ولا الإفساد ولا المفسدين ، ومن ثمة فإني أبشر بهلاك عاجل لداعش وأخواتها من القاعدة ، وأعداء بيت المقدس ، وبوكوحرام ، وسائر الجماعات الإرهابية والظلامية والمتطرفة والمعوجة ، " وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ " (يوسف: ٢١) .

* * *

أدب الحياة الخاصة

الإسلام دين الفطرة السليمة ، حيث يقول سبحانه:" فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " (الروم: ٣٠) .

ولا شك أن الإسلام قائم على كل ما ينمي الذوق ، ويرسخ القيم الإنسانية السوية ، ويسهم في تكوين الرقي الشخصي والمجتمعي ، وينشر القيم الحضارية ، ويؤدي إلى تأصيلها وتجذيرها في نفوس الناس جميعًا .

ولا شك أن للمرء من حياته ما تعود ، فإذا ما تعود الإنسان على التحضر والرقي فيما بينه وبين نفسه صار ذلك سمة وسجية وطبعًا له فيما بينه وبين الناس ، أما إذا حافظ الإنسان على مظاهر التحضر أمام الناس وخالف ذلك فيما بينه وبين نفسه دخل في باب النفاق النفسي والاجتماعي وما يعرف بانفصام الشخصية ، وربما خانه طبعه وما تعوده من مخالفة الذوق والرقي في خلوته فبدا ظاهرًا جليًّا عفويًّا ، ولو بدون قصد فيما بينه وبين الناس .

ومن هنا كان حرص الإسلام على تعليم الإنسان القيم الراقية وتعويده عليها منذ نعومة أظافره سواء فيما بينه وبين نفسه أم فيما بينه وبين الناس ، وهذا نبينا (صلى الله عليه وسلم) عندما يرى صبيًّا تطيش يده في إناء الطعام، فيعلمه ويوجهه بما يهذب ذوقه وطبعه ، فيقول (صلى الله عليه

وسلم) " يَا غُلَامُ ، سَمِّ اللهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ " (متفق عليه) ، سواء أكان ذلك فيما بينه وبين نفسه أم حال مشاركته الناس طعامهم ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " أَغْلِقُوا الْبَابَ وَأَوْكِئُوا السِّقَاءَ وَأَكْفِئُوا الْإِنَاءَ أَوْ خَمِّرُوا الْإِنَاءَ وَأَطْفِئُوا الْمِصْبَاحَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ غَلَقًا وَلَا يَحِلُّ وِكَاءً وَلَا يَكْشِفُ آنِيَةً " (سنن الترمذي) .

على أن في قوله (صلى الله عليه وسلم): " وَأَطْفِئُوا الْمِصْبَاحَ " ما يشير إشارة واضحة إلى ضرورة ترشيد الطاقة ، وقد نهى (صلى الله عليه وسلم) عن الإسراف سرًّا وعلنًا ، خلوًّا أو مجتمعًا ، مما يؤصل في نفس الإنسان ثقافة الترشيد والبعد عن الإسراف والتبذير .

هذا وقد نجد بعض الناس هاشًّا باشًّا بين الناس بحيث يغبطه من لا يعرف حقيقته ، فإذا ما عاد إلى أهل بيته لبس ثوبًا آخر ، وجلدًا آخر ، وبدا بوجه آخر يتناقض تماما مع ما يعرف به بين الناس من البشاشة وطلاقة الوجه ، بحيث يقف القاعد ويسكت الناطق من أبنائه وأهل بيته خوفًا لا أدبا .

مع تأكيدنا أن الإنسان إذا ما هذب ما بينه وبين نفسه وسيطر عليها طواعية ، مراقبة لله عز وجل واحتراما لذاته كان أكثر سيطرة عليها وأملك لزمامها بين الناس وفي المناسبات العامة ، أما إذا كان غير ذلك فالطبع يغلب التطبع، وليس الجمال كالتجمل ، مما قد يكشف حقيقته ويعرضه لمواقف محرجة فيما لا يحب أحد أن يحرج فيها .

* * *

السلام النفسي

ما أجمل أن يعيش الإنسان في سلام مع نفسه ، وسلام مع أسرته ، وسلام مع عائلته ، وسلام مع جيرانه ، وسلام مع زملائه ، وسلام مع أصدقائه ، وسلام مع المجتمع ، وسلام مع الناس أجمعين ، غير أن هذا السلام لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال نفوس صافية تحكمها ضوابط إيمانية وإنسانية راقية ، من أهمها ، أن يكون للإنسان وجه واحد ظاهره كباطنه ، لا أن يكون من ذوي الوجهين الذين يلقى الواحد منهم هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مِنْ شَرِّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ "(صحيح مسلم).

ومنها أن يكون محبًا للخير للناس أجمعين ، رحيمًا ، ودودًا ، سهلاً ، هينًا ، لينًا ، يألف ويؤلف ، فالمؤمن يألف ويؤلف ، والكافر فظ غليظ لا يألف ولا يؤلف ، والمؤمن مفتاح للخير مغلاق للشر ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ الله مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ الله مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ "(سنن ابن ماجه)، ويقول (صلى الله عليه وسلم):" لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ" (متفق عليه)

، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ" (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ الله، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُه مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"(متفق عليه).

ولا يمكن للإنسان أن يكون في سلام مع نفسه أو مع الآخرين إلا إذا كان منصفًا للآخرين من نفسه يعمل في إطار الحقوق المتكافئة المتبادلة ، ويطبق عن قناعة مبدأ الحق والواجب ، فالعلاقة بين الرجل والمرأة تقوم على الحقوق المتبادلة ، يقول الحق سبحانه: "وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ " (البقرة: ٢٢٨)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " أَلاَ إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، وَلاَ يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، أَلاَ وَإِنَّ حَقَّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ" (سنن الترمذي) .

والعلاقة بين المواطن والدولة ، وبين العامل ورب العمل ، تقوم على الحق والواجب ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) فيما يرويه عن ربه

سبحانه: "قَالَ اللهُ: ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ" (صحيح البخاري) ، أما من غلبت شهوته وأنانيته على إنسانيته فذلك له شأن آخر ، فكما يقولون: ما استحق أن يولد من عاش لنفسه .

وهذا السلام النفسي يقتضي أن يؤمن كل منا بحق الآخر في الحياة الكريمة الآمنة المستقرة ، ويدرك أن هناك قواسم إنسانية مشتركة أجمعت عليها جميع الشرائع السماوية ، يؤدي الالتزام بها والوفاء بمتطلباتها إلى أن تسود الطمأنينة والاستقرار والسلام النفسي والمجتمعي بين الجميع ، ومن هذه المشتركات ما يعرف بالوصايا العشر التي وردت في أواخر سورة الأنعام ، يقول سبحانه:" قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (الأنعام:١٥١ – ١٥٣)، فقد قال سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله

عنهما): هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب ، وهى محرمات على بني آدم جميعاً، وهن أم الكتاب "أي أصله وأساسه " ، من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار.

فلو نظرنا فيما تضمنته هذه الآيات الكريمات من جوانب إنسانية لوجدنا أنها تعد مشتركًا إنسانيًّا بين بني البشـر ، وتسهم في تحقيق أعلى درجات التعايش السلمي فيما بينهم ، حيث تقوم على حرمة قتل النفس أي نفس وكل نفس ، فكل الدماء مصونة ، وكل الأعراض محفوظة ، " وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ " ، ومال اليتيم والضعيف مرعي ومصان ، مع الوصية بالعدل مع القريب والبعيد على حد سواء ، والوفاء بعهد الله مع الجميع المسلم وغير المسلم ، الصديق والعدو ، وإقامة الكيل والميزان بالقسط ، والبعد عن المال الحرام وكل ألوان الاستغلال والتطفيف والغش والخداع ، مما يحقق أعلى درجات الحياة الآمنة في كل جوانبها ، ويحقق للإنسان سلام النفس فيما بينه وبين نفسه ، وبينه وبين مجتمعه ، وبينه وبين الإنسانية ، بل الكون كله .

❊ ❊ ❊

الصديق الذي نبحث عنه

الصديق الذي نبحث عنه هو من قال عنه مصطفى صادق الرافعي (رحمه الله): هو من إذا غاب لم تقل إن أحدًا غاب عنك ولكن تشعر أن جزءًا منك ليس فيك ، فهو قطعة منك ، ليس ذلك الصديق الذي يماسحك كما يماسحك الثعبان ، ويراوغك كما يراوغك الثعلب ، أو يقبع منك كما يقبع القنفذ ، فهؤلاء الأصدقاء لا تجدهم إلا على أطراف مصائبك ، فهم كالذباب لا يقع إلا حيث يكون العسل .

إن الصديق الحق الذي نبحث عنه ، هو من قال عنه الإمام الشافعي (رحمه الله):

إن الصَّديقَ الحقَّ منْ كان مَعَـك

وَمَـنْ يَضُـرُّ نَفْسَـهُ لِيَنْفَعَـك

وَمَـنْ إِذَا رَيْبُ الزَّمَانِ صَدَّعَـك

شَتَّـتَ نَفسَـهُ فِيـكَ لِيَجْمَعَـك

لا كهذا الذي قال عنه الشاعر القاضي العماني أبو سرور حميد بن عبد الله:

مالي أراكَ وأنتَ كنتَ صَديقِي باعَدتَني زمنًا بكل عقُـوق

قَد كنتَ مَن أعْددتُه لنَوائبِــي لَو عَضَّني نابُ الزمَان بضِيــق

أوحى إليكَ بأنَّ دَهْري عَقَّنـي فطفقت أنتَ تعين بالتَّصفِيــق

ومتَى تَبينت الحقيقَة أننِـــــي جَللا حللت بمنْصِبٍ مَرمُـوق

قَد جِئتَني تَسعَى تهنئ بالمنَــى عجبًا لأمركَ في رضًا وعقُــوق

إنَّ المحَبةَ في الفُـؤادِ مكَانهَـــا تَبدُو حقَــائقــهَا مَع التضييـق

وقد قيل لأحدهم: من أصدقاؤك ؟ فقال: لا أعلم ، قيل له: لماذا ؟ قال: لأن الدنيا مقبلةٌ عليّ ، فإن أدبرت عرفت عدوي من صديقي ، لأن أكثر الناس يدورون مع الزمان حيث دار ، فإن كان معك كانوا معك ، وإن كان عليك كانوا عليك ؛ ولذا قالوا: الصديق وقت الضيق، وقال الشاعر:

جَــزَى الله المصَــائبَ كل خَيرٍ عَرفْتُ بهَا عَدُوي من صَدِيقي

وقال آخر:

رَأَيْتُ النَّـاسَ قَد ذَهَبُوا إلَى مَنْ عِنْــدَهُ ذَهَـــب

وَمَنْ لا عِنْدهُ ذَهَــــب فَعَنْـهُ النَّاسُ قَـد ذَهَبُوا

رَأَيْتُ النَّـاسَ مُنْـفَضَّـه إلَى مَنْ عِـنْــدَهُ فِــضَّـه

وَمَنْ لا عِنْــدهُ فِضَّــــه فَعَنْـهُ النَّاسُ مُنْفَـضَّـــه

رَأَيْتُ النَّاسَ قَـدْ مَالُـوا إلَى مَنْ عِنْــدَهُ مَــــال

وَمَنْ لا عِنْــدهُ مَــــال فَعَنْـهُ النَّاسُ قَـدْ مَالُـوا

وقال الآخر:

يُحَيَّا بالسَّلامِ غَنيّ قَــومٍ ويُبخَلُ بالسَّلامِ عَلى الفَقِير

أليْسَ الموتُ بَينهُما سَواء إذا مَاتُوا وصَارُوا في القُبور

إن الصديق مشتق من الصدق ، فهو من يصدقك في السر والعلن ، في البأساء والضراء ، في المنشط والمكره ، من يحب لك ما يحبه لنفسه ، ويكره لك ما يكره لنفسه ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ " (متفق عليه) ، ويقول: (صلى الله عليه وسلم): " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ " (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: إمامٌ عادِلٌ ، وشابٌّ نَشَأَ في عِبادة الله تعالى ، ورَجُلٌ قَلْبُه مُعَلَّقٌ بالمساجد ، ورَجُلانِ تَحَابَّا في الله: اجْتَمَعَا عليه وتَفَرَّقَا عليه ، ورجلٌ دَعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وجَمَالٍ فقال: إِني أَخاف الله ، ورجلٌ تصدَّق بصَدَقَةٍ ، فأَخْفَاهَا حتّى لا تَعْلَمَ شِمَالُه ما تُنْفِقُ يَمِينُه ، ورجلٌ ذكر الله خاليا ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ " (متفق عليه) .

وروي " أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى ، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا ، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ ، قَالَ:

هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي الله عَزَّ وَجَلَّ ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ " (صحيح مسلم) ، وفي الحديث القدسي: "وَجَبَتْ مَحَبتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ" (مسند أحمد)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "الْمُتَحَابُّونَ فِيَّ الله لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَغْبِطُهُمُ الشُّهَدَاءُ" (الحاكم في المستدرك) ، فما أجمل أن تكون العلاقات والصداقات خالصة لوجه الله عز وجل ، قائمة على الحب والمودة والإنسانية والإيثار ، مبنية على المروءة والقيم والأخلاق السوية ، بعيدًا عن كل ألوان الأنانية والنفعية والانتهازية المقيتة .

* * *

مرضاة الله ومرضاة الخلق

مرضاة الله غاية كل مؤمن ، والسعي لها مقصد كل مخلص ، وهي سبيل المتقين ، ومنهج السالكين ، من سعى إليها رزق ، ومن عمل لها أجر وجبر ، ذلك أن ربّ العزة (عز وجل) قد قال في حديثه القدسي: " أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي ، والله للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ " (متفق عليه) .

أما رضا الخلق كلِّ الخلق فغاية لا تدرك ، ومرام لا ينال ، ذلك أن أي إنسان لا يمكن أن يسع الناس كل الناس بماله ، ولا بجاهه ، ولا بسلطانه ، حيث إن مطالب الناس منها ما هو منطقي ومشروع ، ومنها ما ليس منطقيًّا ولا مشروعًا ، ومنها ما هو في الطاقة والإمكانية ، وقابل للاستجابة والتحقيق ، ومنها ما هو فوق الطاقة والإمكانية بالنسبة للأفراد ، وما يحتاج إلى وقت لتنفيذه وفق إمكانات المؤسسات والدول ، غير أن المسئولية الفردية والتضامنية والتكافلية تقتضي أن نعمل معًا على كل المستويات

لقضاء حوائج الناس ، وبها يحقق لهم مقومات الحياة الإنسانية الكريمة ، ويطيب لي أن أسجل الآتي:

١- أن العمل على مرضاة الناس وتحقيق رضاهم فيما هو قانوني ومشروع طريق واسع إلى مرضاة الله (عزّ وجلّ) ، فمن يسَّر على معسر يسَّر الله عليه ، ومن فرج عن إنسان كربة فرج الله (عزّ وجلّ) عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر إنسانًا ستره الله في الدنيا والآخرة ، ومن مشى في حاجة إنسان حتى يقضيها كان الله في حاجته ، فعن سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) قال: سمعت صاحب هذا القبر والعهد به قريب - يعني نبينا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) - يقول: " مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ وَبَلَغَ فِيهَا كَانَ خَيْرًا لَهُ مِنَ اعْتِكَافِ عَشْرِ سِنِينَ ، وَمَنِ اعْتَكَفَ يَوْمًا ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله جَعَلَ الله بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ ثَلاثَةَ خَنَادِقَ ، أَبْعَدُ مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ" (الطبراني في المعجم الأوسط).

٢- أن العاقل الحكيم لا يعمل على مرضاة الناس بمعصية رب العباد ومخالفة أوامره ونواهيه ، كأن تكون مرضاة الخلق على حساب الحق والعدل والقانون ، وكما قالوا: أنت صديقي والحق صديقي ، فإن اختلفنا فالحق أولى بالصداقة ، فمن طلب رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس ، ومن طلب رضا الله بإكرام الناس ، وحسن معاملتهم دون شطط أو تجاوز ، أو مخالفة شرعية أو قانونية رضي الله عنه ، وأرضى عنه

الناس ، ذلك أن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها ويوجهها كيف يشاء .

٣- أننا مأمورون بالتوازن بين أمريّ الدنيا والآخرة ، فيجب علينا أن نعمل على عمارة الكون ، وبناء الحضارة ، وأن نعمل بالتوازي لأمر آخرتنا، وهذا سيدنا سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) يقول: كَانَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) يَعُودُنِي وَأَنَا مَرِيضٌ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ: لِي مَالٌ، أُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟ قَالَ: (لاَ) قُلْتُ: فَالشَّطْرِ؟ قَالَ: (لاَ) قُلْتُ: فَالثُّلُثِ؟ قَالَ: "الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ ، إِنَّكَ إِنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ، وَلَعَلَّ الله يَرْفَعُكَ ، يَنْتَفِعُ بِكَ نَاسٌ ، وَيُضَرُّ بِكَ آخَرُونَ" (متفق عليه) ، وفي الأثر: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا .

٤- لقد آثرت التعبير في جانب رضا الله (عز وجل) بلفظ "مرضاة" لأن زيادة المبنى زيادة في المعنى ، وعلى المؤمن الصادق أن يطلب في جانب مرضاة رب العزة أعلى درجات الرضا ، ويكون ذلك بالعمل على تحقيق أعلى درجات التقوى، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى :"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" (آل عمران: ١٠٢).

أما في جانب الخلـق فقـد آثرت التعبـير بكلمة (رضا) وهي أن أقــل الصيغ مبنى أقلها معنى ، ذلك أنك لو اجتهدت في إدراك أدنى درجات رضا الخلق جميعًا فلن تدرك ، مالم يشملك رب العزة بعنايته ورعايته ، فيفتح لك من قلوب العباد ما أراد ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه مخاطبًا سيد الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله عليه وسلم) : "وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (الأنفال: ٦٣) ، فيجب أن نعمل على رضا الخلق بمرضاة الخالق لا بغضبه ولا بمخالفة أمره .

* * *

مفهـوم الاحتـرام

الاحترام ليس شعارًا ، إنما هو منتهى العفة في اللسان ، والترفع في السلوك ، والوفاء في العهد والوعد ، والإسراع في رد الجميل ، ومقابلة الإحسان بمثله بل بأفضل منه ، حيث يقول الحق سبحانه: " وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا " (النساء: ٨٦) ، ويقول (عز وجل): " وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ " (فصلت: ٣٤-٣٥).

إنه الترفع عن الصغائر والدنايا ، واجتناب كل ما يخل بالمروءة والكرامة، سواء في مطعم ، أم في ملبس ، أم في مجلس ، أم في ولوج مواطن الشبهات .

إنه الصدق في القول ، والرحمة في غير ضعف ، والتواضع في غير ذل ، والقوة في الحق ، بلا تردد وبلا تجاوز ولا عنف ، والصفح والحلم عند المقدرة ، والتجاوز عن المعسر ، وإنظار الموسر .

إنه التحلي بالإيثار لا الاتصاف بالأثرة أو الأنانية ، إنه البعد عن كل ما يشين من الحمق والطيش والنزق ، والاستغلال ، والاحتكار ، والغش ، والتدليس ، والظلم ، والإفك ، والافتراء ، والبهتان .

إنه الاعتراف بحق الآخرين ، وحب الخير لهم ، وحسن الإنصات إليهم، وعدم الاستهانة بهم ، أو التقليل من شأنهم .

إنـه وضـع الشيء في موضعـه من احترام الكبيـر ، ورحمـة الصغـير ، وإنزال العلماء والعظماء منازلهم ، حيث يقول سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم):" لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا" (سنن الترمذي) ، ولما رأى (صلى الله عليه وسلم) سيدنا سعد بن معاذ (رضي الله عنه): قال للأنصار: "قوموا إلى سيدكم" (متفق عليه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): " إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه " (المعجم الكبير للطبراني)، ولما تولى سيدنا أبو موسى الأشعري (رضي الله عنه) ولاية الكوفة جعل يفتح أبوابه للناس جميعًا ، فكانت العامة والدهماء تسارع إلى مجلسه ، حتى إذا جاء العلماء والقراء وشيوخ القبائل ورءوس الناس لم يجدوا لهم موضعًا فينصرفوا ، فكتبوا إلى سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بذلك ، فكتب إلى سيدنا أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه): ما هكذا أبا موسى يكون الفقه ، إذا فتحت بابك فائذن للعلماء والقراء ورءوس الناس ، فإذا أخذوا أماكنهم فاسمح لعامة الناس .

وإذا كان الاحترام مطلوبا على كل حـال ومن كل فئـة ، فإنه في مجـال العلم وبين أهل العلم ألزم وأوجب .

غير أنا مما ابتلينا به في زماننا هذا تجرؤ الجهلاء على العلماء ، والدهماء على العظماء ، والرويبضة على أهل العلم والفكر ، حتى صار بعض الناس يتخذون من مرشديهم غير المؤهلين رءوسًا جهالا فيستفتون فيفتون بغير علم فيضلون ويضلون .

وقد عد العقلاء من طامة الدهر ومصائبه وابتلاءاته انقلاب الأحوال ووضع الأمور في غير نصابها ، حتى قال أحدهم:

مَتَى تَصِلُ العِطاشُ إِلى ارْتِـوَاء
إِذَا اسْتَقَتِ البِحَارُ مِنْ الرَّكَايَا؟!
وإِنَّ تَرَفُّـعَ الوُضُـعَاءِ يَوْمـا
عَلَى الرُّفَعَـاءِ مِنْ أدهى الرَّزَايـا
إِذَا اسْتَـوَت الأَسَافِلُ والأَعَـالي
فَقَدْ طَـابَتْ مُنَادَمَةُ المنَـايَا

وقد سئل الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله تعالى): كم يكفي الرجل من الحديث حتى يمكنه أن يفتي؟ أيكفيه مائة ألف حديث ؟ قال: لا ، قيل: مائتا ألف ؟ قال: لا ، قيل: ثلاثمائة ألف ؟ قال: لا ، قيل: أربعمائة ألف ؟ قال: لا ، قيل: خمسمائة ألف ؟ قال: أرجو ، أي أرجو أن يكفيه ، وكان ابن دقيق العيد (رحمه الله تعالى) يقول:

يقُولونَ هَـذا عِندَنا غيرُ جَـــائـز

ومنْ أنتمُ حتى يكونَ لكم عِنْد؟

ويقول الآخر في تجرؤ الجهلاء على العلم والفتوى:

فحُقَّ لأهْـلِ العِـلْم أن يتمثَّلـوا

ببيتٍ قديمٍ شاعَ في كلِّ مجـــلس

لقـــد هُزِلَت حتى بدا من هُزالها

كُلاها وحتى سامها كل مُفلس

* * *

أزمة الأخلاق والقيم

الاعتراف بالأزمة أول طرق حلها ، والسؤال الذي يطرح نفسه: هل نحن أمة الأخلاق حقًّا تنظيرًا وتطبيقًا ؟ وهل نحن على الطريق الصحيح في ذلك ؟ وهل نحن على مستوى موروثنا الحضاري وخلفياتنا الثقافية ؟ أو أن مجتمعاتنا تتعرض لموجات حادة تعمل على زلزلة القيم المتأصلة في أعماق مجتمعاتنا ؟.

أما من جهة التنظير فربما لا يماري أحد أننا أمة الأخلاق والقيم ، وأن رسالة نبينا (صلى الله عليه وسلم) مبنية على مكارم الأخلاق ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ " (مسند البزار) ، وفي رواية: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ حُسْنَ الأَخْلاَقِ" (موطأ مالك) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ "(صحيح مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا " (سنن الترمذي) ، ولما سئل (صلى الله عليه وسلم): ما أكثر ما يدخل الجنة ؟ قال (صلى الله عليه وسلم): " أَكْثَرَ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ تَقْوَى الله وَحُسْنُ الْخُلُقِ" (مسند أحمد) .

ومن يراجـع ثقافتنـا المصـرية منذ القـدم ما دُوِّن منـها على البرديـات ومـا سجل على الحفريات يدرك أننا أمة الأخلاق والقيم ، ومن يرجع بالذاكرة لعدة عقود مضت يجد عراقة وأصالة ونبلاً .

وقد عُرف العربي حتى في جاهليتـه بالنبـل ، والشهـامة ، والنخـوة ، والمروءة ، والكرم ، والوفاء ، والحمية للأرض والعرض .

وجاء الإسلام فأكد على هذه القيم النبيلة وعمل على ترسيخها وتزكيتها وتوجيهها اتجاهًا أكثر صفاءً ونقاءً ، فخلَّص صفات الكرم والنخوة والمروءة مما علق بها من المفاخرة والمباهاة إلى ابتغاء وجه الله وصالح الإنسان، لتتغير من المباهاة والمفاخرة والمن والأذى ، واقتصارها على أكابر الناس دون مساكينهم إلى شمولها وعمومها وإخلاص النية فيها لله (عز وجل) ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:" وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا " (الإنسان: ٨-١٢) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "بِئْسَ الطَّعَامُ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ، يُدْعَى إِلَيْهِ الْأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ الْمَسَاكِينُ" (صحيح مسلم) .

لكننا للأسف أخذنا نلحظ جانبًا من الانحراف عن مستوى السلوك القويم ، فصار البعض ينحرف عن جادة الطريق ، وأخذنا نرى بعض السلوكيات الغريبة على قيمنا ومجتمعاتنا وحضارتنا وثقافتنا الرصينة ، مما يجعلنا في حاجة ماسة إلى أن نعود إلى ديننا وأخلاقنا وقيمنا ، فما أحوجنا إلى صحوة ضمير محفوفة ومحفوظة بالإيمان بالله (عزّ وجلّ) ، والخوف منه ، وحسن مراقبته سبحانه وتعالى ، حيث يقول (عزّ وجلّ): "وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" (البقرة: ٢٨١) ، ويقول سبحانه: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " (المجادلة: ٧) .

* * *

تأملات في آية الدَّيْنِ

لقد حرص القرآن الكريم على حماية الحقوق الإنسانية بصفة عامة ، والحقوق المالية بصفة خاصة ، وليس غريبًا أن تكون أطول آية في القرآن الكريم – المعروفة بآية الدَّيْن – تدور حول حماية الحقوق وصيانتها وحفظها وتوثيقها ، حيث يوجهنا القرآن الكريم إلى كتابة الدين وتوثيقه صغيرًا كان أو كبيرًا إلى أجله المسمى ، حيث يقول سبحانه: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ " (البقرة: ٢٨٢)، وعلى أن يكتب الكاتب بالعدل ، حيث يقول سبحانه: " وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ "، والتعبير بلفظ " بَيْنَكُمْ " يأتي تأكيدًا على أن يكون الكاتب على مسافة واحدة من الدائن والمدين ، دون أي ميل أو انحراف تجاه أحدهما على حساب الآخر ، وأن يكون الكاتب في منطقة وسط بين الطرفين.

ثم يقول سبحانه: "وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ الله فَلْيَكْتُبْ" ، أي فليكتب وفق ما علمه الله وما شرعه الله ، مؤديًّا زكاة علمه الذي علمه الله إياه ، أو فليكتب وفق ما علمه الله ، مؤديًّا شكر ما علمه الله إياه ، فزكاة كل شيء إنما تكون من جنسه .

ويقول سبحانه:" وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ "، تثبيتًا وتحقيقًا لأمر الديَّن وقيمته ووصفه ، " وَلْيَتَّقِ الله رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا "، أي ولا يبخس منه شيئًا لا في الإملاء ، ولا في الأداء ، ولا في الوفاء ، " فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ " ، فالعدل مطلوب ومؤكد عليه دائمًا من الأصيل أو الوكيل ، من الدائن أو وليّه ، من الكاتب أو الشاهد ،" وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا" ، رجالا كانوا أم نساءً .

كما أن المستحب هو كتابة الدَّين صغيرًا كان أو كبيرًا ، مع تقديم الصغير على الكبير للاهتمام به ، وعدم التفريط في الحق ، أو إهمال التوثيق صغر الديَّن أم كبر ، " وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ الله وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " (البقرة: ٢٨٢).

وهنا موطنٌ فريدٌ من مواطن البلاغة ، حيث عبر النص القرآني بكلمة لا يحل محلها غيرها ، ولا يدانيها في دلالتها أي لفظ آخر في أي لغة من اللغات ، وهو لفظ " يُضَارَّ " في قوله تعالى: "وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ" ، حيث قرئ بالفك والكسر" ولا يضارِرْ " ، وبالفك والفتح "ولا يضارَرْ " ، وبِنْيَة الفعل " يُضَآرَّ" الصرفية تسمح بالقراءتين ، وهو بذلك يحمل معاني عديدة ، فلا يضارر الدائن الكاتب ولا الشهيد ، ولا يضارِرْ المدين الكاتب ولا الشهيد ، ولا يضارر الكاتب أو الشهيد الدائن أو المدين ، فليكتب هذا بالعدل ، وليشهد هذا بالحق ، ولا يضار الكاتب بكتابته ، ولا الشهيد بشهادته ، وهذه المعاني مجتمعة لا يمكن أن يحمل دلالاتها كلها أي لفظ آخر ، لا في العربية ولا في غيرها سوى هذا اللفظ الذي عبر به القرآن الكريم في قوله (عز وجل): " وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ".

وهذا وجه من وجوه إعجاز هذا الكتاب العزيز ، الذي يهجم عليك الحسن منه دفعة واحدة ، فلا تدري أجاءك الحسن من جهة لفظه أم من جهة معناه ، إذ لا تكاد الألفاظ تصل إلى الآذان حتى تكون المعاني قد وصلت إلى القلوب .

* * *

□

الجمال الحقيقي والصداق الحقيقي

الجمال الحقيقي هو جمال الجوهر ، وجمال النفس ، وجمال الروح ، وجمال الخلق ، وجمال العقل ، فإذا انضم إلى هذا الجمال جمال المظهر ، فما أجمل الإنسان إذا سرك مظهره ومخبره معًا ، غير أن جمال النفس ومظهرها وسموها هو المقدم وهو الأعلى قيمة ، والأبعد أثرًا ، وعليه مدار التفاضل الحقيقي ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ الله لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ " (صحيح مسلم).

ويقول أديب العربية الكبير مصطفى صادق الرافعي في مقال له تحت عنوان " في فلسفة المهر": إن خير النساء من كانت على جمال وجهها في أخلاق كجمال وجهها وكان عقلها جمالاً ثالثًا ، فهذه إن أصابت الرجل الكفء يسرت عليه ، ثم يسرت ، ثم يسرت ؛ إذ تعتبر نفسها إنسانا يريد إنسانًا ، لا متاعا يطلب شاريًا ، وهذه لا يكون رخص القيمة في مهرها ، إلا دليلاً على ارتفاع القيمة في عقلها ودينها .

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ ودِينَهُ فَزَوِّجُوهُ ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ" (سنن ابن ماجه)، فقد اشترط النبي (صلى الله عليه وسلم) الدين على أن يكون مرضيًّا لا أي الدين كان ، والخلق على أن يكون مرضيًّا لا أي الخلق كان ، وقال

(صلى الله عليه وسلم): " تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا ، وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا ، وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ " (متفق عليه) .

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا الدين والخلق أولا؟ وقبل جمال الشكل والمظهر ، والإجابة أن الجوهر قبل المظهر، وأن الجمال أمر نسبي وقابل للتغيير أو الزوال ، أما الدين والخلق فهما المعدن الأصيل الذي لا يصدأ أبدًا.

فماذا لو كان الاختيار على أساس الجمال فحسب ، والجمال أمر نسبي وما تراه جميلاً اليوم ربما لا تراه جميلاً غدًا ، وماذا لو رأى الشاب بعد ذلك امرأة أجمل أو رأت المرأة شابًّا أجمل منه ؟ بل ماذا لو عرض لهذا الجمال ما يذهبه أو يشوهه ؛ كأن تعرضت الزوجة أو الزوج أو الفتى الوسيم لحادث أو لمرض أذهب جماله وبهاءه فكيف تكون الحياة آنذاك ؟ وهي قد بنيت أصلا على الجمال الظاهري لا غير .

أما الدين والخلق فهما المعدن النفيس الذي يتجدد بتجدد الأيام ، فحتى لو ذهب المال أو ذهب الجمال فإنما يبقى الدين والخلق ، فصاحب الدين والخلق إن أحب زوجه أكرمها ، وإن أبغضها لم يبخسها حقها ، حتى صداق المرأة الحقيقي فهو ليس ما يقدم إليها من مال أو ذهب أو صداق ، إنما هو ما تجده من حسن المعاملة ، يقول الرافعي: الصداق الحقيقي ليس ذلك المال الذي يُدفع إلى المرأة وهي في بيت أبيها قبل أن تذهب إلى بيت زوجها ، صداقها الحقيقي معاملتها التي تجدها في بيت زوجها بعد أن تُحمل

إلى داره ؛ مهرها معاملتها ، تأخذ منه يومًا فيومًا ، فلا تزال بذلك عروسًا على نفس زوجها ما دامت الحياة بينهما .

أما ذلك الصداق من الذهب والفضة ، فهو صداق العروس الداخلة على الجسم لا على النفس ؛ أفلا تراه كالجسم يهلك ويبلى ؟ أفلا ترى هذه الغالية - إن لم تجد النفس في رَجُلها - قد تكون عروس اليوم ومطلقة الغد؟! ، وما الصداق في قليله وكثيره إلا كالإيماء إلى الرجولة وقدرتها ، فهو إيماء ، ولكن الرجل قبْل .

إن كل امرئ يستطيع أن يحمل سيفًا ، والسيف إيماء إلى القوة ، غير أنه ليس كل ذوي السيوف سواء ، وقد يحمل الجبان في كل يد سيفًا ويملك في داره مائة سيف ، فهو إيماء ، ولكن البطل قبْلُ ، ولكن البطل قبْلُ .

إذن فالقضية ليست في الشكل فحسب ، إنما هي في المعنى والمضمون ، وليس الجمال الحقيقي هو جمال المظهر ، إنما هو جمال الجوهر ، وليس الصداق الحقيقي هو المال والذهب ، إنما هو في الدين والخلق وحسن المعاملة .

* * *

الخسران المبين

لاشك أن الخسران المبين إنما هو لمن خسر الدنيا والآخرة ، حيث يقول سبحانه: " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الله عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ" (الحج: ١١) .

فالخسران المبين هو المعادل اللغوي ، والموضوع الأنسب والأدق لمن خسر دنياه وآخرته ، والأدهى والأمرّ أن يخسر الإنسان دنياه وآخرته جهلاً وحمقًا وسفهًا وزيفًا وضلالاً ، وهو يحسب أنه ممن يحسنون صنعا ، حيث يقول الحق سبحانه في سورة الكهف: " قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا" (الكهف: ١٠٣-١٠٤)، وحيث يقول سبحانه في سورة الأعراف: "فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الله وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ " (الأعراف: ٣٠).

على أن هؤلاء الشياطين من الإنس والجن هم أول وأسرع من يتبرأون من أتباعهم يوم القيامة ، حيث يقول الحق سبحانه في سورة إبراهيم (عليه السلام):" وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا

أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " (إبراهيم:٢٢) ، ويقول سبحانه: " وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" (الأنعام:١٢٨،١٢٩) ، ويقول سبحانه: " فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ " (غافر: ٤٧،٤٨) .

وعلى الجملة فإن الذين اتُّبِعُوا سيتبرأون من الذين اتَّبعوهم ، حيث يقول الحق سبحانه:" إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ" (البقرة: ١٦٦،١٦٧) ، وساعتها سيندم هؤلاء المتبعون مما أصابهم جراء اتباعهم الأعمى ، وانسياقهم خلف شياطين الإنس والجن ، ووقوعهم في شراكهم ، حيث يصور القرآن الكريم حال النادمين حيث لا ينفع الندم ، فيقول سبحانه:" وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا " (الفرقان: ٢٧-٢٩).

وأي خسران أشد ممن يسفكون دماء الآمنين بغير حق ، بما لا يقر به دين ولا عقل ولا إنسانية ، لأن جميع الأديان تجمع على حرمة الدماء والأموال والأعراض ، حيث يقول الحق سبحانه: "مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ" (المائدة:٣٢)، ويقول سبحانه: " وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ الله عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا " (النساء: ٩٣) ، ويقول سبحانه:" وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ الله مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ الله عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا " (النساء: ٩٤) ، وحيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا " (صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَمَا هُنَّ قَالَ الشِّرْكُ بالله وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ" (صحيح مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "أَلَا إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، وَكَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا، وَكَحُرْمَةِ بَلَدِكُمْ هَذَا " (مسند أحمد) .

* * *

عاقبة الشذوذ والانحراف

لا شك أن لله تعالى سننًا جارية في كونه وخلقه " فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَحْوِيلًا " (فاطر:٤٣) ، ومن هذه السنن أن الأمم التي بغت وطغت وتجبرت وخرجت على سنن الله الكونية وفطرته السوية كان عاقبة أمرها خُسرا ، سواء أكان الخروج على سنن الله تجبرًا وتكبرًا واستعلاءً على نحو ما كان من فرعون وهامان وقارون وعاد وثمود وأصحاب الرَّسِّ، أم كان فسادًا أو إفسادًا ، أو أكلاً لأموال الناس بالباطل، أم تطفيفًا للكيل والميزان على نحو ما كان من أصحاب الأيكة قوم شعيب (عليه السلام) ، الذين قال لهم نبيهم:" أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ " (الشعراء: ١٨١-١٨٣) ، فلم ينتهوا ولم يستجيبوا كما حكى عنهم القرآن الكريم في سورة الشعراء نفسها ، فقال سبحانه: " فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ " (الشعراء: ١٨٩) ، وكقوم صالح ، الذين قال لهم نبيهم: "فَاتَّقُوا الله وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ "(الشعراء:١٥٠-١٥٢)، فطغوا وتجبروا ولم يستجيبوا، وعقروا الناقة ، على نحو ما ذكره الحق سبحانه وتعالى: " فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا

وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ" (هود:٦٥ ، ٦٦) ، أو كشواذ قوم لوط الذين خرقوا سنن الله الكونية ، قال تعالى: " فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " (الروم:٣٠) ، ويقول سبحانه: " وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا " (الطلاق: ٨ ، ٩).

لقد تحدث القرآن الكريم عن شذوذ قوم لوط في مواطن عديدة لتسليط الضوء على سلوكهم غير الإنساني الذي أطلق عليه القرآن الكريم "الفاحشة " بالتعريف بالألف واللام ، ولم يقل " فاحشة "، وكأن فعلتهم قد صارت علمًا على الفاحشة ، بحيث تتلاشى إلى جانبها أي فاحشة أخرى، حيث يقص علينا القرآن الكريم ما كان من سيدنا لوط (عليه السلام) مع قومه ، فيقول سبحانه:" وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ" (الأعراف: ٨٠ – ٨٢) .

وفي سورة العنكبوت ترتفع نغمة التحدي لدى هؤلاء الشواذ لنبي الله لوط (عليه السلام) إلى درجة طلبهم منه أن يأتيهم بعذاب الله إن كان من

الصادقين ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه:" وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ" (العنكبوت: ٢٨-٣٠) .

وفي اللحظات الحاسمة التي يبلغ شواذ قوم لوط فيها ذروة التحدي بمحاولة التعدي على ضيوف سيدنا لوط (عليه السلام) الذين كانوا في واقع أمرهم رسل الله الذين أرسلهم لإخراج سيدنا لوط وأهله إلا امرأته من هذه القرية الظالم الفاسق الشاذ أهلها ، إيذانًا بدنو ساعة إهلاك الظالمين منهم جزاء فجورهم وشذوذهم ، يصور لنا القرآن الكريم هذا الحوار ، حيث يقول الحق سبحانه: " وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ " (هود: ٦٩ ، ٧٠).

وفي قلب المحن والألم تكون الحياة والأمل " وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى" (الأنعام: ١٦٤) ، حيث يقول الحق سبحانه عن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) في ثنايا الحديث عن إرسال الرسل لإهلاك شواذ قوم لوط: "وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ *

قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله رَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ" (هود: ٧١-٧٣) ، ثم يقول الحق سبحانه: " فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ " (هود: ٧٤-٧٦).

لقد انتهى الحوار ودنت ساعة الحساب ، وهنا ينتقل النص القرآني إلى الحوار بين سيدنا لوط وشواذ قومه من جهة ، وبين سيدنا لوط ورسل الله (عز وجل) من جهة أخرى ، بما يؤكد انطماس فطرة الشواذ وعمى بصيرتهم ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه:" وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا الله وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ"(هود: ٧٧-٨٠) ، وهنا تحدث الرسل:" قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا

حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ" (هود: ٨١-٨٣) .

إنها لعاقبة تحمل العديد من العظات والعبر لمن يعتبر ، فقد أرسل الله (عز وجل) سيدنا جبريل (عليه السلام) ليقلب قرى قوم لوط رأسًا على عقب ، "جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا" وليس هذا فحسب ، فقد أرسل رب العزة عليهم حجارة قوية صلبة متتابعة من سجيل ، وعلى كل حجر منها اسم من أرسل إليه لإهلاكه ، وجدير بنا أن نتأمل هذا التعقيب في قوله تعالى: " وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ" ، ليعتبر بذلك المعتبرون في كل زمان ومكان ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ ، وَأَعُوذُ بالله أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا ، إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ ، وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا" (سنن ابن ماجه) ، ويقول الحق سبحانه: " إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ والله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ " (النور: ١٩) ، ومن ثم يجب الاعتبار بحال من سبق من الأمم .

* * *

□

المواجهة الشاملة للمخدرات

كما أننا في مواجهة شاملة وحاسمة مع الإرهاب فإننا في حاجة ماسة أيضًا وعاجلة إلى مواجهة شاملة وحاسمة مع إرهاب آخر لا يقل خطورة وضراوة واستهدافا للمجتمع وشبابه - من استهداف المجتمع وشبابه بالفكر المتطرف - وهو إرهاب الإدمان والمخدرات ، فإفشال الدول ، أو إسقاطها ، أو إضعافها ، أو تفتيت كيانها بشتى السبل هو الغاية المرجوة لأعدائنا ، فإذا وجدوا في بعض شبابنا ميلا للتطرف والغلو عملوا على استقطابهم وتجنيدهم من خلال الجماعات المتطرفة ودعاة الفكر المتطرف ، ومن وجدوا فيه ميلاً للانحلال والتسيب حاولوا اجتذابه من خلال ما يناسب طبيعته ومزاجه ، سواء من جهة جره إلى جانب الإلحاد أو الإدمان أو الشذوذ ، بما يؤدي إلى تفسخ المجتمع وانحلاله وضياع شبابه .

وقد تطور الأمر في الاستهداف ، فرأينا الجماعة المتطرفة المتاجرة بالدين المتخذة منه ستارًا للمخادعة تتجه وبقوة إلى زراعة المخدرات وتجارتها لتغطية عملياتها الإرهابية وتجنيد عناصر جديدة تابعة لها من جهة ، وإفساد عقول شبابنا وإخراجهم من معادلة الصمود والمواجهة من جهة أخرى.

والمواجهة الشاملة تعني المواجهة الحاسمة لزراعة المخدرات ، وتجارها على اختلاف درجاتهم ومستوياتهم ، من أصغر مستخدَم في التوزيع إلى أكبر تاجر أو ممول ، مع تغليظ العقوبات بما يتناسب مع فظاعة الجرم ، وتكثيف برامج التوعية وتوفير العلاج المناسب للراغبين في الإقلاع عن التعاطي ، ورعايتهم علاجيًّا ونفسيًّا وفكريًّا ، مع تكثيف التوعية دينيًّا وثقافيًّا وإعلاميًّا ، من خلال وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة ، وكذلك الأنشطة الثقافية والشبابية ، وبخاصة المحاضرات الثقافية العامة بالمدارس والجامعات .

والذي لا شك فيه أن الخمر أم الخبائث ، لأن الإنسان إذا شرب الخمر سكر، وإذا سكر هذي ، فربما قتل، أو سرق، أو ارتكب الحماقات ، وأيضًا الخمر مخلة بالمروءة ، لذا رأينا بعض العرب في جاهليتهم يهجرونها ولا يتناولونها ، ويرونها مذهبة للمروءة مسقطة لها ، فقد حرّم أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) الخمر على نفسه ، فلم يشربها في الجاهليّة ولا الإسلام ، وذلك أنّه مرَّ برجل سكران يضع يده في العذرة ويدنّيها من فيه ، فإذا وجد ريحها صرف عنها ، فقال: إنّ هذا لا يدري ما يصنع فحرّمها "، وكان أبو هريرة (رضي الله عنه) يقول:" من زنى أو شرب الخمر نزع الله منه الإيمان كما يخلع الإنسان القميص من رأسه" ، وكان الحسن البصري (رحمه الله)

يقول: " لو كان العقل يشترى لتغالى النّاس في ثمنه ، فالعجب ممّن يشتري بماله ما يفسده".

على أن الإسـلام قد شدد في النهي عن شـرب الخمر أو حتى مجرد الاقتراب من مجالسها ، فقال الحق سبحانه:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ * وَأَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ" (المائدة: ٩٠-٩٢) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَقْعُدْ عَلَى مَائِدَةٍ يُشْرَبُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ " (مسند أحمد) .

وتشديدًا في النكير على كل من اقترب من الخمر متعاطيًا ، أو بائعًا ، أو صانعًا ، قال نبينا (صلى الله عليه وسلم): " لَعَنَ الله الْخَمْرَ وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا ، وَمُبْتَاعَهَا ، وَعَاصِرَهَا ، وَمُعْتَصِرَهَا ، وَحَامِلَهَا ، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ" (سنن أبي داود) .

إن العبرة في الحكم هي حدوث الإسكار ، فكل مسكر خمر ، وما أسكر كثيره فقليله حرام ، على أن الأمر لا يقاس على من فسدت طبيعتهم من

كثرة السكر ، إنما يقاس بأصحاب النفوس الصافية التي لم تلوث بالتعاطي أو الإدمان .

* * *

□

التـــواضـــــع

التواضع خلق رفيع من شيم الصالحين وصفات المؤمنين ؛ حيث يقول سبحانه: "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا"(الفرقان: ٦٣) ، فجعل الله تعالى أول صفات عباد الرحمن التواضعَ ولينَ الجانب وخفضَ الجناح ، ويقول سبحانه وتعالى لنبينا (صلى الله عليه وسلم): "وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" (الشعراء: ٢١٥) ، ويقول سبحانه ممتنًا على نبيه (صلى الله عليه وسلم): "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" (آل عمران: ١٥٩) ، ويقول سبحانه على لسان لقمان (عليه السلام) في وصيته لابنه: "وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ " (لقمان: ١٨) ، ويقول سبحانه: "وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا" (الإسراء: ٣٧) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "وَإِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ" (صحيح مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم):"مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ

مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ رَجُلًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ" (صحيح مسلم) ، وسئلت السيدة عائشة (رضي الله عنها) ما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يصنع في بيته ؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله – تعني خدمة أهله– فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة (صحيح البخاري).

وكما حثَّ ديننا الحنيف على التواضع نهى عن الكبر وحذر منه ومن سوء عاقبته ، حيث يقول الحق سبحانه: " وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ"(الزمر: ٦٠) ، ويقول سبحانه: " وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ " (الأعراف: ٤٨) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ – قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ – وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ " (صحيح مسلم) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "يقول الله (عز وجل): " قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِزَّةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، أُلْقِهِ فِي النَّارِ"(أخرجه أحمد)، وقال (صلى الله عليه وسلم): "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ"(صحيح مسلم) ،

وقال (صلى الله عليه وسلم): " أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ، أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلُّ عُتُلٍّ، جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ " (متفق عليه)، وقال (صلى الله عليه وسلم): " احْتَجَّتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ الْجَنَّةُ: يَا رَبِّ، مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا فُقَرَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟ وَقَالَتِ النَّارُ: يَا رَبِّ مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ؟ فَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَقَالَ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا.." (صحيح مسلم).

ومن سنن الله الكونية قَصْمُ الجبارين والمتجبرين سنة كونية سواء أكانوا أفرادًا أم أممًا ، فقارون عندما استعلى بماله قصمه الله وخسف به وبداره وبماله الأرض ، حيث يقول الحق سبحانه في كتابه العزيز: " إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا

يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِّ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ " (القصص: ٧٦-٨١) .

وقوم عاد لما عتوا عن أمر ربهم وغرتهم قوتهم وقالوا: من أشد منا قوة، أخذهم الله (عز وجل) بريح صرصر في أيام نحسات ، فقطع دابرهم أجمعين ، حيث يقول الحق سبحانه: " فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَّ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآَيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ "(فصلت: ١٥-١٦) .

والكبر والاستعلاء من أخص صفات إبليس الذي أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقال معاندًا رب العزة (عز وجل) عندما أمره بالسجود لآدم: "أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا"(الإسراء:٦١) ، وقال كما حكى القرآن الكريم على لسانه : "أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ" (الأعراف: ١٢) ، ونسي أن ما فاخر به لو كان سبيلا للتفاخر فإنه محض مِنَّةٍ ممَّن أمره بالسجود ، فهو الذي خلقه من نار وخلق آدم من طين .

والكبر قد يكون بالجاه والسلطان والنفوذ ، وقد يكون بالمال ، وقد يكون بالعلم ، وقد يكون بالجمال ، وقد يكون بالأحساب والأنساب ، وكله مذموم ممقوت ، إذ لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا أحمر على أسود إلا

بالتقوى ، وإن أكرم الناس عند الله أتقاهم ، وإن الله (عز وجل) لا ينظر إلى صورنا ولا إلى أموالنا ، إنما ينظر إلى قلوبنا ، وجزاء الكبر الكبُّ في جهنم ولبئس المصير ، يقول الحق سبحانه: " فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ" (النحل: ٢٩) ، فكما أن الصالحين تفتح لهم أبواب الجنة جميعًا ، فإن المتكبرين يتقلبون في أبواب جهنم ، لأن الله (عز وجل) يقول: "ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ" ولم يقل سبحانه: ادخلوا باب جهنم .

ويقول سبحانه: " وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ" (الزمر: ٦٠) ، وعن جابر (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) قال: "إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: "الْمُتَكَبِّرُونَ"(سنن الترمذي)، وعن ثوبان (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم): "مَنْ مَاتَ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنَ الْكِبْرِ، وَالْغُلُولِ، وَالدَّيْنِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ"(السنن الكبرى).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) قال: "بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ، يَمْشِي فِي بُرْدَيْهِ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، فَخَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" (صحيح مسلم) ، وعن سلمة

بن الأكوع (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم): " لاَ يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الجَبَّارِينَ فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ" (سنن الترمذي) ، وعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: "من تواضع لله تخشّعا رفعه الله يوم القيامة ، ومن تطاول تعظّما وضعه الله يوم القيامة " ، وعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أنّه رأى رجلا يختال في مشيته ويجرّ إزاره ، فقال: " إنّ للشّيطان إخوانا ".

وقال الأحنف بن قيس: " عجبا لابن آدم يتكبّر وقد خرج من مجرى البول مرّتين " ، وقال وهب بن منبّه: " لمّا خلق الله جنّة عدن نظر إليها فقال: أنت حرامٌ على كلّ متكبّر " ، وعن عبد الله بن هبيرة أنّ سلمان سُئل عن السّيّئة الّتي لا تنفع معها حسنة؟ قال: " الكبر" ، وقال أحد العلماء: "التّواضع في الخَلق كلّهم حسن وفي الأغنياء أحسن ، والتّكبّر في الخَلق كلّهم قبيح وفي الفقراء أقبح " .

كما نرى أثر الكبر والغرور في قصة صاحب الجنتين بسورة الكهف ، حيث يقول الحق سبحانه في شأنه: "وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا" (الكهف: ٣٥-٣٦) ، فلما جحد واستكبر كانت العاقبة زوال النعمة عنه ، حيث يقول الحق سبحانه " وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ

بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِّ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا "
(الكهف: ٤٢-٤٣) .

* * *

الرفق خيرٌ كله

الإسلام دين الرحمة والرفق ، دين الحلم والصفح ، دين التراحم والتكافل، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ اللهَّ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ"(صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ" (صحيح مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "من أُعْطِيَ حَظَّهُ من الرِّفْقِ فقد أُعْطِيَ حَظَّهُ من الخيرِ، ومن حُرِمَ حَظَّهُ من الرِّفْقِ فقد حُرِمَ حَظَّهُ من الخيرِ" (سنن الترمذي) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) لأشج عبد القيس وكان سيد قومه: "إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالأَنَاةُ"(صحيح مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا" (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولنْ يشادَّ الدِّينُ أحدٌ إلاَّ غَلَبه، فسدِّدُوا وقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، واسْتعِينُوا بِالْغدْوةِ والرَّوْحةِ وشَيْءٍ مِن الدُّلْجَةِ" (صحيح البخاري) .

وقد كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) القدوة والمثل والأنموذج في النبل والرحمة والرفق ، يعطي من حرمه ، ويصل من قطعه ، ويعفو عمن ظلمه ،

ويحسن إلى من أساء إليه، وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: " مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهَّ، فَيَنْتَقِمَ للهَّ بِهَا" (متفق عليه) ، ويقول رب العزة سبحانه واصفا إياه (صلى الله عليه وسلم): "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ الله لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ"(آل عمران:١٥٩) ، ويقول سبحانه: "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ"(التوبة: ١٢٨)، ويقول سبحانه: "وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ"(الحجرات:٧) ، ويقول أنس بن مالك (رضي الله عنه) في وصف رفق رسول الله ولينه: "إن كَانَتِ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ، لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ" (صحيح البخاري) ، ولما رأى الأقرع بن حابس النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) يقبّل الحسن والحسين قال له مستغربا: أَتُقَبِّلُونَ صِبْيَانَكُمْ ؟

فَمَا نُقَبِّلُهُمْ ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ الله مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ" (صحيح البخاري) .

ويقول (صلى الله عليه وسلم): " أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ" (سنن الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "مَا رُزِقَ أَهْلُ بَيْتٍ الرِّفْقَ إِلَّا نَفَعَهُمْ وَلَا صُرِفَ عَنْهُمْ إِلَّا ضَرَّهُمْ " (شعب الإيمان) ، و عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " يَا عَائِشَةُ، ارْفُقِي، فَإِنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا، دَلَّهُمْ عَلَى بَابِ الرِّفْقِ " (مسند أحمد).

* * *

فضل السعي إلى المساجد وعمارتها

مكانة المساجد في الإسلام عظيمة ، يقول الحق سبحانه:" إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا الله فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ" (التوبة: ١٨)، لذا كان أول ما بدأ به النبي (صلى الله عليه وسلم) عندما هاجر من مكة إلى المدينة هو تأسيس المسجد النبوي الشريف ، واختار له المكان الذي بركت فيه ناقته (صلى الله عليه وسلم) فاشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه، وأسهم في بنائه بنفسه ، "فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين بركَت به راحلتُه: هذا – إن شاء الله – المنزلُ . ثمَّ دَعَا رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغُلاَمَيْنِ فَسَاوَمَهُمَا بِالْمِرْبَدِ، لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، فَقَالاَ: لاَ، بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللهَّ، فَأَبَى رَسُولُ اللهَّ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا.. "(صحيح البخاري).

وقد وصف الله تعالى عباده المؤمنين الذين يسعون إلى المساجد بالرجال فقال سبحانه:" فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ الله

أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ واللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ " (النور: ٣٦ -٣٨)، وفي ثواب السعي إلى المساجد يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "منْ غدَا إِلَى المَسْجِدِ أَوْ رَاحَ، أعدَّ الله لَهُ في الجنَّةِ نُزُلاً كُلَّما غَدا أَوْ رَاحَ" (متفق عليه)، وهو من أكثر الأعمال التي يمحو الله بها الخطايا ويرفع بها الدرجات يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو الله بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟" قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله! قَالَ: "إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ علَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَساجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَذلِكُمُ الرِّبَاطُ" (صحيح مسلم)

وعمارة المساجد تكون مبنى ومعنى، مبنى: ببنائها، ونظافتها، وطهارتها، والاهتمام بها، ففي الصحيحين أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ الله بَنَى الله لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ"(متفق عليه)، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه):"أنَّ امرأةً سوداءَ كانت تَقُمُّ المسجدَ (أو شابًّا) ففقدها رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) فسأل عنها (أو عنه) فقالوا: مات قال: أفلا كنتُم آذَنْتُموني قال: فكأنهم صَغَّروا أمرَها فقال: دُلُّوني على قبرِها، فدَلُّوه، فصلَّى عليها ثم قال: إنَّ هذه القبورَ مملوءةٌ ظُلمةً على أهلِها وإنَّ الله (عز وجل) يُنوِّرُها لهم بصلاتي عليهم"(صحيح مسلم)

ومعنى: بالذكر، والصلاة، وقراءة القرآن، ومدارسة العلم، حيث

يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم):"مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ" (صحيح مسلم)، وعنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ(رضي الله عنه) قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ، فَقَالَ: "أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ، ولا قَطْعِ رَحِمٍ؟"، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: " أفلا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ، أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ الله (عز وجل) ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإبل"(صحيح مسلم)

❊ ❊ ❊

من فضائل الصلاة

الصلاة عماد الدين ، وهي صلة بين العبد وخالقه ، وقد خصها رب العزة (سبحانه وتعالى) بأن فرضها من فوق سبع سماوات ، وجعلها خمسًا في العمل وخمسين في الأجر ، من حافظ عليها كانت له نورًا وضياء وبرهانًا يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا ضياء ولا برهان يوم القيامة ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "الطَّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ -أَوْ: تَمْلَأُ- مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَك أَوْ عَلَيْك، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا " (صحيح مسلم).

وقد خصها ربنا (عز وجل) بكثير من الفضل والفضائل ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنْ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ" (صحيح مسلم).

وعن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: سألت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أي الأعمال أفضل ؟ قال: "الصلاة على وقتها " ، قلت: ثم أي ؟ قال: "بر الوالدين" ، قلت: ثم أي ؟ قال: "الجهاد في سبيل الله" (متفق

عليه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): " الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُمَا إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ " (صحيح مسلم) .

ويزداد هذا الفضل لمن يؤدي الصلاة في جماعة ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "صَلاَةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلاَةَ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً" (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ " (صحيح مسلم) .

وأعظم من هذا كله شمول رب العزة لمن كان قلبه معلقًا بالمساجد بظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ: إمامٌ عادِلٌ، وشابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهَّ تَعالى، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالمَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا في اللهَّ: اجتَمَعا عَلَيهِ، وتَفَرَّقَا عَلَيهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ، وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخافُ اللهَّ، ورَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فأَخْفَاها، حتَّى لا تَعْلَمَ شِمالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينهُ، ورَجُلٌ ذَكَرَ اللهَّ خالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ" (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " منْ غدَا إِلَى المَسْجِدِ أَوْ رَاحَ ، أعدَّ الله لَهُ في الجنَّةِ نُزُلاً كُلَّما غَدا أوْ رَاحَ" (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " لَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي

صَلَاةٍ مَا دَامَتْ الصَّلَاةُ تَحْبِسُهُ لَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْقَلِبَ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا الصَّلَاةُ" (صحيح مسلم).

ثم إن الله تعالى يختص قوَّام الليل بمزيد فضله وجزيل ثوابه ، حيث يقول الحق سبحانه: "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ" (الذاريات: ١٥-١٩)، ويقول سبحانه في شأن قوام الليل وجزائهم: "تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (السجدة: ١٦-١٧) ، وعن عائشة (رَضي اللهَّ عنها) أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) كَان يقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حتَّى تتَفطَرَ قَدمَاهُ، فَقُلْتُ لَهُ، لِمْ تصنعُ هَذَا يَا رسولَ الله، وقدْ غفرَ اللهَّ لَكَ مَا تقدَّمَ مِنْ ذَنبِكَ وَمَا تأَخَّرَ؟ قَالَ :أَفَلاَ أُحِبُّ أَنْ أكُونَ عبْداً شكُوراً؟" (صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ " (شعب الإيمان) ، فقيام الليل شرف وعز في الدنيا ونور وفلاح في الآخرة.

* * *

أبــواب الــرجــاء

أبواب الرجاء واسعة سعة السماوات والأرض ، فقد فتح رب العزة سبحانه وتعالى باب الأمل واسعًا أمام خلقه أجمعين ، وكان سيدنا علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) يقول: قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى من قوله تعالى: "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِّ إِنَّ اللهَّ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" (الزمر: ٥٣) ، وقد قال بعض أهل العلم: إذا كان هذا خطاب الحق سبحانه لمن أسرفوا على أنفسهم فما بالكم بعباده المتقين المحسنين ؟ ، ويقول سبحانه: "وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ"(الحجر: ٥٦) ، ويقول سبحانه: "إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِّ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ" (يوسف: ٨٧) ، ويقول سبحانه على لسان مؤمن آل فرعون: "فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِّ إِنَّ اللهَّ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوَقَاهُ اللهُّ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ " (غافر: ٤٤) ، وعن عبادة بن الصامت (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " قَالَ رَسُولُ اللهَّ - صلى الله عليه وسلم- " مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُّ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهَّ وَابْنُ أَمَتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللهُّ مِنْ أَىِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ

الثَّمَانِيَةِ شَاءَ " (متفق عليه) ، وعن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): يقول الله (عز وجل): "يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مَثَلُهَا، أَوْ أَعْفُو، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا" (صحيح مسلم) ، وَعن أَنسٍ (رضي الله عنه) أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) -وَمُعَاذٌ رِدِيفُهُ عَلى الرَّحْلِ- قَالَ: يَا مُعاذُ ، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ، قالَ: يَا مُعَاذُ، قالَ: لَبَّيكَ يا رَسُول الله وَسَعْدَيْكَ، قالَ: يَا مُعَاذُ، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ، ثَلاثًا، قالَ: مَا مِن عَبدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إله إِلَّا الله ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ الله عَلَى النَّارِ، قالَ: يَا رَسُولَ الله، أَفَلا أُخْبِرُ بِها النَّاسَ فيَستبشِروا؟ قال: إِذًا يَتَّكِلُوا، فَأَخْبرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْد مَوْتِهِ تَأَثُّمًا " (متفق عليه) .

وكما فتح سبحانه باب الرحمة واسعًا لعباده فتح لهم باب الأمل والرجاء في الرزق والولد والصحة ، يقول سبحانه:" وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ"(الأنبياء: ٨٩) ، ويقول سبحانه: "وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ " (الأنبياء: ٨٣،٨٤)،

ويقول سبحانه:" أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِّ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ "(النمل: ٦٢) ، ومن رحمة الله (عز وجل) بعباده أن فتح لهم باب الدعاء وجعله سلاح المؤمن ؛ فالدعاء ليس سلاح الضعفاء كما يتوهم البعض ، بل إنه سلاح الأقوياء الآخذين بالأسباب ، المؤمنين بأن الأسباب لا تؤدي إلى النتائج بطبيعتها ، إنما برحمة الله تعالى وعونه وسداده وإرادته وتوفيقه ، يقول الحق سبحانه: "وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ " (غافر:٦٠) ، ويقول سبحانه: " وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ "(البقرة: ١٨٦). ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم):" مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو الله بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ بها إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يعجل لَهُ دَعْوَتَهُ ، وإمّا أن يَدَّخِرَها لَهُ في الآخرة ، وإمّا أن يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا). قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ . قَالَ: (الله أَكْثَرُ)"(مسند أحمد) ، وسمع نبينا (صلى الله عليه وسلم) رجلا يقول: اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّكَ أَنْتَ الله لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): " لَقَدْ سَأَلْتَ الله بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ" (مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ لله مَلَكًا مُوَكَّلا بِمَنْ يَقُولُ: يَا أَرْحَمَ

الرَّاحِمِينَ، فَمَنْ قَالَهَا ثَلاثًا قَالَ الْمَلَكُ: إِنَّ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكَ فَاسْأَلْ" (المستدرك للحاكم).

وقال أحد الحكماء: عجبت لمن ابتلي بالمرض كيف يغفل عن دعوة أيوب (عليه السلام): " أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ " (الأنبياء: ٨٣) ، ومن ابتلي بالضيق كيف يغفل عن دعوة يونس (عليه السلام) " لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ " (الأنبياء: ٨٧) ، وعجبتُ لمن ابتُلي بخوفٍ كيف يغفل عن قول الله (عز وجل): " حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ " (آل عمران: ١٧٣) ، وعجبتُ لمن ابتُلي بمكرِ الناس كيف يغفل عن قوله تعالى: " وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ " (غافر: ٤٤).

وهذه دعوة إبراهيم (عليه السلام) لولده نرى بركتها إلى يوم القيامة ، حيث دعا ربه (عز وجل) فقال:" رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ" (إبراهيم: ٣٧) ، وحيث دعا ربه (عز وجل) فقال:" رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ " (إبراهيم: ٣٥) ، وقال :" وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ

فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ " (البقرة:١٢٦) ، فاستجاب له ربه فجعل البلد آمنا والحرم آمنا والقلوب تهوي إليه من كل حدب وصوب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وهذا نبي الله يوسف (عليه السلام) يدعو ربه فيقول: " قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ " (يوسف:٣٣) ، فيستجيب الله تعالى له: "فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ "(يوسف:٣٤) .

وهـــذا نبي الله أيوب (عليه السلام) يدعو ربه فيقـول:" أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ " (الأنبياء: ٨٣) ، فتأتيه الإجابة: " فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ " (الأنبياء: ٨٤) .

وهذا نبي الله زكريا (عليه السلام) يدعو ربه فيقول: " رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا " (مريم:٤-٦)، فيستجيب له ربه (عز وجل) فيقول: " فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ" (الأنبياء: ٩٠).

فما أحوجنا إلى الدعاء المصحوب بالأمل لا باليأس ، ولا بالإحباط ، ولا بالقنوط من رحمة الله (عز وجل) ، وإذا أردنا استجابة للدعاء فإن لذلك شروطًا وآدابًا ، من أهمها: الإيمان ، وحسن الظن بالله تعالى، وطيب المطعم والمشرب والملبس ، فلما سأل سيدنا سعد بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَسُولَ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله ، ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ ، قَالَ لَهُ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ):" يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّبَا فَالنَّارُ أَوْلَى بِه" (المعجم الأوسط للطبراني) .

ففي كل ذلك ما يفتح أبواب الأمل والرجاء في سعة رحمة الله (عز وجل) بعباده ، سواء بقضاء حوائجهم في الدنيا أم بسعة فضله وعفوه ورحمته بهم يوم القيامة ، فلا ييأسْ مريض من مرضه ، ولا فقير من فقره ، فأمر الواحد الأحد بين الكاف والنون ، إذا أراد أمرًا كان ، حيث يقول سبحانه: " إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ " (يس: ٨٢) .

❊ ❊ ❊

الغـني الشـــاكــر

المال نعمة من نعم الله ، وشكره نعمة أخرى من نعمه سبحانه ، وقد قال أحد الصالحين: كلما أنعم الله (عز وجل) عليَّ بنعمة ثم وفقني لشكرها أدركت أن الشكر نعمة جديدة تحتاج إلى شكر جديد ، فبالشكر تزيد النعم ، يقول الحق سبحانه: "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ"(إبراهيم: ٧) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ ، قَالَ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلِمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللهُ عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ"(سنن الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا " (متفق عليه) .

فشكر المال يكون في أداء حق الله فيه ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ، عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي

مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ للهَّ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهَّ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ "(سنن الترمذي)

ومما يؤكد أن المال بحقه وحله نعمة من نعم الله وفضل منه سبحانه يؤتيه من يشاء ، قول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهَّ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهَّ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا "(متفق عليه).

مما جعل بعض العلماء يقررون أن حال الغني الشاكر خير من حال الفقير الصابر ؛ لأن ديننا دين العمل والإتقان.. دين الأخذ بالأسباب وعمارة الكون وصناعة الحضارة ، ولا يكون ذلك إلا بأمة قوية في اقتصادها وسائر جوانب حياتها ، بدليل أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) قد أكد لنا أن "اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى" فَاليَدُ العُلْيَا: هِيَ المُنْفِقَةُ، وَالسُّفْلَى: هِيَ السَّائِلَةُ.(متفق عليه).

على أننا نؤكد أن شكر النعمة إنما يكون من جنسها ، فشكر الغنى هو الإنفاق في سبيل الله ؛ فالشكر عمل وليس قولا فقط ؛ حيث يقول الحق سبحانه: " اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ" (سبأ: ١٣).

* * *

الأم وحقها

إذا كان ديننا الحنيف قد أولى المرأة اهتمامًا خاصًّا: أما ، وبنتًا ، وأختًا ، وزوجًا ، وخالة، وعمة ، وأوصى بكل النساء خيرًا ، وأنصف المرأة أيما إنصاف ، وخلصها من أغلال الجاهلية وظلمها ، حيث كان الأمر قد وصل بأهل الجاهلية إلى وأد بناتهم أحياء ، إذ يقول الحق سبحانه: "وإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ " (النحل: ٥٨-٥٩) ، فإن الإسلام قد أولى الأم ما تستحق من العناية والتكريم ، فعندما سأل رجل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: يا رسول الله ، من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ ، قال: "أمك" قال: ثم من ؟ قال: "أمك" ، قال: ثم من؟ قال: "أمك" ، قال: ثم من ؟ قال: " أبوك " (متفق عليه).

وعن السيدة عائشة (رضي الله عنها) قالت: سألت النبي (صلى الله عليه وسلم) أي الناس أعظم حقا على المرأة ؟ قال: (زَوْجُهَا) ، قلت: فأي الناس أعظم حقًّا على الرجل ؟ قال: (أُمُّهُ) . (المستدرك للحاكم)، وعَنْ مُعَاوِيَةَ السُّلَمِيِّ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ، إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، قَالَ: (وَيْحَكَ ، أَحَيَّةٌ أُمُّكَ؟) قُلْتُ: نَعَمْ ، قَالَ: (ارْجِعْ فَبِرَّهَا) ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنَ الْجَانِبِ

الْآخَرِ ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ، إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ، قَالَ: (وَيْحَكَ ، أَحَيَّةٌ أُمُّكَ؟) قُلْتُ: نَعَمْ، يَا رَسُولَ الله، قَالَ: (فَارْجِعْ إِلَيْهَا فَبِرَّهَا)، ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنْ أَمَامِهِ ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ، إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ، أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، قَالَ: (وَيْحَكَ، أَحَيَّةٌ أُمُّكَ؟) قُلْتُ: نَعَمْ ، يَا رَسُولَ الله ، قَالَ: (وَيْحَكَ، الْزَمْ رِجْلَهَا، فَثَمَّ الْجَنَّةُ)(سنن ابن ماجه) ، وعَنْ ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله ، إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ؟ قَالَ: (هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟) ، قَالَ: لاَ ، قَالَ: (هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟) ، قَالَ: نَعَمْ ، قَالَ: (فَبِرَّهَا) (سنن الترمذي) ، فإذا كان هذا فضل من يبر خالته فما بالكم بمن يبر أمه ؟

وعندما جاء وفد من أهل اليمن على سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) سألهم: أفيكم أويس بن عامرٍ ؟ حتى أتى على أويسٍ ، فقال: أنت أويس بن عامرٍ ؟ قال: نعم، قال: من مرادٍ ، ثم من قرنٍ ؟ قال: نعم ، قال: فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهمٍ؟ قال: نعم ، قال: لك والدة؟ قال: نعم ، قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، يقول: (يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ ، إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله

لَأَبَرَّهُ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ) ، فاستغفِرْ لِي، فاستغفر له ، فقال له سيدنا عمر (رضي الله عنه): أين تريد؟ قال: الكوفة ، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غبراء الناس أحبُّ إليَّ...(صحيح مسلم) ، ففي كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) إشارة إلى أن استجابة الله (عز وجل) لدعائه كان بسبب بره أمه .

على أنه لا ينبغي أن يقف إكرام الأم عند يوم بعينه وإن كان ذلك رمز وفاء وتذكير بحقها ، فحق الأم عظيم يتمثل في ضرورة إكرامها وتعهدها بالرعاية بداية من الكلمة الطيبة، وانتهاء بكل ما تحتاج إليه بما يعينها على شئون حياتها بعزة وكرامة ، فعندما قال رجل يا رسول الله إن أبي يريد أن يجتاح مالي قال له (صلى الله عليه وسلم):"أَنْتَ، وَمَالُكَ لِأَبِيكَ"(مسند أحمد) ، وإذا كان ذلك في شأن الأب فما بالكم بحق الأم التي قدمها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في حديثه الشريف على الأب ثلاث مرات ، ناهيك عن نهي القرآن الكريم عن التعرض لها بما يمس شعورها ولو كان مجرد نفَسٍ تلمح منه شيئًا من أدنى درجات التأفف حيث يقول الحق سبحانه: "وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا"(الإسراء: ٢٣) .

فإن لم تكن الأم أحق بالوفاء فمن يكون إذًا ؟ مَن يكون أحق بالوفاء ممن حَملتك في بَطنهَا تِسْعَة أشهر كَأَنَّهَا تسع حجج ، وكابدت عِنْد وضعك مَا يذيب المهج ، وأرضعتك من ثديها لَبَنًا ، وغسلت بِيَمِينِهَا عَنْك الْأَذَى ، وآثرتك على نَفسهَا بالغذاء ، وِإن أَصَابَك مرض أَو شكاية أظهرت من الأسف فَوق النِّهَايَة ، وَلَو خُيرتْ بَين حياتك وموتها ، لاختارت حياتك بِأَعْلَى صَوتهَا ، من أحق بالبر ممن أوصى ربنا سبحانه وتعالى بها في قوله (عز وجل): "وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا"(الأحقاف:١٥).

* * *

□

مقـــام العبودية

مقام العبودية هو مقام الصفاء والنقاء ، وكيف لا يكون كذلك وهو مقام التسليم والخضوع والانقياد المطلق لله (عز وجل) ،، وحسن الاعتماد والتوكل عليه ، والاطمئنان بما عنده ، بأن يكون الإنسان بما عند الله (عز وجل) أوثق منه بما في يده ، مرتكنا إلى قوله تعالى: " أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ" (الزمر: ٣٦) وقوله تعالى: " وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ " (الطلاق: ٢) ، وقوله تعالى: "وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا"(الطلاق: ٤) ، وقوله تعالى: " وَمَنْ يَتَّقِ الله يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا"(الطلاق: ٥) ، وقوله تعالى: " نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ" (فصلت: ٣١).

ولما كان مقام العبودية أشرف المقامات اختار نبينا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) أن يكون عبدًا رسولا لا ملكًا رسولا ، وكان تشريفه (صلى الله عليه وسلم) بهذا المقام في أعظم رحلة في تاريخ البشرية رحلة الإسراء والمعراج ، حيث يقول رب العزة في كتابه العزيز: " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آَيَاتِنَا إِنَّه هُوَ

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ "(الإسراء: ١) ، ويقول سبحانه: " ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى* فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى"(النجم: ١٠)، وفي إضافة العبودية إلى ضمير العظمة تشريف وتكريم للحبيب (صلى الله عليه وسلم) ، فهو عبد الله ورسوله ، واقتصر هنا على مقام العبودية لأنها أشرف مقامات العبد بين يدي ربه .

ثم إن مقام العبودية هو مقام النبيين والمرسلين والصالحين والمخلصين ، يقول الحق سبحانه في شأن سيدنا أيوب (عليه السلام): "إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ" (ص: ٤٤) ، ويقول سبحانه: "وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ" (ص: ٤٥ – ٤٧)، ويقول سبحانه: "ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا" (مريم: ٢) ، ويقول سبحانه في شأن الخضر (عليه السلام): "فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا" (الكهف: ٦٥) .

وإذا كانت الرسالات قد ختمت ببعثة الهادي البشير محمد (صلى الله عليه وسلم) فإن مقام العبودية يظل باب رحمة واسعة لعباد الله المخلصين إلى يوم القيامة .

على أننا يجب أن نعي الفرق بين العبادة والعبودية ، فالأولى أخص والثانية أعم، العبودية هي أن تكون سائر حركاتك وسكناتك لله (عز وجل) ، فقد كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، ولما سألته أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها): يا رسول الله أتصنعُ هذا ، وقد غُفِرَ لك ما تقدم مِن ذنبِك وما تأخر ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "يا عائشةُ أفلا أكون عبدًا شكورا" (متفق عليه).

وقد قال بعض العارفين: من ادعى العبودية وله مراد باقٍ فهو كاذب في دعواه ، إنما تصح العبودية لمن أفنى مراداته وقام بمراد سيده ، فلمقام العبودية من التعبد والخضوع ، والتذلل والخشوع ، ورفع الأيدي وسفح الدموع بين يدي عالم السر والنجوى وكاشف الضر والبلوى ، أحوال تدرك ولا توصف ، وأسرار لا يباح بها ، فالعبودية هي مقام الأصفياء لا الأدعياء.

* * *

السكن والمودة

السكن والمودة عملية لا يمكن أن تتم من طرف واحد، وقد قالوا:

مَتَى يَبْلُغُ الْبُنْيَانُ يَوْمًا تَمَامَهُ

إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدِمُ

فالحياة أخذ وعطاء ، أو قل عطاء متبادل ، وليست أخذًا فقط .

السكن والمودة مطلوبان في حياتنا كلها وعلاقاتنا كلها ، غير أن الحديث عن السكن والرحمة التي تحمل في طياتها كل معاني المودة وزيادة ، جاء في سياق الحديث عن بناء الأسرة المستقرة ، حيث يقول الحق سبحانه:" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (الروم: ٢١) ، ويقول سبحانه: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ"(النساء: ١)، فقد سمى القرآن الكريم المرأة زوجًا للرجل ولم ترد بلفظ زوجة في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، وكأن القرآن الكريم قد اتخذ من التكافؤ اللغوي واللفظي إشارة ودلالة على التكافؤ المعنوي، حيث يقول سبحانه: " هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ" (البقرة: ١٨٧) ، ويقول سبحانه" وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ"(البقرة: ٢٢٨) ، ويقول سبحانه" لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ" (النساء:

٣٢) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) في خطبته الجامعة في حجة الوداع" أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا "(سنن الترمذي) .

فالأمر قائم على السكن والمودة والرحمة والحقوق والواجبات المتبادلة ، بعيدًا عن كل ألوان الغلبة والاستعلاء ، فالحياة الزوجية لا يمكن أن تستقر في أجواء الغلبة والاستعلاء والقهر ، إنما تستقر في أجواء التقدير والاحترام المتبادل ، وإذا كان ديننا الحنيف قد احترم آدمية الإنسان وكرامة الإنسانية فقال سبحانه: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ"(الإسراء: ٧٠) ، حاثًا بذلك على إكرام الإنسان لآدميته كونه إنسانًا ، فكيف لا يكرم كل زوج من ذكر أو أنثى زوجه الذي اختاره الله له معينًا في مسيرة حياته.

وقد بين لنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) أن خير الناس خيرهم لأهله ، فلماذا لا تكون الكلمة الأفضل والأحسن والأرحم والأجمل هي المفردة السائدة في حياة الناس الزوجية ، بل الأسرية ، بل المجتمعية ، بل الإنسانية؟، وقد بين الحق سبحانه الفارق الكبير بين الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة فقال سبحانه:" أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ الله

الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ" (إبراهيم: ٢٤،٢٥).

ما أحوجنا إلى الدفء الأسري والتراحم الأسري والكلمة الطيبة داخل الأسرة، ومراعاة كل من الزوجين شعور الآخر في كل كلماته وحركاته وسكناته، بما ينعكس إيجابًا على الجو الأسري بصفة عامة وسلوك وحياة وتنشئة أبنائنا بصفة خاصة، فصحة الأبناء النفسية وسلوكهم المجتمعي مرتبطان إلى حد كبير بجو الأسرة وحالها من المودة والوئام ، أو الفرقة والشقاق ، وهم أمانة في أيدي الأبوين ، وكل منا مسئول عن رعيته حفظ أم ضيع يقول نبينا صلى الله عليه وسلم:" أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"(متفق عليه) .

* * *

□

صفات عباد الرحمن

لقد بين الحق سبحانه صفات عباده المخلصين في كتابه العزيز في سورة الفرقان فجعل أول صفة فيها: التواضع والحلم وضبط النفس ، فقال سبحانه "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا"(الفرقان: ٦٣) ، فهم لا يقابلون السيئة بالسيئة فضلا عن كونهم لا يبدأون بالسيئة أصلاً ، بل يقابلون السيئة بالحسنة ، ويعفون ويصفحون ، حيث يقول الحق سبحانه:" وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ " (فصلت:٣٤، ٣٥).

وتبرز دقة النص القرآني وعظمة بلاغته في قوله تعالى:" وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ" فنفى المساواة ليس بين الحسنة والسيئة ، وإلا لجاء التعبير ولا تستوى الحسنة والسيئة ، إنما هو نفي للمساواة بين الحسنة والحسنة والسيئة والسيئة ، فالحسنات درجات وكذلك السيئات ، والعاقل من يأتي من الحسنات أعلاها ، ويجتنب السيئات كلها أدناها وأعلاها ، ولذا وجه عباد الرحمن أن يقولوا التي هي أحسن ، فقال سبحانه " وَقُل لِّعِبَادِي

يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"(الإسراء: ٥٣) فلو كان الإنسان بين اختيار لفظين عليه أن يختار أكثرهما حسنًا وليس الحسن فحسب .

ومن صفاتهم: الإخبات لله (عز وجل) وابتغاء رضاه ، فهم يبيتون لربهم سجداً وقيامًا ، شكراً لنعمه ، ووفاءً بحقه ، رغبًا ورهبًا ، يسألونه سبحانه أن يصرف عنهم عذاب جهنم ، "إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا"(الفرقان:٦٥، ٦٦)، ثم تأتي صفة الوسطية في الإنفاق لتكون أنموذجًا للوسطية في الحياة كلها ، حيث يقول الحق سبحانه: " وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا"(الفرقان: ٦٧) ، ويقول سبحانه:" وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا"(الإسراء: ٢٩) ، فاللوم والحسرة لازمتان من لوازم الإسراف ولوازم التقتير على حد سواء ، بل قل إنهما لازمتان من لوازم الخروج على الوسطية في كل شيء ، وقد قالوا: "حب التناهي شطط ... خير الأمور الوسط" ، وقالوا: "لكل شيء طرفان ووسط ، فإن أنت أخذت بأحد الطرفين مال الآخر ، وإن أنت أمسكت بالوسط استقام لك الطرفان" ، وكان الإمام الأوزاعي (رحمه الله) يقول: "ما أمر الله (عز وجل) في الإسلام بأمر إلا حاول الشيطان أن يأتيك من إحدى جهتين ، لا يبالي أيهما أصاب ، الإفراط أو التفريط ، الغلو أو التقصير".

ومن أخص صفات عباد الرحمن: البعد عن الولوغ في الدماء ، أو سفكها، أو ترويع الآمنين ، أو ارتكاب الموبقات ، حيث يقول الحق سبحانه: " وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا" (الفرقان:٦٨، ٦٩) فقتل النفس من المهلكات، حيث يقول الحق سبحانه: " أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا" (المائدة: ٣٢) .

وإذا كان النص القرآني قد بين لنا أن جزاء من يقتل النفس بغير حق أو فساد في الأرض عذاب عظيم ، وكأنه قتل الناس جميعًا ، فإنه قد بين لنا أيضًا الثواب العظيم المترتب على عملية إحياء النفس ، وكأن من أحياها إنما أحيا الناس جميعًا ، وإذا كان الإحياء بمعناه اللغوي الحقيقي هو أمر لله وحده ، إذ لا يزعم أحد أنه يمكن أن يحيي النفس على سبيل الحقيقة ، إنما هو معنى مجازي ، فالمراد إذن: من عمل على بقاء النفس حية بكف يد القتل والإرهاب عنها ، وغلها عن سفك الدماء سواء أكان ذلك من خلال المواجهة العسكرية أم الشرطية أم الفكرية أم الثقافية أم الدينية ، ويشمل كذلك من هيأ لها أسباب الحياة إطعامًا أو علاجًا أو سكنًا أو إيواء أو إعداد

مرافق عامة كتوفير شربة ماء نقية وطرق معبدة ميسرة تقلل نسب الحوادث وإهلاك الأنفس ، فكأنه أحيا الناس جميعًا .

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا "(صحيح البخاري)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ بِالدِّمَاءِ" (صحيح البخاري)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الأُمُورِ، الَّتِي لاَ مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا، سَفْكَ الدَّمِ الحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ "(صحيح البخاري موقوفًا) ، ونظر (صلى الله عليه وسلم) إلى الكعبة فقال: " مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللهِ مِنْكِ "(سنن الترمذي) وزتد ابن ماجه" مَالِهِ، وَدَمِهِ، وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا".

❋ ❋ ❋

□

أوقــات رفـع الأعمــال

لقد اقتضت حكمة الله (عز وجل) أن يفضل بعض النبيين على بعض ، وأن يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس ، وأن يتخذ من عباده شهداء ، ويجتبي منهم أهلين ومخلصين ، وأن يخص بعض الأزمنة والأمكنة بمزيد من الفضل ، على أننا ندرك أن فضل أي من الزمان أو المكان إنما يرجع إلى تفضيل الله له وما اختصه به ، فلا تكون العبادة للزمان نفسه أو للمكان نفسه ، إنما هي لرب الزمان والمكان والعباد جميعًا .

ومن فضل الله على عباده أن قرن أوقات رفع الأعمال إليه سبحانه بأوقات الطاعات ، وبلحظات مباركات ، فثمة رفع يومي ، وآخر أسبوعي، وحصاد سنوي ، أما الرفع اليومي فيبينه حديث نبينا (صلى الله عليه وسلم): "يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ " (متفق عليه)، وهذان الوقتان وقت صلاة الفجر ووقت صلاة العصر أولاهما الشرع الحنيف عناية خاصة ، بقوله تعالى: "وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا "(الإسراء: ٧٨) ، ويقول

سبحانه: " حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للهِّ قَانِتِينَ" (البقرة: ٢٣٨) ، فقد ذكر كثير من المفسرين أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ" (متفق عليه) ، والبردان هما صلاة الفجر وصلاة العصر ، وأطلق لفظ البردين عليهما على سبيل التغليب كالعمرين على أبي بكر وعمر ، والقمرين على الشمس والقمر ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، يعني: الفجر والعصر "(صحيح مسلم) .

وأما الرفع اليومي فيكون ليلة الجمعة عشية كل خميس ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ كُلَّ خَمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ فَلَا يُقْبَلُ عَمَلُ قَاطِعِ رَحِمٍ "(مسند أحمد)، وهذا الرفع أيضًا مرتبط بيوم يستحب صيامه وهو يوم الخميس وليلة مباركة هي ليلة الجمعة .

وأما الحصاد السنوي فهو في هذا الشهر الذي نعيشه شهر شعبان ، حيث كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يكثر من الصيام في شعبان فلما سئل عن ذلك ، قال: " ذَاكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ "(مسند أحمد).

غير أنه ينبغي على المؤمن أن يظل على حذر من أمر الخاتمة ، ذلك أن من قبض على شيء بعث عليه، ولا يدري الإنسان متى يقضى أجله ، ولا على أي شيء يقبض ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ثُمَّ يَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ثُمَّ يَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا "(مسند أحمد) ، ولهذا كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يُكْثِرُ من قوله: " يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ"(سنن الترمذي)، فقالت له عائشة: إنك تكثر أن تقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك وطاعتك فقال (صلى الله عليه وسلم): " وَمَا يُؤْمِنُنِي وَقُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ. إِذَا أَرَادَ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَ عَبْدٍ قَلَّبَهُ" (مسند أبي يعلى).

* * *

دائرة الحب الإلهي

هناك أناس يحبهم الله سبحانه وتعالى ويحبونه وهم أهل محبته مما يدلنا على عظيم فعلهم ، وجميل خصالهم ، وقد بين لنا القرآن الكريم وسنة نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) جانبًا كبيرًا من صفات من يحبهم الله سبحانه ويحبونه، حيث يحب أهل التقوى ، يقول الحق سبحانه وتعالى: "بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ"(آل عمران: ٧٦) ، ويقول سبحانه: "إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ " (التوبة: ٤) .

ويحب سبحانه وتعالى أهل الصبر ، يقول سبحانه: "وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ الله وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا واللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ" (آل عمران: ١٤٦) .

ويحب سبحانه أهل الإحسان ، يقول سبحانه: " فَآتَاهُمُ الله ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ واللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ "(آل عمران: ١٤٨) ، ويقول سبحانه: " الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"(آل عمران: ١٣٤) ، ويقول سبحانه أيضًا: "وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ الله وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (البقرة: ١٩٥) .

ويحب سبحانه أهل التوكل والاعتماد يقول سبحانه :"فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ "(آل عمران: ١٥٩).

ويحب سبحانه أهل التوبة والتطهر يقول سبحانه: "فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ الله إِنَّ الله يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ" (البقرة:٢٢٢)، ويقول سبحانه: " لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا والله يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ" (التوبة: ١٠٨).

ويحب سبحانه أهل العدل والإنصاف يقول سبحانه: " وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (المائدة: ٤٢) ، ويقول سبحانه: " لَا يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"، (الممتحنة: ٨) ويقول سبحانه: " وَأَقْسِطُوا إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ "(الحجرات: ٩) .

ويحب سبحانه وتعالى الذين يحبون لقاءه يقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ الله لِقَاءَهُ قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ قَالَ لَيْسَ ذَاكِ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ الله وَكَرَامَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ الله وَأَحَبَّ الله لِقَاءَهُ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ الله وَعُقُوبَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ كَرِهَ لِقَاءَ الله وَكَرِهَ الله لِقَاءَهُ" (صحيح البخاري).

كما بين لنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) من يحبهم الله (عز وجل) ، فهو يحب سبحانه أهل التقرب إليه بالفروض والنوافل يقول نبينا صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" إِنَّ الله قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَه" (صحيح البخاري).

ويحب سبحانه وتعالى أهل التزاور والبذل والعطاء يَقُولُ نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى": وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيّ" (مسند أحمد).

ومن أحبه الله (عز وجل) وضع له القبول في الأرض يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): " إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ الله قَدْ أَحَبَّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ الله قَدْ أَحَبَّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْض" (صحيح البخاري).

ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "ثَلاثَةٌ يُحِبُّهُمُ الله عَزَّ وَجَلَّ، يَضْحَكُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَبْشِرُ بِهِمْ، الَّذِي إِذَا انْكَشَفَتْ فِئَةٌ، قَاتَلَ وَرَاءَهَا بِنَفْسِهِ للهِ عَزَّ

وَجَلَّ، فَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ، وَإِمَّا أَنْ يَنْصُرَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ وَيَكْفِيهِ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي كَيْفَ صَبَّرَ لِي نَفْسَهُ، وَالَّذِي لَهُ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ وَفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ، فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ فَيَذَرُ شَهْوَتَهُ، فَيَذْكُرُنِي وَيُنَاجِينِي وَلَوْ شَاءَ لَرَقَدَ، وَالَّذِي يَكُونُ فِي سَفَرٍ وَكَانَ مَعَهُ رَكْبٌ، فَسَهَرُوا وَنَصَبُوا ثُمَّ هَجَعُوا، فَقَامَ فِي السَّحَرِ فِي سَرَّاءٍ أَوْ ضَرَّاءٍ" (الأسماء والصفات للبيهقي) .

* * *

□

من فضائل الصحابة الكرام

الحديث عن أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حديث خاص ، فهو حديث محب عن أحبة الحبيب (صلى الله عليه وسلم) ، ومن أحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حق الحب واتبعه حق الاتباع كان داخلا في دائرة الحب الإلهي ، حيث يقول الحق سبحانه مخاطبًا سيدنا محمدًا (صلى الله عليه وسلم): " قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (آل عمران: ٣١) .

وقد ذكر سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) أن أهل الاصطفاء في قول الله (عز وجل): "قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى" (النمل: ٥٩) ، هم أصحاب رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، وعن ابن مسعود (رضي الله عنه) ، قال: "إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ ، وابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ ، يُدافعونَ عَن دِينِهِ ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّئٌ" . (مسند أحمد)

ومن يتأمل في سيرة أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يدرك أنهم ما بلغوا هذه الدرجة العالية والمكانة السامية إلا بإخلاصهم لله (عز وجل) ، وصدق محبتهم لرسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وجهادهم لأنفسهم ، وانتصارهم للحق ، ودفاعهم عنه ، وحسن أخلاقهم ، وجميل صفاتهم ، فاستحقوا ثناء الله (عز وجل) عليهم ، ومدحه لهم، وكانوا أهلا لمحبة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ومحلا لثقته ، حيث يقول الحق سبحانه: "وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ " (التوبة: ١٠٠) ، ويقول سبحانه: " لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ الله وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ الله وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ" (الحشر: ٨)، ويقول سبحانه: " إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ الله فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا "(الفتح: ١٠)، ويقول سبحانه: " لَقَدْ رَضِيَ الله عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا" (الفتح: ١٨).

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (الله الله فِي أَصْحَابِي ، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي

أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى الله (عَزَّ وَجَلَّ) ، وَمَنْ آذَى الله يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ) (سنن الترمذي) ، ويقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ، وَلاَ نَصِيفَهُ) (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى اخْتَارَنِي وَاخْتَارَ لِي أَصْحَابًا ، فَجَعَلَ لِي مِنْهُمْ وُزَرَاءَ وَأَنْصَارًا وَأَصْهَارًا ، فَمَنْ سَبَّهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ) (المعجم الكبير للطبراني).

ويقول (صلى الله عليه وسلم): "لَعَلَّ الله اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ"(متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " والذي نفسي بيده لَسَاقَيْ ابن مسعود أثقل في الميزان من أُحُد"(مسند أحمد) ، و يقول (صلى الله عليه وسلم): (أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ ، وَأَقْوَاهُمْ فِي أَمْرِ الله عُمَرُ ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَمِينُ أُمَّتِي أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ، وَأَعْلَمُ أُمَّتِي بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذٌ، وَأَقْرَؤُهُمْ أُبَيٌّ ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدٌ)(سنن الترمذي)، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

❊ ❊ ❊

آداب الاستئذان واحترام الخصوصيات

ديننا دين الجمال والرقي والرفعة والذوق السليم والحس الإنساني المرهف ، فكل ما يتسق مع الآداب الإنسانية العامة هو من صميم الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها قال تعالى : " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا "(الروم: ٣٠).

ومن أهم الآداب العامة التي ينبغي أن نحافظ عليها أدب الاستئذان حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" (النور: ٢٧) ، وأدب الاستئذان هو أدب راق ، يدل على خلق صاحبه وعفته ورقيه وسمو أخلاقه .

ويزداد الأمر بيانا بقول الحق سبحانه: "فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ "(النور: ٢٨) ، وعن أبي موسى (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " إذا أستأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع " (متفق عليه) .

على أن أدب الاستئذان لا يقف عند دخول البيت فحسب إنما يتسع ليشمل سائر الخصوصيات والحقوق الفردية والمجتمعية ، صيانة لكرامات

الناس وحرماتهم وحرياتهم واحترام مشاعرهم ، فلا تفتح حقيبة أحد إلا بإذنه ، ولا تستخدم هاتفه إلا بإذنه ، ولا تفتح حاسوبه أو تستخدمه إلا بإذنه ، ولا تستعمل قلمه إلا بإذنه ، ولا تستخدم مسبحته إلا بإذنه ، فللناس خصوصياتهم التي ينبغي أن تحترم.

ويشمل أيضًا الاستئذان عند الخروج من البيت ومغادرته ، فعن ابن عمر (رضي الله عنهما) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "إِذَا زَارَ أَحَدُكُمْ أَخَاهَ فَجَلَسَ عِنْدَهُ ، فَلا يَقُومَنَّ حَتَّى يَسْتَأْذِنَهُ"(مسند الفردوس).

ومن آداب الاستئذان غض البصر ، وعدم استقبال الباب ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّمَا جُعِلَ الاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ البَصَرِ"(متفق عليه) ، وعَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ (رضى الله عنه) أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ وَهُوَ مُسْتَقْبِلٌ الْبَابَ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "لَا تَسْتَأْذِنْ وَأَنْتَ مُسْتَقْبِلٌ الْبَابَ"(المعجم الكبير للطبراني) ، وقد ورد أن النَّبِي (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كَانَ إِذَا أَتَى بَابًا يُرِيدُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ لَمْ يَسْتَقْبِلْهُ ، جَاءَ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَإِنْ أُذِنَ لَهُ وَإِلا انْصَرَفَ، (الأدب المفرد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " لَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ مُسْلِمٍ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى جَوْفِ بَيْتٍ حَتَّى يَسْتَأْذِنَ، فَإِنْ فَعَلَ فَقَدْ دَخَلَ.. " (الأدب المفرد) .

هَذَا وَيَنبَغِي أن نعلم أبناءنا ونعودهم على الاستِئذَانَ قبل الدخول مُنذُ بلوغ الحُلُمَ ، وأن نغرس هذه الآداب في نفوسهم ، فمن نشأ عليها نال حظًا

عظيمًا من الأدب والرقي والتحضر ، يقول الحق سبحانه: " وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ" (النور ٥٩) .

ومن الآداب التي ينبَغِي أن نراعيها الاستئِذَانُ عَلَى الأهل قبل الدُّخُولِ: يقول ابنُ مَسعُودٍ (رَضِيَ اللهُ عَنهُ): "عَلَيكُمْ أنْ تَستَأذِنُوا عَلَى أمَّهَاتِكُمْ " (مسند الشاميين للطَّبَرَانِيُّ) ، وعن مسلم بن نذير قال: " سأل رجل حذيفة (رضي الله عنه) أستأذن على أمي ؟ قال: إن لم تستأذن عليها رأيت ما تكره" (الأدب المفرد) ، وعن عطاء قال: سألت ابن عباس فقلت: أستأذن على أختيّ ؟ فقال نعم ، قلت: إنهما في حجري؟ قال: أتحب أن تراهما عريانتين".

* * *

□

مواسم الخيرات والبركات

لقد فضل الله (عز وجل) بعض النبيين على بعض ، حيث يقول سبحانه:" تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ الله وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ "(البقرة: ٢٥٣) ، ويقول سبحانه: " وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا "(الإسراء: ٥٥) ، وفضل بعض الشهور على بعض ، حيث يقول سبحانه: "إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ الله اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ الله يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ"(التوبة: ٣٦) ، والأشهر الحرم هي: ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم ، ورجب .

وفضل سبحانه بعض الليالي على بعض فقال (عز وجل): " إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ" (القدر:١ – ٣) ، وقال سبحانه:" إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ" (الدخان: ٣).

كما فضّل بعض الأيام على بعض ، ومن الأيام التي فضلها سبحانه على سائر الأيام العشر الأُوَل من ذي الحجة حيث يقول (عز وجل):" وَالْفَجْرِ

وَلَيَالٍ عَشْرٍ "(الفجر: ١-٢) قال ابن كثير (رحمه الله): المراد بها عشر ذي الحجة.

ويقول سبحانه: " وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ " (الحج: ٢٨) ، يقول ابن عباس: أيام العشر ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم)" ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام " - يعني عشر ذي الحجة - قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال: " ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا رجلا خرج بنفسه وماله ، ثم لم يرجع من ذلك بشيء " (سنن أبي داود).

وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) قال: " مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهَّ، وَلَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ، وَالتَّكْبِيرِ، وَالتَّحْمِيدِ "(مسند أحمد).

كما خص الحق سبحانه يوم عرفة الذي هو من هذه العشر بمزيد من التفضيل ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ.." (صحيح مسلم) ، وفي قول الحق سبحانه: " وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ " (البروج:٣) ، يقول أبو هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه): أن نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: " اليَوْمُ المَوْعُودُ يَوْمُ القِيَامَةِ، وَاليَوْمُ المَشْهُودُ يَوْمُ عَرَفَةَ، وَالشَّاهِدُ يَوْمُ الجُمُعَةِ "(سنن الترمذي) .

ولما نزل قول الله (عز وجل) " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا.. " (المائدة: ٣)؟

وجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى سيدنا عُمَرَ (رضى الله عنه)، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ آيَةً فِي كِتَابِكُمْ لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ، لاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، قَالَ: وَأَيُّ آيَةٍ هِيَ؟ قَالَ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي} (المائدة: ٣) ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: وَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ.(مسند أحمد)

وفي فضل صيام يوم عرفة والدعاء فيه يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ" (صحيح مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "(سنن الترمذي) .

فهذه أيام فضل وبر وبركة ، فالعاقل من اغتنمها وتعرض لنفحات الله فيها .

* * *

صلة الرحم

أمر الله بالإحسان إلى ذوي القربى وهم الأرحام ، فقال سبحانه: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ} (البقرة: ٨٣)، كما أنه سبحانه وتعالى عظم قدر الأرحام فقال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" (النساء: ١) ، ويقول سبحانه: " فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ "(محمد: ٢٢) ، وهناك أحاديث كثيرة ورد فيها الأمر بصلة الرحم وبيان ثواب الواصل ، وأخرى ورد فيها النهي عن قطيعة الرحم وبيان عقاب القاطع ، فمن الأحاديث التي تحدثت عن ثواب الواصل قول نبينا (صلى الله عليه وسلم): مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ "(صحيح مسلم)، وعَنْ أَبِي أَيُّوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ، قَالَ: مَا لَهُ مَا لَهُ. وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرَبٌ مَا لَهُ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ"(صحيح البخاري) ، ومن الأحاديث التي ورد فيها النهي عن قطيعة الرحم وعقاب القاطع

حديث سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالدَّيُّوثُ، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ، وَثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: فَثَنَّى الْعَاقَّ لِوَالِدَيْهِ، وَمُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَالْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى "(صحيح ابن حبان)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ كُلَّ خَمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَلَا يُقْبَلُ عَمَلُ قَاطِعِ رَحِمٍ»(مسند أحمد).

فالرحم تشهد للواصل بالوصل يوم القيامة ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " وَكُلُّ رَحِمٍ آتِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَامَ صَاحِبِهَا، تَشْهَدُ لَهُ بِصِلَةٍ إِنْ كَانَ وَصَلَهَا، وَعَلَيْهِ بِقَطِيعَةٍ إِنْ كَانَ قَطَعَهَا " (الأدب المفرد) ، ويقول(صلى الله عليه وسلم): " الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ " (صحيح مسلم).

ويقول (صلى الله عليه وسلم): " اعْبُدُوا الرَّحْمَنَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَأَفْشُوا السَّلَامَ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ" ، (سنن الترمذي) .

والصلة الحقيقية الكاملة ينبغي أن تشمل جميع الأقرباء حتى القاطع منهم يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) " لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا " (صحيح البخاري).

والصدقة على ذوي الأرحام لها أجران يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَإِنَّهَا عَلَى ذِي رَحِمٍ اثْنَتَانِ، إِنَّهَا صَدَقَةٌ

وَصِلَةٌ"(صحيح ابن خزيمة)، وصلة الأرحام تكون بزيارتهم ، ومجالستهم، والإحسان إليهم ، وأقل ما يقدمه الإنسان لصلة رحمه هو السلام يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " بُلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ " (السنن الكبرى للبيهقي). وَمَعْنَاهُ صِلُوا أَرْحَامَكُمْ، فَكَأَنَّهُ جَعَلَ وَصْلَ الرَّحِمِ لِتَسْكِينِ الْحَرَارَةِ بِالْمَاءِ.

وإذا كان ديننا الحنيف قد نهى المسلم عن أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ، فَيُعْرِضُ هَذَا، ويُعْرِضُ هَذَا، وخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ"(مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) ، فإن العاقل من يغتنم هذه الأيام المباركة ويستجيب لقول نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم): "وخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ " ، فيعفو عمن ظلمه ويصل من قطعه ويحسن إلى من أساء إليه .

* * *

محكمة العدل الإلهية

لم نقف هنا أمام محكمة العدل الدولية ولا غيرها من محاكم البشر ، إنما نقف أمام محكمة شعارها:" لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ " (غافر: ١٧) ، " وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ "(فصلت: ٤٦) ، ميزانها شديد الدقة ، حيث يقول الحق سبحانه:" وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ "(الأنبياء: ٤٧).

محكمة العدل الإلهية لا مجال فيها على الإطلاق لشهادة الزور ولا لشهود الزور ، حيث يقول الحق سبحانه:" يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ "(النور٢٥،٢٤)ويقول الحق سبحانه:" الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" (يس:٦٥) ، ويقول سبحانه : "حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "(فصلت:٢٠) .

محكمة لا يستطيع أحد من البشر فيها النكران أو طمس الأدلة أو إخفاءها ، حيث يقول الحق سبحانه على لسان لقمان :" يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ " (لقمان: ١٦) ، ويقول الحق سبحانه:" وَوُضِعَ

الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا " (الكهف:٤٩)، والحساب فيها ليس سِرِّيًا ؛ حيث يقول الحق سبحانه: "وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا "(الإسراء: ١٣) ، وليس بها عضو يمين ولا عضو يسار ، ولا محكمون ولا مترافعون ، ولا أمناء سر ، إنما هو قوله تعالى: " وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا " (الإسراء: ١٣،١٤)، ولا مجال فيها للنقض ، حيث يقول الحق سبحانه:" مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ " (ق:٢٩) ، ولا أحكام غيابية ، حيث يقول سبحانه:" وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ" (يس:٣٢)، إذ لا محالة لعدم الحضور أو الهروب منه:" وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ "(ق:٢١) ، والحكم فيها فوري ،" فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ "(الحاقة:١٩-٣٢) .

والذي لا شك فيه أن جميع البشر سيقفون في هذه المحكمة: "وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ" (الصافات:٢٤) ، وينادي منادٍ : "لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ" (غافر: ١٦) ، فتكون الإجابة " لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ الله سَرِيعُ الْحِسَابِ " (غافر:١٦،١٧)، فالعاقل من يضع هذا اليوم نصب عينيه ، فيحاسب نفسه قبل أن يحاسب ، ويزن عمله قبل أن يوزن عليه ، رجاء النجاة "يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ " (الشعراء: ٨٨، ٨٩).

* * *

أوليـــــاء اللـــــه

أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أذهب الله (عزّ وجلّ) عنهم الهم والحزن ، وجعل لهم البشرى تلو البشرى ، وملأ قلوبهم بالسكينة والطمأنينة ، حيث يقول سبحانه: "أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ *لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ " (يونس: ٦٢-٦٤).

أولياء الله هم المؤمنون الذين تطمئن قلوبهم بذكره سبحانه ، حيث يقول جل شأنه: "الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ الله أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" (الرعد: ٢٨).

وأولى بشرياتهم في الحياة الدنيا: قبيل لقاء الله عز وجل ، عند الاحتضار ، هي قول الحق سبحانه: " إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ "(فصلت: ٣٠-٣٢).

وثانيها: تثبيتهم بالقول الثابت ، حيث يقول سبحانه: "يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ الله الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ الله مَا يَشَاءُ"(إبراهيم: ٢٧).

وثالثها: الأمن يوم الفزع الأكبر حيث يقول سبحانه: "إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ* لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ " (الأنبياء: ١٠١-١٠٣) .

ورابعها: تسليم الملائكة عليهم وطمأنتها لهم ، حيث يقول سبحانه: "وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ *سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ"(الرعد: ٢٣،٢٤) .

إن أنبياء الله وأولياءه محفوفون بالعناية والرعاية ، حيث يقول سبحانه لسيدنا موسى وأخيه هارون عليهما السلام: "لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى"(طه: ٤٦) ، ويقول لنبينا محمد (صلى الله عليه وسلم): "وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا" (الطور: ٤٨) ، ويقول سبحانه: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ" (المائدة: ٦٧) ، ويقول لأم موسى (عليه السلام): "فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ" (القصص: ٧) ، ويقول في شأن مريم عليها السلام: " فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا *وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ

رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا" (مريم: ٢٤-٢٦) .

وقال سبحانه للنار : "قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ" (الأنبياء: ٦٩) ، وأوقف السكين عن ذبح سيدنا إسماعيل ، وجعل بطن الحوت حفظًا وأمانًا لسيدنا يونس (عليه السلام) ، وأعمى أبصار المشركين أن ترى الحبيب (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه في الغار: " إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"(التوبة: ٤٠)، وهو ما جعل سيدنا موسى (عليه السلام) واثقًا غاية الثقة في الله (عزّ وجلّ) عندما قال أصحابه إنا لمدركون فقال: " كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ"(الشعراء: ٦٢) ، وتلك عقيدتنا في معية الله (عز وجل) لعباده المخلصين .

* * *

ثمــرات الإيمــان

للإيمان ثمراته التي تطمئن بها النفس ، وتحصل بها السكينة ، وقد سئل الحسن البصري (رحمه الله تعالى) أمؤمن أنت ؟ فقال: الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب ، فأنا به مؤمن ، وإن كنت تسألني عن قوله تعالى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ" (الأنفال: ٢-٤)، فلا أدري أنا منهم أم لا ؟ .

ومن ثمرات الإيمان الصحيح طمأنينة القلب في الدنيا ورضوان الله (عز وجل) في الدنيا والآخرة ، حيث يقول سبحانه: "الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ" (الرعد: ٢٨-٢٩) ، ويقول سبحانه: "إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رحِيمًا " (الفرقان: ٧٠) .

ومن ثمرات الإيمان الصحيح في الدنيا أنه يورث مكارم الأخلاق ، فإن وجدت أخلاقا كريمة فهي نتاج إيمان صحيح ، لأن المؤمن الحق لا يكذب ، ولا يغدر ، ولا يغش، ولا يخون ، ولا يغتب ، ولا ينم ، ولا يهمز ، ولا يلمز ، حتى عرف بعضهم الإيمان بالصدق فقال الإيمان الحقيقي هو أن تقول الصدق مع ظنك أن الصدق قد يضرك ، وأن لا تقول الكذب مع ظنك أن الكذب قد ينفعك ، لأن إيمانك بالله (عز وجل) يرسخ لديك أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك .

والإيمان والأمانة صنوان ، فلا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم):"لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ"(مسند أحمد) ، والإيمان والحياء قرناء ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " إنَّ الحياءَ والإيمانَ قُرِنا جَميعًا ، فإذا رُفِعَ أحدُهُما رُفِعَ الآخَرُ" (الأدب المفرد) .

هذا وينهانا ديننا الحنيف عن السخرية من الآخرين أو الاستهزاء بهم ، حيث يقول الحق سبحانه: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (الحجرات: ١١)، فالمؤمن الحقيقي من أمنه الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه

وسلم):"الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ "(سنن الترمذي) .

والخروج على القيم النبيلة والأخلاق الكريمة من سمات المنافقين ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): "آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ" (متفق عليه) ، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا ، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ" (متفق عليه) .

* * *

أهل الله وخاصته

يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ للهِ أَهْلِينَ مِنْ النَّاسِ " قَالُوا: يَا رَسُولَ الله ، مَنْ هُمْ ؟ قَالَ: "هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ ، أَهْلُ الله وَخَاصَّتُهُ" ، (مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم)" إِنَّ مِنْ إِجْلالِ الله تَعَالَى: إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ ، وَحَامِلِ الْقُرآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ والجَافِي عَنْهُ ، وإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ " (سنن أَبِي داود) ، ويقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): " يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا" (سنن أبي داود).

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِب ، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟، فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ، فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ ، الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي نَهَارِكَ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، قَالَ: فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا تَقُومُ لَهُمَا الدُّنْيَا، فَيَقُولَانِ: بِمَ كُسِينَا هَذِهِ؟، فَيُقَالُ لَهُمَا: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغُرَفِهَا ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ مَعَكَ " (سنن الدارمي) .

ويقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): " مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ: كَالأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالَّذِي لاَ يَقْرَأُ القُرْآنَ: كَالتَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلاَ رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ: كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ ، وَمَثَلُ الفَاجِرِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ القُرْآنَ: كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ، وَلاَ رِيحَ لَهَا " (متفق عليه).

وعن أبي بن كعب (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال له يومًا: "أُمِرْتُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ" ، فَقُلْتُ: أَسَمَّانِي لَكَ رَبِّي أَوْ رَبُّكَ ؟ قَالَ: "نَعَمْ" ، فَتَلَا: "قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ" (يونس: ٥٨) ، وفي رواية: " قال أُبيّ يا رَسُولَ الله، وَذُكِرْتُ هُنَاكَ؟ ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم): "نَعَمْ بِاسْمِكَ ونَسَبِكَ فِي المَلَأِ الأَعْلَى" قَالَ: فَاقْرَأْ إِذًا يَا رَسُولَ الله" (حلية الأولياء)

وعَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ (رَضِيَ الله عَنْهُ) قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ البَقَرَةِ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ الفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ، فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، حَتَّى مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ الله أَنْ

تَطَأَ يَحْيَى، وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ المَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّى لاَ أَرَاهَا، قَالَ: «وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟»، قَالَ: لاَ، قَالَ: «تِلْكَ المَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لاَ تَتَوَارَى مِنْهُمْ" (متفق عليه).

وإذا كان هذا هو إكرام الله ورسوله لأهل القرآن الكريم ، فإن إكرامهم من إجلال الله (عز وجل) كما جاء في حديث سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فمن أكرمهم أكرمه الله في الدنيا والآخرة ، ومن ثمة يأتي اهتمامنا بالقرآن الكريم وأهله ، ونقيم مسابقتنا العالمية تشجيعًا للناشئة وغيرهم من حفظته .

* * *

كتاب الكمال والجمال

الكمال لله (عز وجل) وحده ، ولكلامه ، ولكتابه ، فهو كتاب الكمال والجمال ومحاسن ومكارم الأخلاق ، فقد تحدث هذا الكتاب العظيم عن الصبر الجميل فقال سبحانه: " فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ" (يوسف: ١٨) ، والصبر الجميل ، هو الذي لا شكوى معه ، وهو الذي يوفى فيه الصابرون أجرهم بغير حساب ، بل قد يتبعه إحسان على حد قوله تعالى: "وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ " (آل عمران: ١٣٤) .

وتحدث القرآن الكريم عن الهجر الجميل حتى مع الأعداء دون لدد أو فجور في الخصومة، فقال سبحانه: " وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلا " (المزمل: ١٠) ، وتحدث عن السراح الجميل ، وهو الذي لا عضل فيه للمرأة ولا ظلم لها ، فقال سبحانه: " وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً" (الأحزاب: ٤٩) .

وتحدث القرآن الكريم – أيضًا – عن الخلق العظيم في وصف سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فقال سبحانه: " وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" (القلم: ٤) ، كما تحدث عن القول الحسن الجميل في قوله تعالى: "وَقُولُوا

لِلنَّاسِ حُسْنًا " (البقرة: ٨٣) أي: للناس كل الناس ، بل نحن مطالبون أن نقول التي هي أحسن ، حيث يقول الحق سبحانه: "وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"(الإسراء: ٥٣) ، والحديث بالتي هي أحسن نعمة ومنّة وهداية وتوفيقٌ من الله (عز وجل) ؛ حيث يقول الحق سبحانه : " وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ "(الحج: ٢٤) .

كما تحدث القرآن الكريم عن الدفع الحسن الجميل ، فقال سبحانه: "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ "(فصلت: ٣٤،٣٥) ، ويقول سبحانه: " وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا "(الفرقان: ٦٣) .

وتحدث القرآن الكريم عن اللباس الجميل ، فقال سبحانه: "وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ " (الأعراف: ٢٦) ، وعن الوجه الجميل ، فقال سبحانه: "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ "(عبس: ٣٨-٣٩) ، وقال سبحانه: " تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ "(المطففين: ٢٤) ، وتحدث عن السعي الجميل المشكور ، فقال سبحانه: " وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا"(الإسراء: ١٩) ، وتحدث

عن الجزاء الحسن الجميل ، فقال سبحانه: "وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا" (الإنسان: ١٢) ، وعن العيشة الجميلة ، فقال سبحانه: " فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ "(الحاقة: ٢١-٢٤) ، وتحدث عن التحية الجميلة ، فقال سبحانه: " وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ الله كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا "(النساء: ٨٦) ، وقال سبحانه: " وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ " (الرعد: ٢٣-٢٤) ، وهكذا القرآن كله جمال وكمال ومحاسن ومكارم أخلاق .

* * *

من فضائل الصلاة على سيدنا رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم)

للصلاة والسلام على سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فضائل عظيمة ومِنَح جليلة ، منها:

نَيْلُ رحمة الله (عز وجل) وعميم فضله بكثرةِ الصَّلاة والسَّلام على نبيّنا (صلى الله عليه وسلم): فإذا كانت الصلاة من الله تعني الرحمة ، فإنه (صلى الله عليه وسلم) قال: "... من صلَّى عليَّ واحدةً صلَّى الله عليهِ عشرَا.. " (متفق عليه) ، وقال – أيضًا: "من ذُكِرْتُ عنده فَلْيُصَلّ عليَّ ، ومن صَلّى عليّ مرةً صَلّى اللهُ عليه عشرًا"(السنن الكبرى للنسائي) .

استغفارُ الملائكة: حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): "ما مِن مُسلِمٍ يصلِّي عليَّ إلَّا صلَّت عليهِ الملائِكةُ ما صلَّى عليَّ فليُقلَّ العَبدُ من ذلِكَ أو ليُكثِرْ" (سنن ابن ماجه).

نيل شفاعته (صلى الله عليه وسلم): فعن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) أنه سمع النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: " إِذَا سَمِعْتُمْ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا الله لِي الْوَسِيلَةَ ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إِلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ

الشَّفَاعَةُ" (صحيح مسلم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): "أولى النَّاسِ بي يومَ القيامةِ أكثرُهم عليَّ صلاةً"(سنن الترمذي) .

رفع الدرجات وحطّ الخطايا والسيئات: يقول (صلى الله عليه وسلم): «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً، صَلَّى الله عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحَطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ» (مسند أحمد) ، وعن أبي طلحة الأنصاريّ (رضي الله عنه) قال:" أَصْبَحَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا طَيِّبَ النَّفْسِ يُرَى فِي وَجْهِهِ الْبِشْرُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَصْبَحْتَ الْيَوْمَ طَيِّبَ النَّفْسِ، يُرَى فِي وَجْهِكَ الْبِشْرُ، قَالَ: " أَجَلْ، أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ: مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلَاةً كَتَبَ الله لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَهَا " (مسند أحمد) .

كفاية الهموم ومغفرة الذنوب: فعن أُبي بن كعب (رضي الله عنه) أنه قال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم): يا رسولَ الله إِنِّي أُكْثِرُ الصلاةَ عليْكَ فكم أجعَلُ لكَ من صلاتِي ؟ فقال: (ما شِئْتَ) ، قال: قلتُ الربعَ ، قال: (ما شئْتَ فإِنْ زدتَّ فهو خيرٌ لكَ) ، قلتُ: النصفَ ، قال: "ما شئتَ فإِنْ زدتَّ فهو خيرٌ لكَ" ، قال: قلْتُ فالثلثينِ ، قال: "ما شئْتَ فإِنْ زدتَّ فهو خيرٌ لكَ" ، قلتُ: أجعلُ لكَ صلاتي كلَّها ، قال: "إذًا تُكْفَى همَّكَ ويغفرْ لكَ ذنبُكَ" (سنن الترمذي).

تشريف المصلِّي على النبي (صلى الله عليه وسلم) بِرَدِّ رسولنا (صلى الله عليه وسلم) عليه السلام ؛ حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): " إنَّ للهِ

ملائِكةً سيَّاحينَ في الأرضِ يبلِّغوني عن أمتيَ السَّلامَ" (صحيح ابن حبان)، وقال (صلى الله عليه وسلم): "ما من أحدٍ يسلِّمُ عليَّ إلَّا ردَّ الله عليَّ روحي حتَّى أردَّ عليهِ السلامَ" (مسند أحمد)، وعن أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " أكْثِرُوا الصلاةَ عليَّ ، فإنَّ اللهَ وكَّلَ بي ملَكًا عند قبري ، فإذا صلَّى عليَّ رجلٌ من أُمَّتِي قال لي ذلك المَلَكُ: يا محمدُ إنَّ فلانَ بنَ فلانٍ صلَّى عليك الساعةَ"(مسند البزار) .

على أن فضائل الصلاة والسلام على سيد الأنام سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) لا تُحصى ولا تُعد ، فمنها ما ظهر ، ومنها ما يجل عن العد والحصر ؛ إذ لا يدرك كنهها ولا عميم بركتها إلا من ذاق ، فمن ذاق عرف، ومن عرف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل، ويكفي ملازمها راحة النفس والبال ، وطمأنينة القلب ، وانشراح الصدر ، وتذوق حلاوة الإيمان؛ حيث يقول نبيّنا (صلى الله عليه وسلم): " ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِىَ بِالله رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وسلم) رَسُولاً " (صحيح مسلم).

* * *

عِلْمُ الساعة

يقول الحق سبحانه: " يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ"(الأعراف: ١٨٧) ، ويقول سبحانه: "إِنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (لقمان: ٣٤) ، ويقول سبحانه: "وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ" (الأنعام: ٥٩) ، ويقول سبحانه: "عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا" (الجن: ٢٦-٢٨).

والساعة غيب بلا شك ، فعلمها وأمرها عند الله " لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ"(الأعراف: ١٨٧) ، ولما سئل سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) متى الساعة أجاب (صلى الله عليه وسلم) بقوله: "مَا الْمَسْئولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ بِهَا مِنَ السَّائِلِ"(صحيح مسلم) ، وبهذا حسم نبينا (صلى الله عليه وسلم) قضية الإفتاء أو الفتوى أو الفتيا في هذا الأمر ، فإذا كان رسولنا الكريم

(صلى الله عليه وسلم) يقول: "مَا الْمَسْئولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ بِهَا مِنَ السَّائِلِ"(صحيح مسلم) ، فمن ذا الذي يتجرأ على الله (عز وجل) بالخوض في أمرٍ توقَّفَ سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الحديث فيه.

أما ما ورد من نصوص عن قرب موعد الساعة أو ظهور علاماتها فليس وليد اليوم، إنما هو ما ورد في كتاب الله (عز وجل) وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام، حيث يقول الحق سبحانه: "وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا" (الأحزاب: ٦٣) ، ولكن مقياس ومقدار هذا القرب وموعده وعلمه عند الله (عز وجل) وحده .

غير أن بعض الباحثين عن حب الظهور ولو على حساب الأمن المجتمعي أو مشاعر العامة أو غيرهم يقومون بإسقاط النصوص على غير مناطها أو مظانها وواقع تطبيقها ، ويلوون عنق الحقائق باحثين عن أي شيء يلفت النظر ويرفع نسبة "اللايك والشير" ، ولو على حساب دينهم أو وطنهم أو مجتمعهم ، لا يألون على خلق ولا دين ولا ضمير إنساني حي ، إضافة إلى أن بعضهم قد يلبسون الباطل ثوب الحق ، فيذكرون بعض الحقائق في غير موضعها ولا سياقها ، قصد لفت الانتباه أو إثارة الجدل ، وأصعب ما في الأمر أن ذلك – للأسف الشديد – يتم باسم الدين، والدين منه براء ، وينشر باسم من يحسبون أنفسهم على الدين أو العلم زورا وبهتانا، لأن العلم الحقيقي يرفع صاحبه إلى مقام أمين مكين ، لا يُتاجر فيه بدين الله (عز وجل).

ويلفت نبينا الكريم (صلى الله عليه وسلم) نظرنا إلى ما يجب أن نفكر فيه من أمر الساعة ، عندما سأله أحد الصحابة الكرام رضوان الله (عز وجل) عليهم أجمعين: مَتَى السَّاعَةُ ؟ فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم): "مَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ قَالَ: حُبُّ الله ورسولِهِ، قَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ " .

* * *

لغة الأرقام في السنة النبوية

لقد ضرب لنا نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أعظم المثل في استخدام مهارات التواصل الدعوي للنفاذ إلى عقل المتلقي وقلبه ، وإثارة اهتمامه وانتباهه ، وإيقاظ مشاعره ، ومن ذلك استخدامه (صلى الله عليه وسلم) لغة الأرقام لإثارة الذهن ، أو التحديد والحصر ، أو التقريب الذهني ، ويرجح السياق هذا أو ذاك ، ومن ذلك استخدامه (صلى الله عليه وسلم) للعدد ثلاثة حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): "ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لله ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ" (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ" (متفق عليه) .

ومنه استخدامه (صلى الله عليه وسلم) للعدد أربعة حيث يقول: "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ"(متفق عليه).

ومنه استخدامه (صلى الله عليه وسلم) للعدد خمسة حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): " بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ ، شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالْحَجِّ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ"(متفق عليه).

ومنه استخدامه (صلى الله عليه وسلم) للعدد ستة ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): "حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ "، قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ: "إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ الله فَشَمِّتْهُ ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ "(صحيح مسلم) .

ومنه استخدامه (صلى الله عليه وسلم) للعدد سبعة ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): "بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا ، هَلْ تَنْظُرُونَ إِلاَّ فَقْرًا مُنْسِيا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ، أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ "(سنن الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله ، وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِالله ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ"(متفق عليه) .

على أن استخدام العدد في السنة النبوية قد لا يقصد به الحصر أو التحديد، إنما يقصد بهذا التمثيل والتقريب ، ومن ذلك قوله (صلى الله عليه وسلم):" سَبْعَةٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ كَرَى نَهَرًا، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ "(شعب الإيمان) ؛ ذلك لأن العمل الصالح لا ينحصر في هذه الأمور، وإنما يتسع لكل ما ينفع الناس ويمكث في الأرض ، وإنما مثل نبينا (صلى الله عليه وسلم) بما كان متاحًا ومطلوبًا في عصره .

* * *

ساعات الإجابة وأسبابها

من فضل الله (عز وجل) على عباده أن فتح لهم أبواب إجابة الدعاء واسعة ، حيث يقول الحق سبحانه في كتابه العزيز "وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ" (غافر: ٦٠) ، ويقول سبحانه: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" (البقرة: ١٨٦) .

ومع ذلك فإن هناك بعض الأوقات والأفعال قد خصها الله (عز وجل) بمزيد من الفضل في إجابة الدعاء ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٌ فَتَعَرَّضُوا لَهُ، لَعَلَّهُ أَنْ يُصِيبَكُمْ نَفْحَةٌ مِنْهَا فَلَا تَشْقَوْنَ بَعْدَهَا أَبَدًا" (المعجم الكبيرللطبراني) ، ومن هذه الساعات والنفحات ساعة الجمعة ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " فِي الجُمُعَةِ سَاعَةٌ، لاَ يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَسَأَلَ الله خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ " (سنن الترمذي) ، وعن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) أنه قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: " هِيَ مَا بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ الْإِمَامُ إِلَى أَنْ تُقْضَى الصَّلَاةُ " (صحيح مسلم) ، ومنها الدعاء في جوف الليل ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): «إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً

لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ، يَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ» (صحيح مسلم) ، وقد قربت بعض الأحاديث الأمر كونها في الثلث الأخير من الليل ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " يَنْزِلُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَّلُ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الفَجْرُ " (متفق عليه واللفظ للترمذي) ، ومنها دعوة الصائم عند إفطاره ، والمسافر في سفره ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ الإِمَامُ الْعَادِلُ وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا فَوْقَ الْغَمَامِ وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ " (سنن الترمذي) ، ومنها الدعاء بين الأذان والإقامة لقوله (صلى الله عليه وسلم): "الدُّعَاءُ لَا يُرَدُّ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ" (سنن الترمذي).

ومنها الدعاء في السجود ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» "صحيح مسلم) ، ومنها دعوة الوالد لولده يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) "ثَلاثُ دَعَوَاتٍ يُسْتَجَابُ لَهُنَّ لا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ" (سنن ابن ماجه) ، ومنها دعوة الإنسان لأخيه الإنسان بظاهر

الغيب حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، إِلاَّ قَالَ الْمَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلٍ" (صحيح مسلم) ، وهذا كله إنما يدل على كرم الله وفضله الواسع على عباده في إجابة دعوة الداعين وسؤال السائلين ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " إن الله حيي كريم ، يستحي أن يرفع الرجل إليه يديه ، يردهما صفرًا خائبتين" (سنن أبي داود) ، ويقول: " مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا . قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ . قَالَ: اللهُ أَكْثَرُ " (مسند أحمد) .

ولإجابة الدعاء مفاتيح أخرى: من أهمها **إخلاص النية** في الدعاء وصدقها مع الله (عز وجل) ، ومن أهمها **أكل الحلال** ، فقد سأل سيدنا سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) سيدنا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) أن يكون مستجاب الدعوة فقال: يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّبَا فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ .(المعجم الأوسط) .

فمن حلت به فاقة أو ألمت به جائحة أو ضُيِّق عليه في أمر ، فأنزل حاجته بالله (عز وجل) كفاه وأرضاه ولم يَخبْ أبدًا مسعاه ، ومن أنزلها

بالخلق ذل وهان وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وتنكر له الأخ والصديق ، وكانت عاقبة أمره عسرًا ، فَفَوِّضِ الأمر لمن دبرَّه فلن ترى غير الذي قَدَّره ، وتعرف على الله (عز وجل) في الرخاء يعرفك في الشدة ، وانزع عنك لباس الحرص والطمع والجشع يسلم لك دينك وعرضك ومروءتك، وإياك أن تعتمد على الخلق في أمرٍ مبدؤه ومنتهاه بيد الخالق وحده ، وثق أن الله (عز وجل) لا يكلف بالمحال ولا بغير المستطاع ، والخلق غير ذلك ، فكن له سبحانه يكن لك ، وكن به يكن معك ، وإذا كان هو معك فلا عليك بمن عليك ومن معك، واعلم أن الأمر ليس في كثرة العمل ولا نوعه فحسب إنما في صدق النية فيه ، فلا تغالط نفسك عند تداخل النيات ، فالحلال بين والحرام بين ، والمشتبهات إلى الحرام أقرب ، والجنة أقرب إلى أحدنا من شراك نعله والنار مثل ذلك ، فالنجاء النجاء ، النجاء النجاء ، انج سعد فقد هلك سعيد ، والسعيد من وعظ بغيره والشقي من وعظ به غيره ، وقد ذكر أهل العلم أمورًا تستمطر بها إجابة الدعاء ، **منها أن تبدأ الدعاء بالصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم) وتختمه بها** ؛ لأن الله (عز وجل) أكرم من أن يقبل الصلاتين ويرد ما بينهما .

ومما تُستمطر به الإجابة ما روي عن سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: " إِنَّ لله مَلَكًا مُوَكَّلًا بِمَنْ يَقُولُ: يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، فَمَنْ

قَالَهَا ثَلَاثًا قَالَ الْمَلَكُ: إِنَّ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكَ فَاسْأَلْ"(مستدرك الحاكم) ، **ومنها الدعاء بصالح الأعمال** ، والدعاء باسم الله الأعظم ، فعَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) جَالِسًا وَرَجُلٌ يُصَلِّي ثُمَّ دَعَا " اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ " ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): " لَقَدْ دَعَا الله بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى"(مسند أحمد) .

* * *

قطـــرتان وأثـــــران

عن أبي أمامة الباهلي (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: " لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى الله مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ، قَطْرَةٌ مِنْ دُمُوعٍ فِي خَشْيَةِ الله، وَقَطْرَةُ دَمٍ تُهَرَاقُ فِي سَبِيلِ الله، وَأَمَّا الأَثَرَانِ: فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ الله، وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ الله "(سنن الترمذي) .

أما القطرتان فالأولى قطرة دموع من خشية الله تعالى ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) في الحديث الذي رواه الإمام الترمذي في سننه: «لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ الله حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ الله وَدُخَانُ جَهَنَّمَ»(سنن الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ الله ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ" (متفق عليه) .

وأما القطرة الثانية فقطرة دم في سبيل الله ، حيث إن الشهيد تغفر جميع ذنوبه بأول قطرة من دمه ،إضافة إلى ما حباهم الله به من أنهم أحياء عند

ربهم يرزقون وأنهم مع النبيين والصديقين ، حيث يقول الحق سبحانه: "وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ" (البقرة: ١٥٤) ، ويقول سبحانه: "وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ"(آل عمران: ١٦٩) ، ويقول سبحانه: "وَمَن يُطِعِ الله وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا"(النساء: ٦٩) .

وأما الأثران فأثر في سبيل الله تعالى ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "لغَدْوَةٌ في سبِيلِ الله، أوْ رَوْحَةٌ ، خَيْرٌ مِن الدُّنْيَا وَمَا فِيها" (متفق عليه) ، وعَن أَبِي سعيدٍ الخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) أنَّ رسُولَ اللهَّ (صلى الله عليه وسلم) قَال: "مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا ، وبالإِسْلامِ دينًا ، وَبمُحَمَّدٍ رَسُولًا ، وَجَبت لَهُ الجَنَّةُ ، فَعَجب لَهَا أَبُو سَعيدٍ ، فَقَال أعِدْها عَلَيَّ يَا رَسولَ الله فَأَعادَهَا عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ (صلى الله عليه وسلم) :" وَأُخْرى يَرْفَعُ اللهَّ بِها العَبْدَ مئَةَ درَجةٍ في الجَنَّةِ ، مَا بيْن كُلِّ دَرَجَتَين كَما بَين السَّماءِ والأَرْضِ قَالَ: وَمَا هِي يَا رسول اللهَّ ؟ قَالَ: الجِهادُ في سبِيل اللهَّ ، الجِهادُ في سَبيلِ الله" (صحيح مسلم) .

وأما الأثر الثاني فهو أثر في فريضة من فرائض الله (عز وجل) حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ أَعَدَّ الله لَهُ

فِي الْجَنَّةِ نُزُلاً كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ " (متفق عليه) ، وعن سيدنا أبي بن كعب (رضي الله عنه) قال: كَانَ رَجُلٌ لَا أَعْلَمُ رَجُلًا أَبْعَدَ مِنْ الْمَسْجِدِ مِنْهُ ، وَكَانَ لَا تُخْطِئُهُ صَلَاةٌ ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ ، أَوْ قُلْتُ لَهُ لَوْ اشْتَرَيْتَ حِمَارًا تَرْكَبُهُ فِي الظَّلْمَاءِ وَفِي الرَّمْضَاءِ ، قَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَنْزِلِي إِلَى جَنْبِ الْمَسْجِدِ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ يُكْتَبَ لِي مَمْشَايَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَرُجُوعِي إِذَا رَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "قَدْ جَمَعَ الله لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ " (صحيح مسلم).

ولما أراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال لهم: «إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ»، قَالُوا: نَعَمْ، يَا رَسُولَ الله قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ، فَقَالَ: «يَا بَنِي سَلِمَةَ دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ»(صحيح مسلم) .

❊ ❊ ❊

الأمم التي لا تملك ولا تنتج قوتها ، وغذاءها ، وكساءها ، ودواءها، وسلاحها ، لا تملك أمرها ، ولا إرادتها ، ولا كلمتها ، ولا عزتها، ولا كرامتها ، وكذلك شأن الأفراد أيضًا ، وقد قالوا: أحسن إلى من شئت تكن أميره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، وقد علَّمنا ديننا الحنيف أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، واليد العليا هي المعطية المتصدقة ، واليد السفلى هي الآخذة ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، فَاليَدُ العُلْيَا: هِيَ المُنْفِقَةُ، وَالسُّفْلَى: هِيَ السَّائِلَةُ "(متفق عليه).

وعن عوف بن مالك الأشجعي (رضي الله عنه) قال: "كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً، فَقَالَ: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟» وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟» فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟» قَالَ: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَعَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: «عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَتُطِيعُوا - وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً - وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا» فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ

أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ، فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ "(صحيح مسلم)، وذلك اتقاء لذل المسألة وقبح السؤال.

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): «لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللهَ، وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ» (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " من سأل الناس تكثرًا فإنما يسأل جمرًا ، فليستقل أو فليستكثر" (صحيح مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن أنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل" (سنن أبي داود).

وعَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلاَلِيِّ قَالَ تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله –صلى الله عليه وسلم– أَسْأَلُهُ فِيهَا فَقَالَ « أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا ». قَالَ ثُمَّ قَالَ « يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَحِلُّ إِلاَّ لأَحَدِ ثَلاَثَةٍ رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ – أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ – وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلاَثَةٌ مِنْ ذَوِى الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ لَقَدْ أَصَابَتْ فُلاَنًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ – أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ – فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا" (صحيح مسلم) ، وعن حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ

اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ يَا حَكِيمُ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى قَالَ حَكِيمٌ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى الْعَطَاءِ فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا فَقَالَ عُمَرُ إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تُوُفِّيَ .(متفق عليه)

على أن أمر التعفف لا يمكن أن يتحقق لا للأفراد ولا للأمم إلا بأمرين: زيادة الإنتاج وترشيد الاستهلاك ، وقد جمع القرآن الكريم بينهما لحل المشكلات الاقتصادية ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا يوسف (عليه السلام) "قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ" (يوسف: ٤٧) ، فالأمر قائم على زيادة الإنتاج المعبر عنها بقوله تعالى: "تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا" ، والادخار وترشيد الاستهلاك المعبر عنهما بقوله تعالى: "فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ" ، مع ملاحظة أن القرآن الكريم قد عبر بقوله تعالى "إِلَّا قَلِيلًا

مِّمَّا تَأْكُلُونَ " ولم يقل إلا ما تأكلون ، حتى لا تذهب النفس في مأكلها – مطعمًا ومشربًا – كل مذهب أو تسرف في ذلك إسرافًا ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مَا مَلأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ ، فَثُلُثُ طَعَامٍ ، وَثُلُثُ شَرَابٍ ، وَثُلُثٌ لِنَفْسِهِ. "(مسند أحمد) .

* * *

الإمــام العــادل

لا شك في أن الإمام العادل أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ الله وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ" (متفق عليه).

ولفظ الإمام العادل يشمل كل من ولي أمر مجموعة من الناس في شأن من شئون دينهم أو شئون دنياهم ، فهو راع لهم ومسئول عنهم أمام الله (عز وجل) ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " كُلُّكُمْ رَاعٍ فَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالأَمِيرُ الَّذِى عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهْىَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ ، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ "(صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ عَشَرَةٍ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ إِلَّا أَتَى اللهَ مَغْلُولًا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ

يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ فَكَّهُ بِرُّهُ أَوْ أَوْبَقَهُ إِثْمُهُ أَوَّلُهَا مَلَامَةٌ ، وَأَوْسَطُهَا نَدَامَةٌ وَآخِرُهَا خِزْيٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " (مسند أحمد)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): «إِنَّ اللهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحَفِظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَ؟ حَتَّى يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ»(سنن النسائي).

على أن أمانة العمل العام ثقيلة حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) لسيدنا أبي ذر (رضي الله عنه): يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْىٌ وَنَدَامَةٌ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِى عَلَيْهِ فِيهَا»(صحيح مسلم) أي أدى الذي عليه فيها من النهوض بتبعاتها ، وعدم التقصير في حق ما كلف به أو ولاه الله إياه ، وإذا كان عاقبة من قصر في حمل هذه الأمانة هو الخزي والندامة يوم القيامة فإن جزاء من وفَّ بحقها وأدى الذي عليه فيها هو إكرام الله (عز وجل) له بأن يظله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، بل إنه يكون في مقدمة من يشمله الله (عز وجل) بهذا الفضل العظيم والكرم العميم .

وقد دعانا الإسلام إلى إكرام ذي السلطان العادل المقسط الذي يتقي الله (عز وجل) في شئون رعيته ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) «إِنَّ مِنْ إِجْلاَلِ اللهِ إِكْرَامَ ذِى الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِى فِيهِ وَالْجَافِى عَنْهُ وَإِكْرَامَ ذِى السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ » (سنن أبي داود)، والمقسط اسم فاعل من

أقسط ، والهمزة في أقسط هي همزة التعدية ومنها أزال القَسْط بالفتح أي أزال الظلم ، فهو لم يكتف بتحقيق العدل ، وإنما اجتهد في رفع الظلم عن المظلومين وإنصافهم ، ناهيك عن سعيه لقضاء حوائج الناس ، وسهره على راحتهم ، وعمله على ما يصلح أمور دينهم ودنياهم ، مثل هذا يستحق الدعاء والإعانة ، وهذا سيدنا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) يقول: أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.

ولهذا جاء عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)، أي: إن كثيراً من الناس لا تؤثر فيه القوارع والزواجر بالقرآن ولا تحرك به لهم ساكناً، ولكنه الخوف من العصا والسوط والأدب، وإذا كان رب العزة قد قال في كتابه العزيز: " أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا " (المائدة: ٣٢)، فإنه أيضًا قد قال في الآية نفسها: " وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا"، وبما أن الإحياء هنا لا يمكن أن يكون على حقيقته إنما هو مجاز عن العمل على بقائها حية ، بتوفير سبل العيش الكريم لها ، فكل من سد جوعتها ، وستر عورتها ، وكف الشر عنها سواء أكان ذلك بدفع أذى وشر الإرهاب والإرهابيين عن عباد الله الآمنين ، أم كان بصورة غير مباشرة ، كتوفير مياه

نقية ، أو كتعبيد الطرق ، بما يترتب عليه من تقليل نسب الحوادث ، فتقل نسبة الوفيات ، فكل ذلك بمثابة إحياء للنفس .

مع تأكيدنا أنه لا يكفي في الحاكم مجرد العدل دون امتلاك سائر مقومات الوفاء بالأمر من القوة والكفاءة ، والكياسة والأمانة ، ولا سيما في ظل حياتنا العصرية بما فيها من تعقيدات وتداخلات تحتاج إلى خبرات غير عادية للوفاء بحمل أمانة دولة أو حتى مؤسسة ، إذ لا بد من توافر صفات ومقومات تفصيلية وفق طبيعة المهمة التي توكل إلى قائد أو مسئول ودرجة المسئولية وحساسية المهام المنوطة بها ، ومن أهمها: التفاني والإخلاص في العمل ، والقدرة على تحمل الضغوط ، والتعامل مع الأزمات وحسن معالجتها ، والرؤية السياسية ، والإلمام بمتطلبات الأمن القومي ، والقدرة على العمل بروح الفريق ، والتميز في مستوى الوعي والثقافة العامة ، وتنفيذ المهام .

* * *

المكر السيئ

يقول الحق سبحانه: " اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ" (فاطر: ٤٣) ، أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم ، ويقول سبحانه: "وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله واللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" (الأنفال: ٣٠) ، ويقول سبحانه: "وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ الله مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ فَلَا تَحْسَبَنَّ الله مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ الله عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ " (إبراهيم: ٤٦ ، ٤٧) .

ويقول سبحانه في شأن من تآمروا من قوم سيدنا صالح (عليه السلام) على قتله: " وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ" (النمل: ٤٨ – ٥٣) ، على أن عاقبة المكر وخيمة مدمرة ، حيث يقول الحق سبحانه: "قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى الله بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ" (النحل: ٢٦) ، وكان سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول: "لست بالخِبّ ولكن الخِبَّ

لا يخدعُني" ، أي لست بالخداع ولكن الأكثر خداعًا لا يتمكن من خداعي ، وكان المغيرة بن شعبة داهية من دواهي العرب في الفطنة والذكاء ، وكان يقول: لولا الإسلام لمكرت مكرًا لا تطيقه جزيرة العرب ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ خِبٌّ وَلَا مَنَّانٌ وَلَا بَخِيلٌ" (سنن التِّرْمِذِيُّ وَفَرَّقَهُ حَدِيثَيْنِ)، وعن قيس بن سعد بن عبادة (رضي الله عنهما) قال: لولا أني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: "المكر والخديعة في النار" لكنت من أمكر الناس (شعب الإيمان) ، قال محمد بن كعب القرظي: ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به: من مكر أو بغى أو نكث ، وتصديقها في كتاب الله تعالى: " وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ" (فاطر: ٤٣) ، ويقول سبحانه: " إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ" (يونس: ٢٣) ، ويقول سبحانه: " فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ" (الفتح: ١٠).

ويقولون: من حفر لأخيه بئرًا وقع فيها ، وإذا كنا نقول على مستوى الأفراد يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر ، فإن الأمر أيضا يتوجه إلى الجماعات والدول الداعمة للإرهاب والراعية له ، نقول: استحوا من الله في هذا الشهر ، استحوا من سفك الدماء في الأرض فإن الله (عز وجل) لا يصلح عمل المفسدين .

* * *

السماحة والتيسير

السماحة خُلق أصيل في ديننا وفي ثقافتنا وفي تكويننا وفطرتنا ، وجيناتنا الوراثية ، فكتاب ربنا (عز وجل) يدعو إلى العفو والتسامح ، حيث يقول سبحانه: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ" (الأعراف: ١٩٩)، ويقول سبحانه: "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا"(الفرقان: ٦٣) ، ويقول سبحانه: "وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (النور: ٢٢) ، ويقول سبحانه: "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" (فصلت: ٣٤،٣٥)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "رَحِمَ الله رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ ، وَإِذَا اشْتَرَى ، وَإِذَا اقْتَضَى" (صحيح البخاري)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ بِسَمَاحَتِهِ قَاضِيًا وَمُتَقَاضِيًا"(مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ" (صحيح مسلم)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " اللهمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ

أُمَّتِى شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ" (صحيح مسلم) .

مع تأكيدنا على أن تحديد المصطلحات وبيان مفهومها بمنتهى الدقة أمر في غاية الأهمية ، إذ ينبغي أن تكون التعريفات جامعة مانعة كاشفة دفعًا للوهم والالتباس ، فتحت مسمى الالتزام والأحوط والاحتياط فتحت أبواب التشدد التي ساقت وجرفت الكثيرين في طريق التطرف ، حتى ظن الجاهلون أن التحوط في التدين يقتضي الأخذ بالأشد ، وأن من يتشدد أكثر هو الأكثر تدينًا وخوفًا من الله (عز وجل) ، مع أن الإسراع في التحريم دون تيقن ودليل قاطع أمر يحسنه الجاهلون والمتطرفون ، أما الفقه الحقيقي فهو رخصة من ثقة ، وهو التيسير بدليل ، وهو السماحة بيعا وشراء ، وقضاء واقتضاء ، وإيمانا بحق التنوع والاختلاف ، ولم يقل أحد من أهل العلم المعتبرين إن الفقه هو التشدد ؛ ذلك لأن الله (عز وجل) يقول: "يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ" (البقرة: ١٨٥) ، ويقول سبحانه : "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ" (الحج: ٧٨) .

* * *

□

النبي القدوة (صلى الله عليه وسلم)

كان نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) أحسن الناس خُلقاً ، وأصفاهم نفسًا ، وأحسنهم معاملة ، وكان (صلى الله عليه وسلم) خير الناس لأهله ، فكان نعم الزوج ، ونعم الأب ، ونعم الجد ، فهذه زوجه خديجة (رضي الله عنها) تصفه (صلى الله عليه وسلم) فتقول: " إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ " (متفق عليه)، وها هو (صلى الله عليه وسلم) يحفظ لها عهدها ، ذلك أن عجوزًا كانت تزوره (صلى الله عليه وسلم) فيقوم لها ويكرم وفادتها ، فلما سألته السيدة عائشة (رضي الله عنها) عن سر إكرامه لها ، قال (صلى الله عليه وسلم): "إنها كانت تأتينا على عهد خديجة" (مستدرك الحاكم)، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول: "مَا أَبْدَلَنِي الله عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا ، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ ، وَرَزَقَنِي الله عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ" (مسند أحمد).

وكان (صلى الله عليه وسلم) يعين أهله ويساعدهم في حاجتهم وفي شئون البيت ، تقول السيدة عائشة (رضي الله عنها) كان (صلى الله عليه

وسلم): كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، قَالَتْ:" وَكَانَ يَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ" (مسند أحمد) ، وسأل رجل السيدة عائشة (رضي الله عنها) ما كان النبي(صلى الله عليه وسلم) يصنع في بيته؟ قالت: "كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج إلى الصلاة" (صحيح مسلم) ، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) أن النَّبِيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ) قَالَ : "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي" (سنن الترمذي) .

وكان (صلى الله عليه وسلم) خير الناس لأمته ، حيث يقول: " مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ" (الأحزاب: ٦) ، فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا ، فَإِنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ" (صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا" (صحيح مسلم) ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) "أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) تَلَا قَوْلَ اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ) فِي إِبْرَاهِيمَ: " رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (إبراهيم:٣٦) ، وَقَالَ عِيسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ): " إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (المائدة:١١٨) ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: " اللَّهُمَّ، أُمَّتِي أُمَّتِي" وَبَكَى ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ" (صحيح مسلم) .

وقد كان (صلى الله عليه وسلم) أحفظ الناس للعهود ، وأوفاهم بالمواثيق ، وأكثرهم أداء للأمانات ، ومن ثمة ترك الإمام علي (رضي الله عنه) ليلة الهجرة ليؤدي الأمانات لأصحابها من أهل مكة ، وهم الذين آذوه وأخرجوه وحاولوا قتله ، ولكن لم يقابل (صلى الله عليه وسلم) السيئة إلا بالتي هي أحسن .

* * *

الخيانة والنفاق

الخيانة داء لا يتسق مع الدين ولا مع الوطنية ولا الإنسانية السوية ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (الأنفال: ٢٧) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ" (صحيح ابن حبان)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ" (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا ، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ"(متفق عليه)، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال، أو خصلة واحدة منها كان منافقًا ، لأن هذه الصفات الذميمة مهلكة للأفراد ومدمرة للأمم والمجتمعات .

فكثيرًا ما نرى المنافق يكذب ليوهم الغير بصدق قوله وفعله، قال تعالى: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ" (البقرة: ٢٠٤) ، فإذا ذُكر النفاق والخداع وخيانة الأمانة في القرآن الكريم ذُكر معه الكذب ، قال تعالى : "يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ" (البقرة: ٩، ١٠).

وقد حذر نبينا (صلى الله عليه وسلم) من الكذب مبينًا آثاره قائلًا: (وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا)(متفق عليه)، وسئل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: (نَعَمْ)، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟ فَقَالَ: (نَعَمْ)، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ: (لَا) (شعب الإيمان). ووصف أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) الكذب بالخيانة ، في قوله: (الصّدْقُ أَمَانَةٌ وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ ...) ؛ وذلك لأن النفاق داء قتَّال ، وله من جذره اللغوي نصيب ، يقال: نفقت الدابة أو الطير إذا ماتت ، فالنفاق موت للقلب ، وموت للضمير ، وموت للأخلاق، وموت للقيم ، وموت للروح .

والنفاق نوعان: عقدي ، وعملي ، أما العقدي فهو أن يُظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره ، ويبطن خلاف ذلك كله أو بعضه ، ويسميه بعض العلماء النفاق الأكبر ، ويقول رب العزة سبحانه وتعالى في شأن المنافقين: "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا " (النساء: ١٤٥) ، لأن هؤلاء المنافقين كانوا أكثر شرًا وضررًا على الإسلام والمسلمين من الكفار والمشركين.

والنوع الثاني: هو ما يعرف بالنفاق العملي ، وقد عرفه ابن حجر (رحمه الله) بأنه إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها ، ومنه تجويد العبادة في العلن مراءاة للناس ، وقال عنه الإمام الغزالي (رحمه الله): "هو طلب المنزلة في قلوب الناس بأن يريهم الخصال المحمودة من نفسه ، ليحمدوه " ، فينال بذلك منزلة أو مكانة أو نفعًا أو ثناءً ، وهذا النوع من النفاق محبط للعمل مُذهب بثوابه ، ففي الحديث القدسي يقول رب العزة: "أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ" ، وفي رواية أخرى: "فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ" (صحيح مسلم) .

وللنفاق العملي علامات ، من أبرزها: الكذب في الحديث ، وخلف الوعد والعهد ، وخيانة الأمانة ، والفجور في الخصومة .

ومن أخص علامات النفاق: الإفساد في الأرض ، والكسل عند أداء الطاعة والعبادة ، ومراءاة الناس بها أو بتجويدها والتظاهر بإتقانها على عكس ما يكون في خلوته أو بعده عن الناس ، حيث يقول الحق سبحانه: "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَّ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَّ إِلَّا قَلِيلًا" (النساء: ١٤٢) ، ويقول سبحانه: "وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهَّ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ

الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ " (التوبة: ٥٤) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ" قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ ؟ قَالَ: "يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ جَاهِدًا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ"(مسند أحمد) ، وكان سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول: من أبدى فوق ما في قلبه فهو منافق.

وقد توعد الحق سبحانه وتعالى المنافقين بالعذاب المقيم ، فقال سبحانه: " وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ " (التوبة: ٦٨) ، بل إن النص القرآني قدم ذكر المنافقين والمنافقات على المشركين والمشركات في باب العذاب ، فقال سبحانه: "لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" (الأحزاب:٧٣) ، ويقول سبحانه وتعالى: "وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا" (الفتح: ٦).

ومن علامات النفاق وأماراته: التحالف مع الأعداء والتواصل معهم على حساب الدين والوطن ، بالتجسس والخيانة ، ونقل الأخبار

والمعلومات ، والإفصاح عن أسرار الوطن ، فالمنافق عميل يوالي أعداء وطنه على حساب أهله وجيرانه وأقربائه ، على أن من باع وطنه باع دينه وعرضه وشرفه ، ومن لا خير لوطنه فيه فلا خير له في نفسه.

وقد بيَّن النبي (صلى الله عليه وسلم) أن خيانة الأمانة تكون على صاحبها يوم القيامة خزيًا وندامة ، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (إِذَا جَمَعَ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ فَقِيلَ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَن) (صحيح مسلم)، ويكون (صلى الله عليه وسلم) خصيمه يوم القيامة، حيث قال : (ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُوفِهِ أَجْرَهُ) (مسند أحمد) .

ومن أخطر أنواع الخيانة خيانة الأوطان وبيعها بثمن بخس وعرض زائل من الدنيا على نحو ما تقوم به الجماعات المتطرفة ومن يوالونها أو يسيرون في ركابها وعلى نهجها في بيع أوطانهم بثمن بخس ، ذلك لأن الخونة أخطر على الأوطان من الأعداء ، فما من دولة سقطت على مدار التاريخ إلا كان وراء سقوطها خيانة وعمالة بعض الحاقدين من أبنائها ، فالعمالة والخيانة هما أخطر ما يهدد كيان الدول ووجودها.

* * *

□

عادات محمودة وأخرى مرفوضة
في الأعيـــاد

لكل قوم عاداتهم في أعيادهم ومناسباتهم وسائر شئون حياتهم ، غير أن بعض العادات قد يكون إيجابيًا محمودًا يحتاج إلى دعمه وترسيخه ، وبعضها قد يحتاج إلى تقويمه وتهذيبه ، في حين يكون بعضها مرفوضًا ينبغي اجتنابه والتحذير منه ، ومن العادات الطيبة المقبولة في العيد وغيرها من المناسبات:

١- التزاور وصلة الأرحام ، حيث يقول الله تعالى: " وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ" (الرعد: ٢١) ، وعن عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه) أنه سمع نبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول: " قال الله(عز وجل): « قَالَ اللهُ أَنَا اللهُ وَأَنَا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا مِنَ اسْمِى فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ » (سنن الترمذي).

٢- التوسعة على الفقراء والمساكين ، حيث يقول سبحانه وتعالى: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ) (آل عمران:٩٢) ، حتى يجد الفقير ما يوسع به على أهله من المأكل الحلال والمشرب الطيب في يوم العيد ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "أَغْنُوهُمْ عَنْ طَوَافِ هَذَا الْيَوْمِ" (سنن البيهقي) ، ولفظ الإغناء يتطلب

التوسعة عليهم بما يحقق لهم الكفاية والاستغناء في هذا اليوم ، ويحق للمتصدق الثواب العظيم في الدنيا والآخرة ، حيث يقول الحق سبحانه: "مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ " (البقرة ٢٦١) .

٣- التوسعة على الأهل في غير إسراف يقول الحق سبحانه:" يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " (الأعراف:٣١) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم):" كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ ، وَلاَ مَخِيلَةٍ"(صحيح البخاري).

الصلح بين الناس وإنهاء الخصومات ، فإنَّ الإصلاح بين الناس وإنهاء النزاعات، وإشاعة طمأنينة النفس من الأخلاق الإسلامية الحميدة ، يقول الله(عز وجل): " لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا " (النساء:١١٤).

ومن العادات السيئة:

١- الإسراف والتبذير ، وهي أعمال لا يحبُّها الإسلام ، حيث يقول الله (عز وجل): " إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " (الأعراف: ٣١) ، ويقول سبحانه : "وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا"(الإسراء: ٢٦).

٢- ممارسة الأطفال لبعض الألعاب الخطرة ، كالألعاب النارية ونحوها، مما يجب تحذيرهم منها وتنبيههم إلى خطورتها .

٣- بعض مظاهر الشباب الاحتفالية غير المنضبطة كتلك المظاهر التي تصاحب أفراح الأعياد من سباق السيارات أو إطلاق النار العشوائي ونحو ذلك ، فهذه الأمور وما شاكلها يمكن أن تودي بحياة بعض الناس ، وتفجع أهلهم به وتحول الأفراح إلى مآتم وأحزان .

٤- قيام بعض القوم بإحياء ذكرى الأحزان المؤلمة ، كإقامة عزاء أول عيد للميت على غير شرع ولا سنة ، وزيارة بعض النساء للمقابر لا للموعظة وإنما للندب والنواح على موتاهم ، إذ لا ينبغي تحويل فرحة العيد والبهجة بنعم الله على عباده إلى مآتم لا أصل لها في كتاب أو سنة .

* * *

العلم المطلق والعلم النسبي

العلم المطلق لله وحده ، فهو وحده علام الغيوب ، حيث يقول سبحانه: "عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا " (الجن : ٢٦،٢٧) ، ويقول سبحانه: "وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" (الأنعام : ٥٩) ، ويقول سبحانه : "إِنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (لقمان : ٣٤) .

وإذا كان هناك من يقول إن الأطباء الآن يستطيعون معرفة نوع الجنين قبل مولده ، نقول هذا نوع من العلم النسبي ، فالطبيب قد يعرف شيئًا يسيرًا عن الجنين كحجمه أو نوعه ونحو ذلك ، لكنه لا يعرف كل شيء عن الجنين ، حتى وإن تقدم الطب وعرف أشياء أكثر ، فإن علم الأطباء يظل نسبيًّا محصورًا إلى جانب علم الله (عز وجل) الشامل الذي يعرف كل ما في الأرحام، وكل شأن من شئونها ، يقول سبحانه: " وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ " (فاطر: ١١) ثم علينا أن نكمل الآية " ومَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا

تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ " (لقمان: ٣٤) ، فمن ذا الذي يمكن أن يعرف متى وأين يموت ؟ ، فعلم الله مطلق ، وعلم الخلق نسبي .

على أن الله (عز وجل) قد منَّ على بعض خلقه بشيء من العلم اللدني ، حيث يقول سبحانه في شأن الخضر (عليه السلام): " فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا " (الكهف: ٦٥) ، ويقول سبحانه في شأن سيدنا سليمان (عليه السلام): " فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا " (الأنبياء: ٧٩) ، ويقول سبحانه:" يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا " (مريم: ١٢) ، على أن ذلك كله يظل في إطار قوله تعالى:" وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" (الإسراء: ٨٥) .

أما العلم النسبي الكسبي فيأتي بالتعلم والتقوى حيث يقول سبحانه: " وَاتَّقُوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله وَ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " (البقرة: ٢٨٢) ويقول نبينا صلى الله عليه وسلم: مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ واللهُ الْمُعْطِي وَأَنَا الْقَاسِمُ .." (متفق عليه) ، وقد قالوا: أعط العلم كلاً يعطك العلم بعضًا ، فإن أعطيت العلم بعضًا لم يعطك العلم شيئا ، فالعلم بالتعلم، والفقه بالتفقه ، ولا بد لهما من صبر واحتمال ، يقول الشاعر:

ومنْ لم يذق مرَّ التعلمِ ساعةً

تجرَّعَ ذلَّ الجهل طولَ حياته

وقد حثنا ديننا الحنيف على طلب العلم وأعلى من شأنه وشأن العلماء ، حيث يقول الحق سبحانه: " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ " (الزمر: ٩) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " منْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ علْمًا سهَّل اللهَّ له طَرِيقًا إِلَى الجنةِ، وَإِنَّ الملائِكَةَ لَتَضَعُ أجْنِحَتَهَا لِطالب الْعِلْمِ رِضًا بِما يَصْنَعُ ، وَإِنَّ الْعالِمِ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ منْ فِي السَّمَواتِ ومنْ فِي الأَرْضِ حتَّى الحِيتانُ في الماءِ ، وفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعابِدِ كَفَضْلِ الْقَمر عَلى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وإِنَّ الْعُلَماءَ وَرَثَةُ الأنْبياءِ ، وإِنَّ الأنْبياءَ لَمْ يُورِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا ، وإنَّما ورَّثُوا الْعِلْمَ، فَمنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحظٍّ وَافِرٍ "(سنن الترمذي) .

* * *

هذا هو الإسلام

الإسلام قطعة ذهب لا تحتاج أكثر من أن نجلي ما علق بها أو ران عليها من بعض الغبار المتطاير ، أو حتى المتراكم ؛ لأن المعادن النفيسة لا تصدأ ؛ ولا يصيبها العطب مهما كانت عوامل الزمن وتداعياته وأحداثه وتراكماته .

لن نجد تعريفًا للإسلام في معناه العام أو معناه الخاص أفضل مما عرّفه به سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فعن سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِى عَنِ الإِسْلاَمِ. فَقَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : "الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِىَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً. .." (صحيح مسلم)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " أَلَا أُخْبِرُكُمْ مَنِ الْمُسْلِمُ؟ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ،

وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ" (مسند أحمد).

فعلى الرغم مما أصاب صورة الإسلام من جرّاء الجماعات الإجرامية المتطرفة إلا أنه بفضل الله (عز وجل) ثم بفضل أبنائه المخلصين وعلمائه المتخصصين قادر على محو آثار ذلك كله ، وأن يتحدث عن نفسه ، وأن يعبر عن حقيقته العظيمة السمحة الحضارية الإنسانية النقية ، المتسقة مع فطرة الله التي فطر الناس عليها ، القائمة على أنه حيث تكون المصلحة فثمة شرع الله ، وعلى أنه دين الرحمة والأمن والأمان والسلام للعالم كله ، حيث يقول الحق سبحانه : "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ " (الانبياء: ١٠٧) .

الإسلام دين السلام ويدعو إليه ويعلي من شأنه حيث يقول الحق سبحانه:" وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا " (النساء: ٩٤)، ويقول سبحانه: " وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا " (النساء: ٨٦) ، فتحية الإسلام السلام، وتحية أهل الجنة في الجنة السلام ، حيث يقول الحق سبحانه: " وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ " (الرعد: ٢٣-٢٤) .

الإسلام دين يدعو إلى الصلاح والإصلاح وسبيل الرشاد ، حيث يقول سبحانه: "وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْـمُصْلِحِينَ "(الأعراف: ١٧٠) ، ويقول سبحانه: " إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ " (هود: ٨٨) ، ويقول سبحانه : "وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ" (هود: ١١٧) ، ويقول سبحانه: " لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ الله فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً " (النساء: ١١٤) .

إن دينًا يحفظ للإنسان كرامته ، فينهى عن الغيبة ، والنميمة ، والتحاسد ، والتباغض ، والاحتقار ، وسوء الظن لهو دين عظيم ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ " (الحجرات: ١١) .

فالمسلم الحقيقي هو من يكون سلمًا مع البشر ، سلمًا مع الحجر ، سلمًا من الكون كله ، فلا يقتل ، ولا يهدم ، ولا يخون ، ولا يؤذي أحدًا ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): وَالله لاَ يُؤْمِنُ ، وَالله لاَ يُؤْمِنُ ، وَالله لاَ يُؤْمِنُ ، قِيلَ

مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ ، قِيلَ: وَمَا بَوَائِقُهُ؟ قَالَ: شَرُّهُ" (متفق عليه) ، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قِيلَ لِلنَّبِيِّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : إِنَّ فُلَانَةَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ، وَتَفْعَلُ، وَتَصَدَّقُ، وَتُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا خَيْرَ فِيهَا ، هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ " قِيلَ: وَفُلَانَةُ تُصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ ، وَتَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ، وَلَا تُؤْذِي أَحَدًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " هِيَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ" (شعب الإيمان) ، وذكر نبينا (صلى الله عليه وسلم): " عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ لاَ أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا ، وَلاَ سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا ، وَلاَ أَنْتِ أَرْسَلْتِيهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ" (متفق عليه) .

والإسلام دين يمنع الظلم والغش ، ولو مع أعدائه ، ويحرم سائر الممارسات الاحتكارية فهو دين عظيم ، حيث يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي: " يَا عِبَادِي إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ، فَلاَ تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي

إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّى فَتَضُرُّونِى وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِى فَتَنْفَعُونِي ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِى مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئًا ، يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِى إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِى إِنَّمَا هِىَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ الله وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ " (صحيح مسلم) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ " (صحيح مسلم) .

وأخيرًا نستطيع أن نقول : إن الإسلام قضية عادلة ودين عظيم ، وأنه وإن تعرض للهجوم من أعدائه فإن المخلصين من أبنائه قادرون بإذن الله (عز وجل) على تجلية الغبار عنه وعرضه عرضًا صحيحًا من خلال البلاغ الواضح المبين ، الفاهم لفقه المقاصد ، وفقه الواقع ، وفقه المتاح ، وفقه الأولويات ، فهمًا يؤهل صاحبه للوفاء بواجب هذا الدين العظيم بما يحمله

لصالح الإنسانية جمعاء من سبل السعادة والرقي وما يحمله لمن يعمل به من خير الدارين الدنيا والآخرة .

* * *

الآداب العامة

الأمم المتحضرة ، والدول الراقية هي التي تجعل مراعاة الآداب العامة منهج حياة ، ولا تعد هذه الآداب من نافلة القول أو على هامش الحياة.

الآداب العامة لا تنفك من منظومة القيم والأخلاق والإنسانية من النظافة ، والنظام ، والمروءة ، والشهامة ، والنبل ، واحترام الكبير ، وإكرام المرأة ، والشفقة بالصغير والضعيف ، وذوي الهمم ، والذوق الرفيع ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) لما قَالُوا له:".. فَمَنْ أَحَبُّ عِبَادِ اللهِ إِلَى اللهِ ؟ قَالَ: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا " (المستدرك للحاكم) .

ولا شك أن الحياء -كخلق- أحد أهم أعمدة الآداب العامة ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ " (صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " الْمَسَائِلُ كُدُوحٌ يَكْدَحُ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ ، فَمَنْ شَاءَ أَبْقَى عَلَى وَجْهِهِ ، وَمَنْ شَاءَ تَرَكَ ، إِلاَّ أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ ذَا سُلْطَانٍ ، أَوْ فِي أَمْرٍ لاَ يَجِدُ مِنْهُ بُدًّا. "(سنن أبي داود) ، ويقول الشاعر:

إذا قلّ ماءُ الوجه قلّ حياؤه

ولا خيرَ في وجه إذا قلّ ماؤه

حياءَك فاحفظه عليك وإنّما

يدل على فعل الكريم حياؤه

ويقول عنترة:

يخبرك من شهد الـــوقيعة أنني

أغشى الوغى وأعف عند المغنمِ

فأرى مغانم لو أشاء حـــويتها

فيبعدني عنها الحيـــا وتكرّمي

ويقول الإمام علي (رضي الله عنه):

لنقلُ الصـــــخر من قمم الجبال

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِنَنِ الرَّجَــــــالِ

يَقُولُ النَّاسُ لي في الــكسْبِ عارٌ

فقلت الـعـــــــار في ذل السؤال

ومن الآداب العامة الحفاظ على الطرقات والأماكن العامة وعدم الظهور فيها بما لا يليق ، وتركها أفضل مما كانت ، والإسهام في نظافتها وتنجيلها ، وكذلك أفنية المنازل ومداخلها وأسطحها ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ" (صحيح مسلم) .

ومن الآداب العامة تخير الكلمة في مخاطبة الناس ، بحيث تكون بالتي هي أحسن ، يقول الحق سبحانه: "وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا " (البقرة: ٨٣).

ومن الآداب العامة عدم استخدام ما يخص أي شخص دون إذن ولو كان ذلك شيئًا يسيرًا من قلم ومناشف ومسبحة ونحو ذلك .

ومن الآداب العامة احترام الخصوصيات ، وعدم تدخل الإنسان فيما لا يعنيه ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ" (سنن الترمذي) ، وقد قالوا: من تدخل فيما لا يعنيه سمع مالا يرضيه .

ومن الآداب العامة أيضًا عدم الحديث في شيء دون علم أو دراية ؛ حتى لا يجعل الإنسان نفسه مجالاً للنكتة أو التندر أو السخرية .

ومن الآداب العامة مراعاة الذوق العام في الحركة واللباس ، والحفاظ على آداب الطعام والشراب والنوم ، والتحلي بكل مقومات المروءة والشهامة والنبل ، وكَانَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) إِذَا أَتَى بَابَ قَوْمٍ لَمْ يَسْتَقْبِلِ الْبَابَ مِنْ تِلْقَاءِ وَجْهِهِ وَلَكِنْ مِنْ رُكْنِهِ الأَيْمَنِ أَوِ الأَيْسَرِ وَيَقُولُ : السَّلاَمُ عَلَيْكُمُ السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ الدُّورَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ سُتُورٌ" (سنن أبي داود).

ومن الآداب العامة إعانة الضعيف والأخذ بيده ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): ".. وَتَسْعَى بِشِدَّةِ سَاقَيْكَ مَعَ اللَّهْفَانِ الْمُسْتَغِيثِ، وَتَحْمِلُ بِشِدَّةِ ذِرَاعَيْكَ مَعَ الضَّعِيفِ، فَهَذَا كُلُّهُ صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ" (أخرجه أحمد) .

* * *

الأدب مع سيدنا رسول الله
(صلى الله عليه وسلم)

الأدب مع سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقتضي أمورًا كثيرة، منها:

١-عدم ذكر اسمه (صلى الله عليه وسلم) مجردًا عما يليق به من الوصف بالنبوة أو الرسالة أو الصلاة والسلام عليه، سواء عند ذكره (صلى الله عليه وسلم) أو عند سماع اسمه (عليه الصلاة والسلام) ، أو كتابة اسمه المبارك (صلى الله عليه وسلم)، بالغًا ما بلغ عدد مرات الكتابة أو الذكر ، فذلك من أخص علامات حب سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهذا ما يعلمنا إياه القرآن الكريم ؛ حيث جاء الخطاب الإلهي له (صلى الله عليه وسلم) مقرونًا بشرف الرسالة أو النبوة ، أو صفة إكرام وتفضل وملاطفة على نحو قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ " (المائدة : ٤١) ، "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ" (الأنفال: ٦٤) ، "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ " (المدثر :١) ، "يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ"(المزمل:١).

٢- الإكثار من الصلاة والسلام عليه (صلى الله عليه وسلم) حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: "إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا" (الأحزاب: ٥٦).

يقول ابن كثير (رحمه الله): وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ عِبَادَهُ بِمَنْزِلَةِ عَبْدِهِ وَنَبِيِّهِ عِنْدَهُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، بِأَنَّهُ يُثْنِي عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَيْهِ. ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى أَهْلَ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ ؛ لِيَجْتَمِعَ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِينَ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ جَمِيعًا.

ومن لزوم الأدب معه (صلى الله عليه وسلم) عدم اختصار صيغة الصلاة والسلام عليه (صلى الله عليه وسلم) عند الكتابة إلى (ص) أو (صلعم) ؛ إذ ينبغي لنا كتابتها كاملة ؛ حتى لا يحرم كاتبها من ثوابها الوفير وفضائلها العظيمة .

٣- عدم التعامل معه (صلى الله عليه وسلم) كما يتعامل بعضنا مع بعض؛ حيث يقول الحق سبحانه: "لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا" (النور: ٦٣) ، وهو ما يقتضي أيضًا ألا نتعامل مع سنته كما نتعامل مع كلام بعضنا البعض ، وهو ما أكد عليه كبار الفقهاء والعلماء ؛ حيث يقول الإمام مالك (رحمه الله): ليس أحد بعد النبي (صلى الله عليه وسلم) إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا النبي (صلى الله عليه وسلم).

ويقول الإمام الشافعي (رحمه الله): إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقولوا بسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ودعوا ما قلت .

٤- التزام أقصى درجات الأدب والوقار في مسجده (صلى الله عليه وسلم) ولا شك أن حرمة جوار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ميتًا كحرمة جواره حيًا ، وقد سمع الإمام مالك بن أنس (رضي الله عنه) رجلا يرفع صوته في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقال يا هذا ، الزم الأدب في حضرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فإن الله (عز وجل) قد مدح أقوامًا فقال : "إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ" (الحجرات : ٣) ، وذم أقوامًا فقال : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ" (الحجرات: ٢) ، وإن حرمة رسول الله ميتا كحرمته حيًّا .

* * *

□

□

الـكيل والمـــــيزان

عنى الإسلام بالحقوق المالية عناية خاصة ، حيث يقول الحق سبحانه: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا " (النساء: ٢٩) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "إن رجالا يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة" (صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امرئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ الله لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ" فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئا يَسِيراً، يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ: "وَإِنْ قَضِيبا مِنْ أَرَاكٍ " (صحيح مسلم) .

ومن الحقوق التي عني بها الإسلام عناية كبيرة ، وأفرد لها القرآن الكريم سورة خاصة حقوق الكيل والميزان ، وذلك في سورة "المطففين" حيث يحذرنا الحق سبحانه وتعالى فيها أيما تحذير من تطفيف الكيل والميزان، فيقول سبحانه: "وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ"(المطففين: ١-٦).

ودارت قصة سيدنا شعيب عليه السلام في مجملها حول قضية الوفاء بالكيل والميزان ، وعدم بخس الناس حقوقهم ، حيث يقول الحق سبحانه: "وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ* وَيا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ* بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ" (هود: ٨٤-٨٦) .

ومن الوصايا العشر في سورة الأنعام التي قال عنها سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) : إنها آيات محكمات ، لم تنسخ في أي ملة من الملل ، أو شريعة من الشرائع الوفاء بالكيل والميزان ، حيث يقول الحق سبحانه: "وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" (الأنعام: ١٥٢) .

ويقول سبحانه: "أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ " (الشعراء: ١٨١-١٨٣) ، وهو من أدق الموازين وأعدلها ، فالعاقل من يزن بالحق والعدل قبل ألا يكون درهم ولا دينار إنما يكون

القصاص من حسنات وسيئات ، حيث يقول نبينا: " مَنْ كَانتْ عِنْدَه مَظْلمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ مِنْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْه مِنْه الْيَوْمَ قَبْلَ أَلَّا يكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ ، إنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمتِهِ ، وإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سيِّئَاتِ صاحِبِهِ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ" (صحيح البخاري).

وقد حضرت أحد الناس الوفاة وكان صاحبه يحدثه في أمور الدنيا فيتحدث ، فإذا استنطقه الشهادتين لم ينطق ، فقال ما بك: فهمس في أذنه: لسان الميزان حبس لساني عن الشهادتين ، أي أن تطفيفه الكيل والميزان هو ما حال دون نطقه الشهادتين ، وقد قالوا: ويل لمن باع جنة عرضها السماوات والأرض بحبة أو حبتين .

وأخطر منه التطفيف المعنوي غشًا أو احتكارًا أو استغلالا لقضاء حوائج الناس ، ولا سيما في أوقات الشدائد والأزمات ، فإذا كان الاحتكار والاستغلال مذمومين على كل حال ، فإنهما في أوقات الشدائد والأزمات أكبر إثمًا وأشد جرمًا .

* * *

أعظم رحلة تكريم في تاريخ الإنسانية

تعلمنا من الإسراء والمعراج أن مع العسر يسرًا وبعد الشدة فرجا ، ولا يغلب عسر يسرين ، فحين تداعى أهل الأرض على سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولقي من قومه وأهل الطائف ما لقي فتحت له السماوات العلا أبوابها في أعظم رحلة تكريم في تاريخ الإنسانية ، حيث يقول الحق سبحانه: "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى" (النجم: ١-١٠) .

ولا شك أن رحلة الإسراء والمعراج رحلة ذات أسرار عظيمة ، فهي رحلة فريدة في تاريخ الإنسانية ، جاءت تكريمًا لخاتم الأنبياء والمرسلين ، وتسرية عنه (صلى الله عليه وسلم) بعد أن أصابه من أذى قومه وغيرهم ما أصابه ، ذلك أنه (صلى الله عليه وسلم) بعد أن لقي من مشركي مكة في سبيل إبلاغ دعوة الله (عز وجل) ورسالته ما لقي من الأذى ، خرج إلى الطائف لعله يجد عند أهلها النخوة أو النصرة ، فكانوا أشد أذى وقسوة

عليه (صلى الله عليه وسلم) من بني قومه ، ذلك أنهم سلطوا عليه عبيدهم وصبيانهم يرمونه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه الشريفين ، وتوجه (صلى الله عليه وسلم) إلى ربه (عز وجل) بدعائه الذي سجله التاريخ في سطور من نور: " اللّهُمّ إلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوّتِي ، وَقِلّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ ! أَنْتَ رَبّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبّي ، إلَى مَنْ تَكِلُنِي ؟ إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهّمُنِي ؟ أَمْ إلَى عَدُوّ مَلّكْتَهُ أَمْرِي ؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي ، وَلَكِنّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَك، أَوْ يَحِلّ عَلَيّ سُخْطُكَ ، لَك الْعُتْبَى حَتّى تَرْضَى ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوّةَ إلّا بِك" (المعجم الكبير للطبراني).

هذا الدعاء الذي يحمل كل معاني العبودية والانكسار لله وحده لا لأحد سواه ، ذلك أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) كانت حركاته وسكناته خالصة لله (عز وجل) حيث يقول الحق سبحانه وتعالى مخاطبًا إياه: "قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (الأنعام: ١٦٢) .

على أن مقام العبودية في أسمى معانيها هو الذي سما بالحبيب (صلى الله عليه وسلم) إلى أعلى درجات الرقي والكمال البشري ، حيث يقول الحق سبحانه: " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ" (الإسراء:١) ، فقد عبر النص القرآني بقوله تعالى: " أَسْرَى بِعَبْدِهِ" ، ولم يقل برسوله أو نبيه مع أنه (صلى الله عليه وسلم) خاتم الأنبياء والمرسلين وإمامهم ، حيث يقول الحق سبحانه: " مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ الله وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا" (الأحزاب:٤٠) ، ليدرك الناس جميعًا إلى يوم القيامة قدر مقام العبودية لله (عز وجل) والانكسار له والخضوع بين يديه، فإذا كان مقام النبوة والرسالة قد ختم بخاتم الأنبياء والمرسلين فإن مقام العبودية قائم إلى يوم القيامة في أتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وهذا المقام يعلو بأمرين: الذكر واليقين في الله ، حيث يقول سبحانه وتعالى: "الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ الله أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" (الرعد: ٢٨) ، ومن هنا كان مفتتح سورة الإسراء بهذا التسبيح الرباني "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ" (الإسراء:١) ، ويقول سبحانه في شأن التمكين لأهل الصبر واليقين في الله (عز وجل): "وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ" (السجدة:٢٤) .

إذ علينا أن ندرك ، ونتيقن أن الأمر كله لله ، وَأَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ" (سنن الترمذي)، ويقول سبحانه وتعالى : " مَا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (فاطر: ٢) ،ويقول الحق سبحانه: "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ الله قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِيَ الله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ الله عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ" (الزمر: ٣٨) .

ونتعلم من هذه الرحلة المباركة ألا نجزع عند الشدائد ، إنما نتقي ونصبر ونأخذ بأسباب العلم ، ونعلي قيمة التوكل على الله لا التواكل.

❊ ❊ ❊

القبلة بين الاتباع والفهم

القبلة تعني الوجهة التي يتوجه إليها الإنسان في صلاته ، وهي بيت الله الحرام ، وقد صلى نبينا (صلى الله عليه وسلم) تجاه بيت المقدس كما أمره ربه (عز وجل) نحو ستة عشر شهرًا ، أو سبعة عشر شهرًا ، وكان يقلّب وجهه في السماء رجاء أن يمنّ اللهُ (عز وجل) عليه بالتوجه نحو المسجد الحرام ، فنزل قوله سبحانه : "قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ" (البقرة : ١٤٤) ، وعلى الفور تحول النبي (صلى الله عليه وسلم) وتحول أصحابه معه إلى بيت الله الحرام ، حتى إن من كانوا يصلون في مسجد القبلتين عندما جاءهم الخبر في صلاة العصر وقد صلوا ركعتين تحولوا في الصلاة ذاتها ، فأتموها تجاه المسجد الحرام .

لكن كيف نجمع بين حتمية الاتباع الواردة في قوله تعالى: " فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ "(البقرة: ١٤٤) ، وقوله تعالى: "وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ "(البقرة: ١٥٠) ، التي تلزم المسلم أن تكون

قبلته أين كان وأنى سار تجاه بيت الله الحرام ، حيث يعد استقباله القبلة شرط صحة لا تصح الصلاة بدونه، كيف نجمع بين ذلك وبين قوله تعالى: " لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ "(البقرة: ١٧٧).

نؤكد أن التوجه نحو بيت الله الحرام في الصلاة هو عين الاتباع الذي لا تصح الصلاة بدونه ، لكن الآية الأخيرة جاءت ردًا على من قالوا: ما الذي حوّل محمدًا (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه عن قبلتهم التي كانوا عليه ، وأخذوا يفاضلون بين التوجه إلى بيت المقدس والتوجه إلى بيت الله الحرام ، فجاءت الآية لتؤكد أن الأفضلية لا تتعلق بالتوجه إلى هنا أو هناك ، إنما هي في اتباع أمر الله حيث أراد ، فمن توجه إلى بيت الله الحرام حيث أمر بالتوجه إلى بيت المقدس لم يقبل منه ، ومن توجه إلى بيت المقدس حيث أمر بالتوجه إلى بيت الله الحرام لم يقبل منه ، فالعبرة بالإيمان واتباع الأمر واجتناب النهي لا بذات التوجه.

وذلك إضافة إلى معنيين آخرين: أحدهما الربط الوثيق بين المسجدين ، حيث يظل المسلمون يذكرون إلى يوم القيامة أن المسجد الأقصى هو أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) وموضع معراجه ، فقد ربط القرآن الكريم بين المسجدين برباط وثيق سواء في قضية تحويل القبلة أم في رحلة الإسراء والمعراج ، حيث يقول الحق سبحانه: " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" (الإسراء:١) .

الأمر الثاني: التأكيد على أن العبرة ليست في مجرد توجه الجسد مع غياب القلب ، إنما العبرة الحقيقية بأثر هذا التوجه على السلوك العملي ، فالبر الحقيقي في حسن الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وإيتاء المال – على حبه والتعلق به– مستحقيه من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ابتغاء مرضاة الله تعالى ، مع وفاء الإنسان بعهده وصبره على الشدائد ، وعلى الطاعة حتى تؤدى ، وعن المعصية حتى تجتنب ، أما أن يتوجه الإنسان بجسده ويحرص على الجانب الشكلي للعبادة مع عدم تأثيرها في حياته فهذا عمل المتاجرين بدين الله (عز وجل) .

❊ ❊ ❊

□

رمضان شهر جماع الخير

رمضان شهر الصفاء الروحي بلا منازع ، فهو شهر الإيمان ، وشهر البركات ، وشهر الرحمات ، وشهر النفحات ، من صامه إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قامه إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه ، فيه ليلة خير من ألف شهر هي ليلة القدر ، من قامها إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن فطّر فيه صائمًا فله مثل أجره من غير أن يُنقَص من الصائم شيء ، ومن أدى فيه نافلة كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه .

وهو شهر البر والصلة ، لا مجال فيه للخصام أو الخلاف أو المشاحنة ، يسارع الناس فيه إلى الخيرات بصفة عامة ، وإلى صلة الرحم والصلح بين الناس بصفة خاصة ، وفي الحديث القدسي : "أَنَا الرَّحْمَنُ ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ ، وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنَ اسْمِي ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ ، وَمَنْ قَطَعَهَا قطعته" (سنن الترمذي) ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) اقرءوا إن شئتم قول الله تعالى:" فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ الله فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا"(محمد: ٢٢ـ ٢٤) .

وهو شهر الجـود والسخـاء ، فقـد كان نبينـا (صلى الله عليه وسلم) أجـود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان ، وهو القائل : " مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللهمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَيَقُولُ الآخَرُ: اللهمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا " (متفق عليه) ، ويقول الحق سبحانه وتعالى: " هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ الله فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ واللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ "(محمد: ٣٨).

وهو شهر القرآن ، وشهر الذكر ، وشهر الدعاء ، وليس ذلك كله بالأمر اليسير ، إنما هو أمر لو تعلمون عظيم ، فأهل القرآن هم أهل الله وخاصته ، وبالذكر تطمئن القلوب ، يقول سبحانه: "الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ " (الرعد: ٢٨)، ومن رُزق الدعاء رُزق الإجابة ؛ لأن الله (عز وجل) حييٌّ كريم يستحي إذا رفع العبد يديه أن يردهما صفرًا خائبتين ، وهو القائل: " وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ " (البقرة:١٨٦) .

وهو شهر العمل والإنتاج ؛ إذْ لا ينبغي ولا يجوز أن تتعطل حركة الحياة في هذا الشهر الكريم ، بل ينبغي أن تكون إرادة الصوم حافزًا لمزيد من

العمل ، وأن تكون مراقبة الله فيه باعثًا لمزيد من المراقبة ومن صحوة الضمير الإنساني الحي .

ولعل أهم ما نطمح إليه ، ونرجو أن نصل إليه من خلال كل ما سبق هو الصفاء مع الله ، ومع الناس ، ومع النفس ، ولن يكون ذلك إلا بالثقة الكاملة في الله ، وحسن اللجوء إليه والتوكل عليه .

والصفاء مع الناس إنما يكون بالبعد عن كل أسباب العداوة والشقاق، والفرقة والخلاف ، والبغضاء والشحناء ، والأحقاد السوداء ، والقلوب المريضة ، والغيبة والنميمة ، والكيد والمكر ، والعمل على تعطيل الآخرين ، والانشغال عما يعنينا بما لا يعنينا .

والصفاء مع النفس يكون لصلحها مع ذاتها ومع الآخرين ، والإيمان بأن ما قدر كان ، وما كان للإنسان فهو آتيه لا محالة ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوا الإنسان بشيء لم ينفعوه إلاَّ بشيء قد كتبه الله له ، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليه ، رفعت الأقلام وجفت الصحف ، وأن يكون الإنسان في توازن بين معاشه ومعاده ، وبين أمر دينه وأمر دنياه ، وأن يكف أذى لسانه ويده عن الناس ، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه .

وهو شهر الرحمة بلا منازع ، رحمة الله عز وجل بعباده ، ورحمة العباد بعضهم ببعض ، فالراحمون يرحمهم الله ، ومن لا يَرحم لا يُرحم ، وهو ما يتطلب أن نعمل على أن تعم هذه الرحمة الإنسانية كلها: إنسانها وحيوانها وطائرها ، لنؤكد للعالم كله أن ديننا دين رحمة وسلام لا عنف فيه ولا إرهاب ، وأن نبينا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) هو نبي الرحمة ، ورسالته هي رسالة الرحمة ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ " (الأنبياء: ١٠٧).

* * *

رمضان شهر الرحمة والتسامح

لا شك أن ديننا هو دين الرحمة ، دين التسامح ، دين العفو ، دين الصفح ، دين الحلم ، دين مكارم الأخلاق ، وقد علّمنا القرآن الكريم ودعانا إلى أن نصفح الصفح الجميل ، فقال سبحانه مخاطبًا نبينا (صلى الله عليه وسلم): "فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ" (الحجر: ٨٥) ، وهو الصفح الذي لا منّ ولا عتاب ولا تأنيب معه.

ويقول (عز وجل): "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ" (الأعراف: ١٩٩) ، ويقول سبحانه: " وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا " (الفرقان: ٦٣ ، ٦٤) ، ويقول سبحانه: "وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (النور: ٢٢) ، وفي الحديث النبوي الشريف: " أَنَّ رَسُولَ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: "يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ " (صحيح البخاري).

وقد كان من عاداتنا وأعرافنا الجميلة أنه إذا جاء رمضان تصالح المتخاصمون ، وتزاور الناس وتواصلوا ، وأدركوا بل أيقنوا أنه لا مجال

للخصام أو الشقاق في هذا الشهر الكريم ، وإذا كان نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) يقول: " لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثِ لَيَالٍ ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا ، وَيُعْرِضُ هَذَا ، وَخَيْرُهُمُ الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلامِ" (متفق عليه). فإن الناس يدركون أن صيامهم لا يمكن أن يكون تامًا كاملاً مع وجود الشحناء أو البغضاء فيما بينهم ، ومن ثمة كانوا بفطرتهم يحرصون كل الحرص على إنهاء أي خصومات أو شحناء قبل رمضان ، وقبل السفر إلى الحج ، ويعدون ذلك من لوازم القبول ، ولم يكن الأمر يقف عند هذا الحد ، إنما كان يتجاوزه إلى التزاور والتزاور المتبادل في ساحات كرم ومآدب إفطار وسحور هذا الشهر في أجواء عائلية وإنسانية ، لا تهدف إلا إلى تعميق أواصر الرحمة والمودة بين الأهل والجيران والأصدقاء في أريحية مصرية تستحق التشجيع والتقدير .

رمضان شهر اتساع الأخلاق والنفوس لا ضيقها ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِني امْرُؤٌ صَائِمٌ ، والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا ، إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ ، وَإِذَا لقي رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ " (متفق عليه) ، أي فليتحصن بصيامه وليحافظ عليه ، وألا ينساق إلى ما يتعرض له

من استفزاز ، فالصائم الحق هو الذي يملك نفسه عند الغضب ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " ليس الشديد بِالصُّرَعَةِ ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب " (صحيح البخاري) ، فما نراه من تصرفات عنف شاذة إنما هو غريب على ديننا وثقافتنا وهويتنا الحضارية ، ويزداد الأمر استنكارًا إذا وقع هذا العنف في هذا الشهر الفضيل ، ويكون الاستنكار أشد حدة إذا كان من إنسان محسوب شكلا على الصائمين والقائمين ، إذ لا ينبغي أن نفهم الصيام أو نقصره على مجرد الامتناع عن الطعام والشراب ، إنما هو تهذيب للطباع ، وترقيق للمشاعر ، وتقويم للسلوك المعرفي ، وتدريب على قوة التحمل ، وصولا إلى تحقيق أعلى الأهداف ، وهو تحقيق التقوى والمراقبة التامين ، حيث يقول سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " (البقرة: ١٨٣) .

وعلى الجملة فقد دعا الإسلام إلى السماحة ، واليسر ، والتيسير ، والرحمة، والرفق ، فقال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "رَحِمَ الله عَبْدًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ سَمْحًا إِذَا اشْتَرَى سَمْحًا إِذَا اقْتَضَى" (صحيح البخاري)، وقال (صلى الله عليه وسلم) : "دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ بِسَمَاحَتِهِ قَاضِيًا وَمُتَقَاضِيًا" (مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيءٍ

إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيءٍ إِلاَّ شَانَهُ "(صحيح مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم):" اللهمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ " (صحيح مسلم) .

فما أحوجنا في هذا الشهر الكريم إلى مراجعة النفس ، إلى التسامح والتصالح مع أنفسنا ، مع أهلينا ، مع أزواجنا ، مع أبنائنا ، مع أشقائنا وشقيقاتنا ، مع أعمامنا وعماتنا ، وبني أعمامنا ، وبني عماتنا ، وأخوالنا وخالاتنا ، وبني أخوالنا ، وبني خالاتنا ، وجيراننا ، وأصدقائنا ، وزملائنا ، وسائر المتعاملين معنا ؛ لنفوز ونسعد في عاجلنا وآجلنا بإذن الله تعالى .

* * *

رمضان شهر الانتصارات

رمضان شهر الانتصارات لا ريب ، ففيه كانت أول غزوة في الإسلام ، وفيه كان الفتح الأعظم فتح مكة ، وفيه كان انتصار المسلمين في عين جالوت ، وفيه أعظم انتصارات عصرنا الحديث نصر العاشر من رمضان ، ولنا في ذلك وقفات:

الوقفة الأولى: مع غزوة بدر بعد أن أذن الله (عز وجل) للمستضعفين المظلومين من أصحاب سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يدافعوا عن أنفسهم ، فقال سبحانه وتعالى: " أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ الله عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ " (الحج: ٣٩)، فنصرهم من ضعف وقلة ، وأعزهم بعد أن كانوا أذلة مستضعفين ، فقال سبحانه:" وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ الله إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ الله الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ" (آل عمران: ١٢٣ـ ١٢٥)، فهو الذي أنزل الملائكة ، وهو الذي ثبتهم ، وهو الذي ألقى في قلوب الذين كفروا الرعب ، حيث يقول سبحانه: " إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آَمَنُوا

سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ "(الأنفال: ١٢).

فما كان لهذه القلة من المسلمين أن تقتل وتهزم هذه الكثرة من المشركين لولا تثبيت الله (عز وجل) للمسلمين ، ونصره إياهم على المشركين لبغيهم وظلمهم وطغيانهم ، ذلك أن جيش المشركين هو الذي خرج إلى المدينة متجبرًا مختالًا يريد استئصال شأفة محمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ، وكان أهل المدينة قد بايعوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على حمايته داخل المدينة مما يحمون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم ، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: "أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ" فتكلم جماعة من المهاجرين فأحسنوا ، وكلما تكلم واحد منهم يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): "أشيروا علي أيها الناس" ، حتى قَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: وَالله لَكَأَنّك تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ: أَجَلْ ، قَالَ: فَقَدْ آمَنّا بِك وَصَدّقْنَاك ، وَشَهِدْنَا أَنّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقّ ، وَأَعْطَيْنَاك عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا ، عَلَى السّمْعِ وَالطّاعَةِ ، فَامْضِ يَا رَسُولَ الله لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَك ، فَوَالّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لخضْنَاهُ مَعَك ، مَا تَخَلّفَ مِنّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوّنَا غَدًا ، إنّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ صُدُقٌ فِي اللّقَاءِ، لَعَلّ الله يُرِيك مِنّا مَا تَقَرّ بِهِ عَيْنُك ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ الله ، ثُمّ قَامَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو

فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله امْضِ لِمَا أَرَاك الله فَنَحْنُ مَعَك ، وَالله لَا نَقُولُ لَك كَمَا قَالَتْ بَنُو إسْرَائِيلَ لِمُوسَى: " اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّكَ فَقَاتِلَا إنّا هَهُنَا قَاعِدُونَ " وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّك فَقَاتِلَا إنّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ ، فَوَاَلّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ سِرْت بِنَا إلَى بِرْكِ الْغِمَادِ لَجَالَدْنَا مَعَك مِنْ دُونِهِ حَتّى تَبْلُغَهُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ) خَيْرًا ، وَدَعَا لَهُ " (السيرة لابن هشام) .

الوقفة الثانية: عندما اختار النبي (صلى الله عليه وسلم) منزلاً لأصحابه قال له الحباب بْن الْمُنْذِرِ: يَا رَسُولَ الله أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ أَمَنْزِلًا أَنْزَلَكَهُ الله لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدّمَهُ وَلَا نَتَأَخّرَ عَنْهُ ، أَمْ هُوَ الرّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ قَالَ: بَلْ هُوَ الرّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله فَإِنّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ فَانْهَضْ بِالنّاسِ حَتّى نَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ ، فَنَنْزِلَهُ ثُمّ نُغَوّرُ مَا وَرَاءَهُ مِنْ الْقُلُبِ ، ثُمّ نَبْنِي عَلَيْهِ حَوْضًا فَنَمْلَؤُهُ مَاءً ، ثُمّ نُقَاتِلُ الْقَوْمَ فَنَشْرَبُ وَلَا يَشْرَبُونَ ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ): " لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرّأْيِ" (السيرة لابن هشام) ، وذلك إعلاءً لمبدأ الشورى في الإسلام.

على أن هذه الغزوة كانت كما نرى دفاعية يدافع المسلمون فيها عن أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ومدينتهم ، فلم يكن خروجهم للقتال اعتداءً إنما كان لرد العدوان .

الوقفة الثالثة: مع فتح مكة ، فقد جاء نتيجة لغدر قريش وتبييتها مع حلفائها من بني بكر لخزاعة حلفاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حيث بيتوهم بليل وقتلوهم رُكَّعًا وسُجَّدًا ، ومع ذلك لما قال أحد الناس يوم فتح مكة: "اليَوْمَ يَوْمُ المَلْحَمَةِ ، اليَوْمَ تُسْتَحَلُّ الكَعْبَةُ "، قال النبي (صلى الله عليه وسلم): " الْيَوْم يَوْم الْمَرْحَمَة، الْيَوْم يُعِزّ الله قُرَيْشًا "(مغازي الواقدي)وقال (صلى الله عليه وسلم) قولته المشهورة: " يا أهل مكة ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "اذهبوا فأنتم الطلقاء" (السيرة لابن هشام) .

الوقفة الرابعة: يوم العاشر من رمضان ، فقد كان يوم الدفاع عن الأرض والعرض والكرامة ، ألم نقل: إن القتال في الإسلام لم يكن يومًا بغيًا أو عدوانًا ، إنما هي حرب دفاعية عن الأرض ، والعرض ، والوجود .

أما النصر الأكبر والأعظم في هذا الشهر الكريم فهو الانتصار على النفس وشهواتها وجبروتها وطغيانها ، وقد قالوا: إن الإنسان لا يستطيع أن يواجه عدوًّا وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له ، متحكم فيه ، متغلب عليه.

* * *

أدب الولائم في رمضان

لا شك أن رمضان هو شهر الجود والكرم والسخاء ، فقد كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) أجود الناس ، كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، وكان أجود ما يكون في رمضان.

وقد حثنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) على إفطار الصائمين ، فقال (صلى الله عليه وسلم): " مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ لا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْء" (سنن الترمذي)

وديننا دين الكرم والسخاء وإطعام الطعام بلا شك ، فعن عبد الله بن سلام (رضي الله عنه) قال:" قدم النبي (صلى الله عليه وسلم) المدينة فانجفل الناس إليه وقالوا قدم رسول الله ، قدم رسول الله ، فأتيته فنظرتُ في وجهه فعرفت أنه ليس بوجه كذاب ، فكان أول ما سمعت منه (صلى الله عليه وسلم): "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ " (سنن الترمذي) ، ولا شك أيضًا أن إطعام الطعام وإقامة موائد الإفطار إنما تجمع الأهل والأحبة والأصدقاء ، وتزيد الألفة ، وتزيل الوحشة ، وتجمع النافر ، وتؤلف بين القلوب .

غير أن بعضنا قد يغفل عن آداب هذه الموائد وتلك الولائم ، فيدعو إليها صفوة الأغنياء وعِلْيَةَ القوم سواء من الأهل أم من غيرهم ، وينسون أهل الاستحقاق الحقيقي من فقراء الأهل ، وينسون الأيتام والمساكين ، ومن لا حظَّ لهم من جاه أو مال .

وقد نهانا ديننا ونبينا عن نسيان هؤلاء أو تجاهلهم أو إقامة الولائم دون دعوتهم ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : "بِئْسَ الطَّعَامُ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ ، يُدْعَى إِلَيْهَا الأَغْنِيَاءُ ، وَيُتْرَكُ الفُقَرَاءُ" (صحيح مسلم).

وقد نعى القرآن الكريم على المشركين عدم إكرامهم لليتيم وعدم حضهم على طعام المسكين ، فقال سبحانه:" كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا" (الفجر: ١٧ -٢٠)، ويقول سبحانه: " أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ" (الماعون: ١-٣) ، ويقول سبحانه في شأن أهل النار: " مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ " (المدثر: ٤٣-٤٤) ، ويقول سبحانه" خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ"(الحاقة: ٣٠-٣٧).

وقد حثت السنة النبوية على إجابة الدعوة ما لم يكن هناك إثم أو معصية ، فمن دُعي فليُجب ، ثم على الجميع أن يتأدب بأدب الإسلام في عدم المبالغة أو المفاخرة أو الإسراف ، أو الخروج بهذه الولائم عن مقاصدها الشرعية إلى المباهاة والمفاخرة ، فذلك كله من الإسراف والتبذير المنهي عنه في قوله تعالى: " وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ."(الأعراف: ٣١)، وقوله تعالى: "وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا "(الإسراء: ٢٦-٢٧) .

* * *

□

بين حج النافلة وقضاء حوائج الناس

للأسف الشديد تقف الرؤية الفقهية عند بعض المتصدرين للعمل الدعوي أو المنتسبين إليه عند حدود فقه الأحكام على سبيل التلقين أو التلقي دون غوص أو إدراك لفقه المقاصد أو الأولويات أو الواقع أو المتاح ؛ مما يجعل الغاية الأسمى لمقاصد التشريع غير واضحة عند بعضهم كما يجعل فريقًا آخر منفصلاً عن حاضره وواقعه والعالم الذي يعيش فيه والظروف التي تحيط به.

أولاً: **حج الفريضة**:

لاشك أن الحج أحد أركان الإسلام الخمسة التي لا يكتمل إسلام المرء المستطيع بدنيًّا وماليًّا إلا بها ، لقوله تعالى: " وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا " (آل عمران: ٩٧) ، وعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: " بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالحَجِّ ، وَصَوْمِ رَمَضَان" (متفق عليه) ، فمن استطاع الحج ولم يحج حج الفريضة فليعجل.

غير أن رحمة الله (عزّ وجلّ) بعباده ربطت الحج بالاستطاعة البدنية والمالية ، فمن كانت نيته قائمة على الحج وقعد به عجزه البدني أو المالي بلّغه الله درجة الحجيج بنيته الصادقة ، وقد جعل الله للضعفاء وغير القادرين في الذكر والصلاة والقيام وسائر القربات والنوافل ما يسمو بهم إلى درجة الحجيج وأسمى ، ما صدقت نياتهم وأخلصوا لله فيما مكنهم منه.

وأن الله (عزّ وجلّ) جعل فريضة الحج مرة واحدة ، وعندما قال نبينا (صلى الله عليه وسلم):" أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا"، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): " لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ "، ثُمَّ قَالَ: "ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ " (صحيح مسلم).

وقد اقتضت حكمة الله (عزّ وجلّ) أن يكون الحج آخر أركان الإسلام فرضًا على المسلمين ، فحج أبو بكر بالناس في السنة التاسعة من الهجرة ؛ لأن يوم عرفة لم يكن في يومه الذي قدره الله فيه بسبب زيادة قريش في عدد أيام السنة، حيث كانوا يجعلونها اثنى عشر شهرًا واثني عشر يومًا فكان الحج يقع في ذي الحجة والمحرم وصفر ورمضان وشوال وفق دورة السنين والأيام .

وفي العام العاشر للهجرة كان يوم عرفة قد وافق اليوم الذي قدره الله فيه، فقال نبينا (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ الله السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ" (متفق عليه) أي: أن الزمان قد أخذ دورته وعاد إلى هيئته التي خلقه الله عليها ، فحج نبينا (صلى الله عليه وسلم) حجة واحدة هي حجة الوداع .

وإذا كان بعض الناس يذكرنا بحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ، وَالذَّهَبِ، وَالفِضَّةِ" (سنن الترمذي) فإن ذلك مرتبط بحال الأمة ويسارها ووضع اقتصادها ، فإذا كان الاقتصاد الوطني قويًا متينًا ليس في أبناء الوطن جائع لا يجد ما يسد جوعته ، أو عار لا يجد ما يستر عورته ، أو مريض لا يجد ما يتداوى به، فليحج الناس ما شاءوا ، أو ليعتمروا ما شاءوا " .

ثانيًا: حج النافلة:

ولكن إذا كان في الأمة أو الوطن فقير لا يكاد يجد قوت يومه إلا بمشقة شديدة ، ومريض لا يكاد يجد ما يتداوى به إلا بشق الأنفس ، وشاب لا يجد ما يعف به نفسه ، فنقول إن فقه الأولويات يقتضى أن نسد أولاً جوعة كل جائع ، ونستر عورة كل عارٍ ، ونعالج كل مريض ، وأن نوفر ما يحقق للناس حياة آدمية كريمة من المطعم والملبس والمسكن والدواء والتعليم والبنية التحتية كالطرق والكباري ، والمياه ، والكهرباء ، والصرف

الصحي ، بما يحفظ لهم كرامتهم ويوفر لهم سبل الرقي والتقدم ، فكل ذلك مقدم على حج النافلة وعمرة النافلة .

فأمة لا تملك كامل قوتها ، أو كامل دوائها ، أو وسائل أمنها من سلاح وعتاد أولى بها أن تتوجه إلى سدّ هذه الجوانب قبل التفكير في حج النافلة وعمرة النافلة .

كما أننا نلمس أثر الزحام الشديد في الحج على راحة الحجاج وسلامتهم، فالحكمة والفقه يقتضيان أن يترك من أدى الفريضة الفرصة لغيره ممن لم يؤدها ، فدرء المفسدة المتوقعة من كثرة الزحام مقدم على جلب المنفعة المترتبة على النوافل .

العمل المتعدي النافع مقدم على العمل القاصر النفع:

ولاشك أن نفع قضاء الحوائج متسع ومتعدد ، وقد يكون صدقة جارية في إصلاح طريق أو بناء جسر أو مشفى أو مدرسة ، ونبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول : "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ "(صحيح مسلم)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "إِنَّ لله خَلْقًا خَلَقَهُمْ لِحَوَائِجِ النَّاسِ يَفْزَعُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ فِي حَوَائِجِهِمْ أُولَئِكَ هُمُ الْآمِنُونَ مِنْ عَذَابِ الله (عَزَّ وَجَلَّ)" (حلية الأولياء)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ فِي الدُّنْيَا سَتَرَهُ اللهُ فِي الْآخِرَةِ وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ"

(سنن النسائي) ، فهذا كله نفع متعدد أوسع وأرحب من حج النافلة وعمرة النافلة.

بين الحج النافلة وفروض الكفايات:

وربما لا يدرك بعض الناس من علم فروض الكفايات سوى صلاة الجنازة ، وردّ السلام ، وتشميت العاطس .. ونحو ذلك .

غير أننا نوضح أن فروض الكفايات تشمل إطعام كل جائع ، وكساء كل عار ، ومداواة كل مريض ، كما تشمل القيام بالمصالح الأساسية للمجتمع التي لا تستقر حياة الناس إلا بها ، والإسلام علمنا التراحم والتكافل ، وقد قال نبينا (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ"، قَالَ الراوي: فَذَكَرَ النبي (صلى الله عليه وسلم) مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ " (صحيح مسلم).

ولاشك أن الوفاء بهذه الاحتياجات واجب كفائي إذا قام به بعض المسلمين سقط الإثم عن الجميع ، وإن لم يقم به أحد أثم الجميع .. والواجب الكفائي مقدم بلا شك على النوافل حتى يُقضى ، ثم إنه مسئولية تضامنية بين أبناء المجتمع جميعًا من القادرين على سد الثغرات ورفع الكروب عن الناس والوطن .

شكر النعمة:

وهنا يبرز الدور الوطني للأغنياء في خدمة وطنهم ، والوفاء بحق النعمة التي منحهم الله إياها ، وهذا لا يكون إلا بالشكر ، يقول الحق سبحانه: "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ " (إبراهيم : ٧) ، والشكر لا يكون بالكلام وتقبيل اليد ظاهرًا وباطنًا ، إنما يكون بالعمل يقول تعالى:"اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ شُكْرًا" (سبأ: ١٣) وشكر النعمة يكون من جنسها ، فشكر المال يكون بإنفاقه في سبيل الله (عزّ وجلّ) ، وسائر وجوه البر وقضاء الحوائج .

وقد قيل لبشر الحافي إن فلانًا الغني مالًا كثر صومه وصلاته ، فقال: إنه لمسكين ، لقد ترك حاله ودخل في حال غيره ، إن واجبه إطعام الطعام وبناء الخيام ، فهذا أفضل من تجويعه لنفسه ، ومن جمعه للدنيا ومنعة للفقراء . وقد عاب الإمام أبو حامد الغزالي على بعض المتدينين من الأغنياء الذين يحرصون على إنفاق المال في الحج بعد الحج والعمرة بعد العمرة ، ولا يوفون بحق الفقراء وأصحاب الحاجات ، فربما تركوا جيرانهم جياعًا لا طعام لهم وذهبوا بنفقاتهم الواسعة لإشباع رغباتهم النفسية في كثرة الحج والعمرة غير فاهمين لمقاصد الإسلام الكبرى ، وروى أن رجلًا جاء يودع بشر بن الحارث وقال: قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء ؟ فقال له: كم أعددت للنفقة ؟ فقال: ألفي درهم. قال بشر: فأي شيء تبتغى بحجك ؟

تزهدًا أو اشتياقًا إلى البيت وابتغاء مرضاة الله ؟ قال: ابتغاء مرضاة الله ، قال نعم: قال بشر: فإن أصبت مرضاة الله تعالى ، وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم ، وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى: أتفعل ذلك ؟ قال: نعم. قال: اذهب فأعطها لعشرة: مديون يقضي دينه ، وفقير يرم شعثه ، ومعيل يغنى عياله ، ومربي يتيم يفرحه ، وإن قوى قلبك تعطيها واحدًا فأفعل ، فإن إدخالك السرور على قلب المسلم ، وإغاثة اللهفان ، وكشف الضر ، وإعانة الضعيف ... أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام! قم فأخرجها كما أمرناك ، وإلا فقل لنا ما في قلبك؟. فقال: يا أبا نصر ! سفري أقوى في قلبي. فتبسم بشر رحمه الله ، وأقبل عليه ، وقال له: المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضى به وطرًا ، فأظهرت الأعمال الصالحات، وقد آل الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين.

* * *

□

وقفة مع شعيرة الحج

تقوم شعيرة الحج على التضحية بالمال والجهد والبدن ، إذ يبدأ الإنسان عند خروجه من منزله بدعاء السفر: اللهم إنك أنت الصاحب في السفر والخليفة في المال والأهل والولد ، فيلقي حموله وهمومه وأحواله كلها إلى أمر ربه (عز وجل) ، مدركا أن الأمر كله لله ، ولو صدقت نية الحاج فهو في معية الله وفي ولايته ، حيث يقول الحق سبحانه : "نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ" (فصلت: ٣١) ، ومن تولاه الله كفاه وأغناه وأراح نفسه وقلبه ، يقول سبحانه : "وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ" (الطلاق : ٢ ، ٣) ، ويقول سبحانه: "وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا" (الطلاق: ٤) ، ويقول سبحانه : "وَمَنْ يَتَّقِ الله يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا" (الطلاق: ٥)، ويقول سبحانه : "مَا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا" (فاطر: ٢) ، ويقول سبحانه : "أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ" (الزمر: ٣٦).

ثم يتجرد الإنسان من الدنيا وعلائقها من مال وعتاد وولد وسلطان محرمًا بلباس متجردة هي أشبه ما يكون بتلك الأكفان التي يلقى بها ربه، وعلى العاقل أن يستحضر أن هذا اليوم آت لا محالة ، وكل طويل في حساب

الزمن قصير، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقي من وعظ بنفسه ، والعاقل من يبيع دنياه بآخرته ، و الأحمق من يبيع آخرته بشيء من متاع الدنيا الزائل، وفي هذا نُذَكِّر بقول القائل: يا ابن آدم أنت في حاجة إلى نصيبك من الدنيا لكنك إلى نصيبك من الآخرة أحوج ، فإن أنت بدأت بنصيبك من الدنيا ضيعت نصيبك من الآخرة ، وكنت في نصيبك من الدنيا على خطر ، وإن أنت بدأت بنصيبك من الآخرة مرَّ بنصيبك من الدنيا فانتظمه انتظامًا فأصلح الله لك أمر الدنيا والآخرة ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ الله شَمْلَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يُؤْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا ، إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ ، ومَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ ، جَمَعَ الله شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَة "(المعجم الكبير للطبراني)

وعندما يتعلق الإنسان بأستار الكعبة يدرك بلا شك أنه يأوي إلى ركن شديد ورب عظيم رحيم ، حيث الأمل في رحمة الله ورضوانه ، في كشف الكرب ، وجلاء الظلم ، وفتح أبواب الرحمة في الدنيا والآخرة ، وذلك عند بيت الله المحرم ، حيث أمر الله عز وجل نبيه وخليله إبراهيم (عليه السلام) أن يؤذن في الناس بالحج ، واستجاب إبراهيم (عليه السلام)، بلا تفكير ولا تردد مع أن الأرض آنذاك كانت صحراء قاحلة لا إنس ولا بشر، لكن إبراهيم (عليه السلام) كان يدرك أن الخير في طاعة الله (عز وجل) ، وأن ما عليه هو تنفيذ الأمر الإلهي، وأن الاستجابة أو عدم الاستجابة لندائه ليست

من حوله ولا قوته، إنما هي من مشيئة الله وإرادته " إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ الله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " (القصص: ٥٦)، أذّن يـا إبراهيم وعلى الله البلاغ ، فأذن إبراهيم وبلغ نداؤه العالمين، فأتوا من كل حدب وصوب رجالا وركبانا من كل فج عميق يرجون رحمة ربهم ويخافون عقابه ، يحدوهم الأمل في القبول والغفران ، وأن يصلح الله عز وجل أحوال البلاد والعباد ، وأن ييسر لمصر وأهلها سبل الرشاد والأمن والأمان والاستقرار .

ثم يأتي السعي بعد الطواف ليدرك الإنسان ما كان من أم إسماعيل في أخذها بالأسباب ، وليت المسلمين جميعا حجاجا وغير حجاج يستفيدون من هذه الدروس في الأخذ بالأسباب ، ويدركون أن الله (عز وجل) لا يضيع أجر المجتهدين. ويأتي السعي بين الصفا والمروة في إطار رمزية كبرى هي السعي والعمل لنصرة دين الله من جهة ، وإعمار الكون لصالح البلاد والعباد من جهة أخرى .

ويأتي تقديم الهدي ونحـر الأضاحي لتخليص النفس من علائـق الشح والبخل، في رمزية كبرى للتضحية في سبيل الله ، وفي سبيل الوطن ، وفي قضاء حوائج الناس من إطعام الجائع وكساء العاري وإغاثة الملهوف ، وإسكان الشباب ، وبناء المجتمعات بتوفيرها ما تحتاجه من مقومـات لا بـد منها في مجالات الصحة ، والتعليم ، والطاقة ، وغير ذلك.

أما الرجم فإشارة إلى العداء المستحكم بين الشيطان وبني الإنسان ، ليدرك الإنسان في كل زمان ومكان أن الشيطان عدو مبين ، متربص بالإنسان ، قاعد له على كل صراط مستقيم يعمل على ضلاله وغوايته ، يأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وشماله إلا من رحم رب العالمين، وحفظه من غواية الغاوين ، وهنا يحاول الشيطان أن يأتيك من أي طريق يستطيع به النفوذ إليك ، يقول الإمام الأوزاعي (رحمه الله): ما أمر الله (عز وجل) في الإسـلام بأمر إلا حاول الشيطـان أن يأتيــك من إحدى جهتين لا يبـــالي أيهما أصاب الإفراط أو التفريط، الغلو أو التقصير .

فالعاقل الحكيم من يفوِّت على الشيطان الرجيم كلتا الفرصتين ، فلا يميل أي الميل إلى اليمين أو اليسار ، إنما يقف وفق منهج الإسلام السمح في منطقة الوسطية والاعتدال ، يقولون: لكل شيء طرفان ووسط ، فإن أنت أمسكت بأحد الطرفين مال الآخر، وإن أنت أمسكت بالوسط استقام لك الطرفان .

* * *

□

الحج وقضية التسليم

الإسلام يعني الاستسلام والخضوع والانقياد المطلق لله عز وجل ، فالمسلم الحقيقي هو من أسلم وجهه وأمره كله لله رب العالمين .

غير أن قضية التسليم المطلق في حياة المسلم وعقيدته وقناعاته تبلغ أوجها وذروة سنامها في مناسك وشعائر الحج.

فمذ أسلم الخليل إبراهيم (عليه السلام) وجهه لله وتل ابنه للجبين: "قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ الله مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ" (الصافات: ١٠٢ – ١٠٥)

وحين نادته هاجر (عليها السلام) عندما تركها وولدها إسماعيل (عليه السلام) عند البيت الحرام بوادٍ غير ذي زرع آنذاك ، ونادته يا إبراهيم: آلله أمرك بهذا ؟ فأجابها بأنه أمر الله ، فقالت وباطمئنان شديد: " إذن لا يضيعنا "(صحيح البخاري) .

وتتوالى مناسك الحج: طوافًا ، وسعيًا ، ورميًا ، ووقوفًا بعرفة ، ومبيتًا بمنى ، ومزدلفة ، ونحرًا ، وحلقًا أو تقصيرًا ، مما قد تبرز بعض حكمه وأسراره ، وتخفى بعض هذه الحكم والأسرار على كثير من الخلق ، لكن

يبقى معنى التسليم المطلق لله أمرًا محوريًّا ومفصليًّا في فهم حكم الحج وأسراره ومراميه .

غير أن ذلكم الحاج الذي يدرك تلك المعاني ويعيشها في الحج بروحه بحق وصدق ينبغي أن تكون هذه المعاني الإيمانية حاكمة لحركة حياته كلها، فيعيش بكل كيانه فاهمًا أن الأمر كله لله تعالى ، حيث يقول سبحانه: " مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (فاطر:١). ويقول سبحانه: "وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ" (الأنعام: ١٨،١٧)، ويقول سبحانه: "قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِيَ الله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ الله عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ" (الزمر:٣٨) ، فيعيش من يستمسك بالإيمان بالله ويحسن تفويض الأمر له - في ذل وانكسار لله ربِّ العالمين - عيشة راضية قوامها الرضا والتسليم والإيمان الراسخ الذي يمنح صاحبه القوة والصلابة في الحق وعميق الرضا بالقضاء والقدر ، فينال جزاء الشاكرين في النعماء والسراء ، وجزاء الصابرين في البأساء والضراء ، وهذا هو حال المؤمن كما حدثنا عنه نبينا الكريم (صلى الله عليه وسلم) .

* * *

شعيرة الأضحية ومقاصدها السامية

للأضحية مقاصد سامية ، فهي من جهة طهرة للمال وصاحبه ، ومن جهة أخرى إغناء للفقراء ، وتوسعة على الأهل والأصدقاء والجيران والأحباب.

وهي سنة مؤكدة عن سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقد ضحّى (صلى الله عليه وسلم) بِكَبْشَيْنِ أَقْرَنَيْنِ أَمْلَحَيْنِ (صحيح البخاري) ولما سئل عن الأضاحي قال : " سنَّةُ أَبِيْكُمْ إِبْرَاهِيْمَ (عَلَيْهِ السَّلامُ)(السنن الكبرى للبيهقي).

ويقول (صلى الله عليه وسلم): " مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ مِنْ عَمَلٍ يَوْمَ النَّحْرِ أَحَبَّ إِلَى الله مِنْ إِهْرَاقِ الدَّمِ ، إِنَّهَا لَتَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا ، وَأَشْعَارِهَا ، وَأَظْلافِهَا ، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَـعُ مِنَ الله بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ مِنَ الأَرْضِ ، فَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا"(سنن الترمذي)

وأكثر الناس إنما يحفظون أو يفهمون أو يقفون عند قول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " كُلُوا وَأَطْعِمُوا وادَّخِرُوا" (صحيح البخاري) ، وينظرون بما يشبه التقديس إلى أقوال بعض الفقهاء بتقسيم الأضحية إلى ثلاثة أقسام: ثلث للفقراء ، وثلث للإهداء ، وثلث للإنسان وأهله ، على أن هذا التقسيم هو عملية تقريبية للتصرف ، وكان القصد منه ألا يجور المضحي على نصيب الفقراء ، وأن يخصهم على أقل تقدير بالثلث في أضحيته ، فمن زاد زاده الله فضلاً.

ويغفل كثير من الناس عن أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) لما رأى بالناس فاقة قال لهم: " مَنْ ضَحَّى مِنْكُمْ فَلاَ يُصْبِحَنَّ بَعْدَ ثَالِثَةٍ وَبَقِيَ فِي بَيْتِهِ مِنْهُ شَيْءٌ " ، فَلَمَّا كَانَ العَامُ المُقْبِلُ ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله ، نَفْعَلُ كَمَا فَعَلْنَا العَامَ المَاضِي؟ قَالَ: "كُلُوا وَأَطْعِمُوا وَادَّخِرُوا ، فَإِنَّ ذَلِكَ العَامَ كَانَ بِالنَّاسِ جَهْدٌ، فَأَرَدْتُ أَنْ تُعِينُوا فِيهَا"(صحيح البخاري) .

فحيث يكون الرخاء والسعة يكون العمل بقوله (صلى الله عليه وسلم): " كلوا وتصدقوا وادخروا "، وحيث يكون بالناس جهد وحاجة أو شدة وفاقة يكون العمل بقوله (صلى الله عليه وسلم): "من ضحى منكم فلا يصبحن بعد ثالثة وفي بيته منه شيء".

على أن الأجر على قدر التوسعة على الفقراء والمحتاجين ، فعندما سأل نبينا (صلى الله عليه وسلم) السيدة عائشة (رضي الله عنها) حين ذبحوا شاة، فقال لها: " مَا بَقِيَ مِنْهَا ؟ " ، قالت: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُها ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم): " بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرُ كَتِفِهَا " (سنن الترمذي) فالذي يعطي ويتصدق به هو الذي يدخر للإنسان ويجده ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: "مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ"(النحل:٩٦) .

وقد حثنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) على التوسعة على الفقراء والمساكين في أيام العيد ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "أَغْنُوهُمْ فِي هَذَا الْيَوْمِ "(سنن

الدارقطني)، أي أعطوهم ووسعوا عليهم ولا تُحوجوا أحدًا منهم إلى السؤال في هذا اليوم .

وينبغي أن يضع المعطي نفسه موضع الآخذ ، ويقدر ماذا كان يتمنى لو كان مكان الآخذ ليفعل معه ؟ ، حيث يقول الحق سبحانه في كتابه العزيز: "وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ إِلاَ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ" (البقرة:٢٦٧) .

وكما تتحقق الأضحية بالذبح تتحقق بالصك ، فلا شك أنه يعظم من نفع الأضحية ، وبخاصة لمن لا يملك آلية لتوزيعها على الوجه الأمثل ، مما يجعلها تصل عبر منظومة الصكوك إلى مستحقيها الحقيقيين ، وهو ما يزيد من نفع الأضحية وثوابها في آن واحد ، كما أنه يحقق إيصال الخير إلى مستحقيه بعزة وكرامة وآلية لا تمتهن آدمية الإنسان أو تنال منها .

وما أجمل أن يجمع المستطيع الموسر بين ذبح الأضحية توسعةً على أهله وذويه ، وشراء الصكوك توسعة على عامة الفقراء في المناطق الأكثر احتياجًا.

* * *

التوبة النصوح

التوبة هي ترك الذنب ، والندم عليه ، والعزم على عدم العود إليه ، واستدراك ما أمكن من أداء الحقوق .

والتوبة التامة هي التي تجمع بين ترك القبيح وتحري الجميل ، أما النصوح فهي التي تصل بحال القلب إلى كره المعصية ، فلا تخطر للإنسان على بال من شدة كرهه لها ، ولا ترد له على خاطر أصلا ، وإن عرض له منها عارض نفر منها نفور الفارِّ من النار.

وقال بعضهم: يقال لمن خاف العقاب صاحب توبة ، ولمن يتوب طمعًا في الثواب صاحب إنابة ، ولمن يتوب لمحض مراعاة أمر الله صاحب أوبة ، والأوبة هي صفة الأنبياء والمرسلين وعباد الله المخلصين ، حيث يقول الحق سبحانه عن سيدنا أيوب عليه السلام: " إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ " (ص: ٤٤) .

على أننا نؤكد على أمور:

١- أن التوبة النصوح لا تكون فقط بالإقلاع عن المعاصي أو العزم على عدم العودة إلى ارتكابها ، إنها تكون أيضًا بالندم على ما كان من تقصير في الفرائض والطاعات ، والعمل على استدراك ما أمكن من ذلك ، كصلاة الفوائت ، وقضاء الصيام ونحو ذلك ، مع الاجتهاد في النوافل من باب

قوله تعالى: "إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ" (هود: ١١٤) ، وقد قال بعض أهل العلم: إن التوبة من ترك المأمور أولى من التوبة من فعل المحظور ؛ لغفلة الناس غالبًا عن النوع الأول واستحضارهم الدائم للنوع الثاني .

٢- أن حقوق العباد لا تسقط بمجرد الندم والاستغفار ، إنما لا بد فيها من الاجتهاد في رد حقوق العباد ، فقد حذرنا النبي (صلى الله عليه وسلم) من أخذ حقوق العباد بدون حق، فقال (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه يومًا:" أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، فَقَالَ:" إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ" (صحيح مسلم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَلَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ" (صحيح البخاري) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): "لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقْتَصَّ لِلشَّاةِ الْجَمَّاءِ مِنْ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ تَنْطَحُهَا " (مسند أحمد).

٣- أن التوبة الصادقة النصوح تورث محبة الله (عزّ وجلّ) حيث يقول سبحانه في كتابه العزيز:" إِنَّ الله يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ " (البقرة: ٢٢٢)، وهي سبيل تكفير الذنوب، حيث يقول سبحانه: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى الله تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي الله النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (التحريم: ٨)، وبالتوبة النصوح يبدل الله سيئات العبد التائب إلى حسنات، حيث يقول الحق سبحانه: " إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا "(الفرقان: ٧٠).

٤- أن الله (عز وجل) قد فتح باب التوبة واسعًا أمام عباده فقال سبحانه: " قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " (الزمر: ٥٣)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "إنّ الله- عزّ وجلّ- يبسط يده باللّيل ليتوب مسيء النّهار، ويبسط يده بالنّهار ليتوب مسيء اللّيل، حتّى تطلع الشّمس من مغربها " (صحيح مسلم)، وعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم): " لله أَفْرحُ بِتوْبةِ عبدِه مِنْ رجُلٍ نَزَل مَنْزِلاً وبه مَهْلَكَةٌ، وَمَعهُ رَاحِلتُهُ، عَلَيْها طَعامُهُ وَشَرابُهُ، فَوَضعَ

رْأسَهُ فنام نَوْمَةً، فاسْتَيقظَ وقدْ ذَهَبتْ راحلتُهُ، حتّى اشْتَدّ عليهِ الحَرُّ والعَطشُ أوْ ما شاء الله، قال: أَرجعُ إلى مكاني، فرجعَ فنامَ نوْمةً، ثم رفع رأسه، فإذا راحلتُه عِنده " (صحيح البخاري) .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النّبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) فيما يرويه عن ربّه- عزّ وجلّ- قال: " أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا ، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ" (صحيح مسلم) .

أن التوبة تفتح باب الخير في الدنيا والآخرة ، حيث يقول سبحانه على لسان سيدنا نوح (عليه السلام): " فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا"(نوح:١٠ - ١٢)، ويقول تعالى على لسان سيدنا شعيب (عليه السلام): " وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا

إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ " (هود: ٥٢) .

٥- أن التوبة إنما هي تَعبُّدٌ وقربة إلى الله (عز وجل) وإن لم تسبق أو تقترن بذنب ، فهي زيادة تقرب وخضوع وتذلل لله (عز وجل) ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ الله وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ " (صحيح البخاري) .

❊ ❊ ❊

حســــن الخـــاتمـــة

الأعمال بخواتيمها ، وخير الناس من طال عمره وحسن عمله ، وختم له بحسن العاقبة ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا "(سنن ابن ماجه) ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول:" يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ "، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ الله: إِنَّكَ تُكْثِرُ أَنْ تَقُولَ: " يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ "، قَالَ: "وَمَا يُؤَمِّنِّي، وَإِنَّمَا قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْ الرَّحْمَنِ ، إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَ عَبْدٍ قَلَّبَهُ "(مسند أحمد) ، ويقول نبينا (صلي الله عليه وسلم): " كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَآخِيَيْنِ ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ ، فَيَقُولُ: أَقْصِرْ فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي ، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟، فَقَالَ: والله لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللهُ الْجَنَّةَ،

فَقَبَضَ اللهُ أَرْوَاحَهُمَا ، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا ؟ ، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا ؟، وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ"(مسند أحمد) ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه): وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ " (مسند أحمد).

ويضرب القرآن الكريم مثلاً لسوء العاقبة فيقول تعالى: " أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ " (البقرة: ٢٦٦).

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بَعَثَهُ اللهُ عَلَيْهِ" (مسند أحمد) ، فالشهيد يأتي يوم القيامة وجرحه يثغب دمًا ، اللون لون الدم، والريح ريح المسك ، ومن مات حاجًّا بُعِثَ يوم القيامة مُلبيًا ، وهكذا في سائر أعمال الخير ، فلينظر كل واحد منَّا في الحال التي يرجو أن يبعث عليها ، ولو فكر كل واحد منَّا في ذلك جيدًا فيما يجب أن يرى نفسه عليه ، وما لا يجب أن يرى نفسه عليه عند لقاء الله (عز وجل) يوم القيامة لما أقدم على عمل سوء أو منكر أو قبيح قط ، ولا اجتهد أن يكون على الصورة التي يجب أن يلقى الله (عز وجل) عليها .

وليس الأمر في حسن الخاتمة مقصورًا على أعمال العبادات من صلاة وصيام وحج ودعاء وذكر وقراءة قرآن ، أو محصورًا في هذه الأمور فحسب، إنما حسن الخاتمة يتجاوز ذلك إلى كل عمل يقوم به الإنسان ، فمن كان يكفل يتيمًا فلا ينبغي أن يتركه في منتصف الطريق بلا عذر ، إنما عليه أن يأخذ بيده إلى أن يبلغ رشده ويقوى على حمل أمره ، وكذلك من يقوم على شأن طالب علمٍ فقيرٍ ، فليجتهد أن يواصل الخير معه إلى أن يحصل على أعلى الدرجات العلمية ما دام هذا الطالب مؤهلاً لذلك ، وكذلك من يعمد إلى بناء مسجد أو مشفى أو دار سكن لإيواء غير القادرين أو أطفال الشوارع أو سكان بعض العشوائيات ، كل هؤلاء عليهم ألا يتوقفوا في منتصف الطريق وألا يصابوا بالفتور ، إنما عليهم أن يواصلوا العمل ما وسعهم ذلك ، وكذلك حال من يعلم العلم أو الفقه أو القرآن الكريم .

وليدرك الإنسان أنه كلما دنا أجله كان أكثر حاجة أن يبذل جهدًا أكبر في الخير ، نسأل الله (عز وجل) أن يوفقنا لعملٍ صالحٍ ثم يقبضنا عليه غير ضالين ولا مضلين ، ولا مغيرين ولا مبدلين ، ولا فاتنين ولا مفتونين ، وأن يتقبل صلاتنا وصيامنا وركوعنا وسجودنا ، وأن يرزقنا الدوام على طاعته ، فخير الأعمال ما داوم عليه صاحبه وإن قلّ.

❊ ❊ ❊

فهـرس الموضـوعـات



رقم الإيداع: